الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة وهران، السانيا
كلية الآداب، اللغات والفنون
قسم اللغة العربية وآدابها

مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة بعنوان:

الاتّصال اللساني وآلياته التداولية في الصناعتين لأبي هلال العسكري

مشروع العلوم اللغوية والاتّصال"

إعداد الطالبة:
*سامية بن يمينة

إشراف الأستاذ الدكتور:
*أحمد عزوز.

اللجنة المناقشة:

الأستاذ الدكتور: سليمان عشراتي رئيسا.
الأستاذ الدكتور: أحمد عزوز مشرفا ومقررا.
الأستاذ الدكتور: مسعود صحراوي عضوا مناقشا.
الأستاذ الدكتور: مختار حبّار عضوا مناقشا.

السنة الجامعية: 2006- 2007م.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ القُرْآنَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ البَيَانَ)

سورة الرحمن (1-4)

المقدِّمة:

شكّل الإنتاج اللغوي موضوعا رحبا للدراسات العلمية؛ إذ احتوته مجموعة من العلوم، منها علم الاتّصال الذي ينظر إليه على أساس أنّه عملية إجرائية تقتضي التفاعل المتبادل بين المرسل والمرسل إليه وفق ضوابط معيّنة، ولكنّه يشترط في هذين الطرفين المعرفة الواعية بآليات التواصل التي تضمن هذا النشاط لكي تتحقّق الغايات المرجوّة. ومنها البلاغة التي تبحث في الإفادة التي يستلزمها هذا الأداء اللغوي وكيفيات تحقيقه في صورة مقبولة ومعرض حسن، حتى تضمن له القبولية. ومنها أيضا التداولية كعلم حديث ينظر إلى هذا الإنتاج على أساس أنّه فعل كلامي مبني على مقصد معيّن، يوجّهه الموقف الاجتماعي الذي يوضّحه ويفسّره.

ومنه نلاحظ التبعيّة التي لا يمكن تجاهلها بين هذه العلوم في تفسير الأداء اللغوي، منذ أن يُنجَز من لدن المتكلّم إلى أن يصل إلى المتلقّي، ويُحدِث القبوليّة التي يقتضيها النظام اللغوي في البيئة المعيّنة. وقد أخذ هذا الأمر بعض العلماء في تفسير العملية اللغوية. وإذا ما فتحنا خزانة التراث نلفي تلك الأفكار القيّمة التي قدّمها علماؤنا في مؤلّفاتهم لتفسير بعض القضايا التي تتعلّق بهذه التبعيّة. ومن هذه المصنّفات كتاب "الصناعتين؛ الكتابة والشعر" الذي طرح فيه أبو هلال العسكري كثيراً من الآراء، تفسّر الاتّصال اللغوي ضمن معطيات علميّة لها صلة مباشرة بالبلاغة وعلم الاتّصال والتداولية؛ ولذلك اخترت هذا الكتاب موضوعا لعملي، من أجل الوقوف على رؤية صاحبه للاتّصال اللغوي، والكشف عن الآليات التداولية التي تضبطه.

وإذا كان لكل باحث أسباب ذاتية تدعوه إلى طرق موضوع ما فإنّني لا أنكر أنّ إحساسي بخدمة البحث اللغوي هو الداعي المباشر الذي جعلني أنتقيه، خاصّة وأنّه متعلّق بتراثنا الذي لا يزال بحاجة إلى السواعد التي تكشف عنه، من أجل بعث مساره الإبداعي الذي سطّره علماؤنا.

أما عن الأسباب الموضوعية التي جعلتني أبحث في هذا المصنّف فقد تنوّعت وتعدّدت منها:

-تلبية تلك الدعوة التي يحثّ فيها الدارسون إلى ضرورة إعادة قراءة التراث اللغوي بوسائل منهجية حديثة، من أجل استنباط الأسس المعرفية التي انبنى عليها الفكر الموروث، وبالتالي المساهمة في تفعيل التراث في الدراسات اللغوية الحديثة.

-والكشف عن الرؤية التي قدّمها العسكري للأداء اللغوي، بنوعيه المكتوب والمنطوق، العادي والإبداعي.

-والوقوف على أفكار صاحب هذا الكتاب، والتي لها صلة مباشرة بالعلوم الثلاثة، وبالتالي بيان القيمة العلمية لهذا المصنّف.

ويجب أن نشير إلى أنّه على الرغم من أنّ دارسينا القدامى –ومنهم العسكري- لم يتناولوا قضايا الاتّصال والتداولية بمصطلحاتهما وعلميتهما إلاّ أنّهم قد تحدّثوا عن المفاهيم التي يقتضيها هذان المجالان؛ كالبيان والتبليغ والمقصد والمقام والبلاغة في حدّ ذاتها، وهذا ما يتّضح أكثر في كلامهم عن شروط الاتّصال البليغ، والمبني على غايات معيّنة. وفي ظلّ هذا الطرح انطلقت من أقوال أبي هلال التي درست الاتّصال اللغوي، وقدّمت المفاهيم والمصطلحات ذات العلاقة بالعلوم الثلاثة، ثمّ شرحتها وحلّلتها من خلال ما قدّمه لغويونا القدامى في ذلك من جهة، وما ذكره الدارسون المحدثون في رحاب المقتضيات العلمية الحديثة من جهة أخرى.

ولإثراء ذلك أثرت الإشكاليات الآتية:

إلاَمَ ترجع بلاغة الاتّصال اللغوي لدى أبي هلال؟ هل إلى المميّزات التي تطبع الرسالة اللغوية خاصّة وأنّ كتاب الصناعتين تعلّق بفنّي الشعر والكتابة؟ أم إلى آليات ترتبط بأركان العملية الاتّصالية للغة؟ ثم ما هي الآليات التداولية التي تضبط الاتّصال اللساني عند العسكري؟ وهل استطاع هذا العالم أن يقدّم تصوّرات متناسقة حول طبيعة اللغة في الاتّصال العادي والفنيّ؟

ولمعالجة هذه القضايا قسّمت هذا العمل إلى ثلاثة فصول مصدّرة بمقدّمة ثمّ مدخل كان "حول الاتّصال اللغوي والبلاغة والتداولية"، وقسّمته إلى خمسة مباحث؛ الأول أعطيت فيه نظرة تاريخية حول علم الاتّصال، والثاني عرّفت فيه بالاتّصال، وقدّمت في الثالث أنواع الاتّصال ووظائفه، ثمّ بيّنت في المبحث الرابع نوعَيْ الاتّصال؛ اللفظي وغير اللفظي، أما المبحث الخامس فكشفت فيه عن العلاقة بين البلاغة والاتّصال والتداولية، وقد انطلقت ههنا من أفكار تمام حسان من جهة، وآراء "أوستين Austin" من جهة أخرى، بغية الكشف عن المعطيات التي تؤطّر الفعل الكلامي.

أما الفصل الأوّل فسمّيته "أشكال الاتّصال اللغوي عند أبي هلال العسكري"، جزّأته إلى ثلاثة مباحث أساسية، كان الأوّل حول الصناعتين ومنهجيته، وكشفت في مبدأ الأمر عن ماهية الصناعة وضوابطها، ثم شرحت اعتبارات تأليف الكتاب، لأقف بعد ذلك على محتويات الكتاب ومنهجه. أما المبحث الثاني فخصّصته للاتّصال الكتابي؛ إذ عرّفت فيه أولا بهذا الشكل، ثمّ قدّمت تقنيات الكتابة التي ارتضاها أبو هلال للكتابة، والتي تتعلّق بضرورة المعرفة بالعربية لتصحيح الألفاظ وإصابة المعاني، ثم المعرفة بالحساب وعلم المساحة والأزمنة والشهور، فامتلاك آليات صنعة الكتابة، وأخيرا إدراك مستدعيات المقام. وبعد ذلك ناقشت طبيعة الاتصال الكتابي عند العسكري، والتي ترتبط في أساسها بـ"موضوع الرسالة وغايتها"، و"موضوع الرسالة والمكتوب إليه"، و"الكاتب والمكتوب إليه وموضوع الرسالة معا". أما المبحث الثالث فدرست فيه الاتّصال الشفاهي، وشرحت في مبدأ الأمر كيفية بناء هذا الشكل عند أبي هلال، ثم تطرّقت إلى نظم الشعر وخصائصه لدى صاحب الصناعتين، وبعد ذلك ضبطت كيفية بناء الخطابة، وكشفت عن المميزات التي تطبعها، بغية ضبط الآليات التداولية التي تؤطّرها.

وعنونت الفصل الثاني: "أركان الاتّصال اللغوي عند أبي هلال العسكري"، وبالرغم من أنّ آراء العسكري كانت متناثرة في كتابه إلاّ أنّها ارتبطت بكل ركن من أركان الاتّصال، ولاحظت أنّه ربط كلّ ركن بشروط استوجب حضورها في المتكلّم والسامع والمرسلة اللغوية، ولإثراء الأفكار التي قدّمها أبو هلال استعنت بأقوال الحكماء والبلغاء والعلماء القدماء كالجاحظ وابن الأثير والسكاكي والجرجاني، والمحدثين كـ "أوستين Austin" و"لازويل Lazwel" و"سورل Searle" وغيرهم.

أما الفصل الثالث فخصصته لخصائص الرسالة اللغوية وأغراضها عند أبي هلال، فحدّدت فيه مجمل الميزات الجوهرية للرسالة اللغوية لكي تكون حسنة التأليف وذات جودة في التركيب. ثمّ بيّنت أنّ الرسالة تتحقّق عن طريق الاتّصال العادي والمألوف، أو الاتّصال المعدول، وهو الذي يعدل فيه المتكلّم عن الظاهر وفق خصوصيات تتعلّق بالمقام من جهة، وبالموضوع من جهة أخرى. ثمّ قدّمت أغراض الرسالة التي اسنبطناها مع أبي هلال، وترتبط بالإفهام، أو الإقناع، أو التأثير والإمتاع.

أما الخاتمة فضمّنتها مجمل النتائج التي توصّلت إليها من البحث.

وقد اعتمدت لنسج خيوط هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي القائم على عرض مسائل هذا الموضوع ثم مناقشتها وإثرائها انطلاقا مما قاله العلماء القدماء من جهة، ومما ذكره المحدثون من جهة أخرى، والإفادة من الطروحات المقدّمة في البلاغة والاتّصال والتداولية.

وقد اعتمدت في بناء مباحث هذا الموضوع على مؤلّفات لها علاقة مباشرة بالموضوع، وقد تنّوّعت بين المصادر العربية القديمة؛ ومنها "كتاب الصناعتين الكتابة والشعر" للعسكري (ت395هـ)، و"البيان والتبيين" للجاحظ(255هـ)، و"دلائل الإعجاز" للجرجاني (471هـ)، و"مفتاح العلوم" للسكاكي (626هـ)، و"منهاج البلغاء وسراج الأدباء" لحازم القرطاجني (684هـ). والمراجع الحديثة مثل "المقاييس البلاغية والأدبية والنقدية عند أبي هلال العسكري" لبدوي طبانة، و"البلاغة

والاتّصال" لجميل عبد المجيد الذي تناول الكثير من القضايا التي تناولتها البلاغة، وأثرتها الدراسات الحديثة، و"كتاب التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي" لمسعود صحراوي، وكانت أفكاره بمثابة المرجعية الأساسية في إنارة قضايا هذا العمل.

وقد واجهتني في إعداد هذا العمل صعوبات جمّة، أذكر منها طبيعة الموضوع ذي الصلة بحقل علمي لم توضع أسسه ومناهجه الواضحة في الدرس والتحليل، وأقصد "التداولية" التي لا زالت تخضع للتطوّر والتعديل. ومن بين الصعوبات كذلك أشير إلى ندرة المراجع التي تعالج مثل هذه القضايا، والمتّصلة في جوهرها بمسائل هذا البحث، وأخصّ بالذكر مصنّفات "أوستين Austin" التي لاشك أنّها كانت ستسهم أكثر في إثراء هذا البحث. و لكن على الرغم من كثرة الصعوبات التي واجهتني إلاّ أنّ متعة البحث قد أنستني إيّاها.

وفي الأخير أقدّم أسمى كلمات الشكر والعرفان والامتنان إلى أستاذي المشرف الدكتور "أحمد عزوز" الذي بذل قصارى جهده ليخرج هذا البحث على الصورة المقبولة، أشكره على ملاحظاته القيّمة وتوجيهاته السديدة، وإمداده لي بالكتب التي غذّت مباحث هذا العمل. كما أشكره على رعايته الصائبة للموضوع منذ أن كان فكرة بسيطة إلى أن صار على هذا الوجه، فأدامه الله في خدمة أهل العلم.

ولا يفوتني أن أشكر أساتذتي الذين أمدوني بمفاتيح العلم والمعرفة، وبالخصوص هؤلاء الذين درّسوني في السنة التحضيرية. وقبل إنهاء تدبيج هذه الكلمة إنّه ليسعني أن أشكر السادة الأساتذة أعضاء اللجنة الذين سيعملون على تصويب هفوات هذا العمل. وإن أخطأت فمن نفسي، و إن أصبت فمن الله تعالى. ربّنا عليك توكّلنا، و إليك أنبنا، و إليك المصير.

وهران في يوم: 2 ديسمبر 2006م.

سامية بن يـمينـة.

المدخل: حول الاتّصال اللغوي والبلاغة والتداوليّة:

1-علم الاتّصال نظرة تاريخية.

2-ماهية الاتّصال.

3-شروط الاتّصال ووظائفه.

4-أنواع الاتّصال اللغوي.

أ-الاتّصال اللفظي.

ب-الاتّصال غير اللفظي.

5-البلاغة والاتّصال والتداولية.

المدخل: حول الاتّصال اللغوي والبلاغة والتداولية:

اهتدى الإنسان انطلاقا من فطرته وحاجته الطبيعية إلى الاتّصال من أجل التفاهم ونقل المعلومات، وخدمة لهذه الغاية أوجد لنفسه وسائل متنوّعة، وكانت اللغة أرقاها، وأكثرها فعّالية في الإبلاغ. غير أنّ استعماله لها لم يكن جزافيا وغير مضبوط؛ بل ظلّ مرتبطا بنظام تكوِّنه مجموعة من القواعد، والغاية من كلّ ذلك ضمان نجاح الاتّصال اللغوي.

وقد عُدّ بذلك الاتّصال ضرورة إنسانية لتماسك الأفراد والجماعات وحتى الشعوب، فهو المحور المركزي الذي على أساسه يتشكّل المجتمع وينمو ويتطوّر؛ بل صار كما يذكر "هوغ Hogue" يشكّل جزءاً من ديكور الإنسان الذي عرف تطوّرات مع مرور الزمن[1].

ويؤكّد التاريخ الإنساني أنّ الاتّصال كان في بداية أمره يتم بواسطة الإشارة والرمز، ثم سرعان ما تنبّه الإنسان إلى قدرات جهازه النطقي فاستعمله بأصوات متمايزة للتفاهم مع الآخرين، ثم تنبّه إلى أعضائه الأخرى فاهتدى إلى الاتّصال الكتابي ليبلّغ غير الحاضر بين يديه، وبهذا التطوّر استطاع أن يجعل الآخرين يشاركونه خبراته وأفكاره ومشاعره.

وقد ولّد الاهتمام بـ "الاتّصال" -بأشكاله المختلفة- علما يدرس ذلك؛ وهو "علم الاتّصال". وتعززّت بقوّة حاجة الإنسان إليه في العصر الحديث، حيث أضحى من الضروري دراسة قضاياه دراسة علمية، من أجل الإفادة منها في حل الإشكاليات التي تُطرح في إطاره، وهذا ما يمكن ملاحظته أثناء الحرب العامية الثانية، والحرب الإعلامية التي دارت في الخليج العربي أيضا.

[1]- ينظر محمد مزيان، مدخل إلى نظريات الاتّصال المعاصرة، الجزائر منشورات دار لالة سكينة، ط1/ ص11.

ونظرا لهذه الأهمية فقد شغل موضوع "الاتّصال" معظم العلماء والباحثين المختصّين في مختلف فروع المعرفة الإنسانية؛ سواء في البحث في أركانه ومكوّناته واللغة التي تستعمل لنقل الرسالة الإبلاغية، أو في وظائفه ودوره في التأثير على الفرد، أو غير ذلك. وفي رحاب هذا التنوّع كان من الضروري الأخذ من النتائج العلمية التي تناولت مسائله بالبحث العلمي الدقيق؛ مثل اللسانيات والبلاغة والتداولية وعلم الاجتماع وعلم النفس.

1-علم الاتّصال نظرة تاريخية:

إنّ البحث في "الاتّصال" قديم قدم الوجود البشري، ومردّ ذلك إلى الإنسان في حدّ ذاته الذي لا يستطيع أن يحقّق وجوده بدون هذا الفعل. لذلك كان البحث في قضاياه ضاربا جذوره في أعماق الدراسات العلمية. ويجب أن نشير ههنا إلى أنّ أول من وضع نظرية له هو اليوناني "كوراكس Corax"، ثم طوّرها تلميذه "تيزياس Tisias"[1]، وكانت نظريتهما مبنية على أسلوب المرافعة، ذلك أنّ هذا الأسلوب يعدّ صناعة الإقناع[2]. كما أُعتُبر كل من "أرسطو Aristote" (ت322ق.م) و"أفلاطون Platon" (ت347ق.م) مؤسسي دراسات الاتّصال، بحكم أنّهما توصّلا إلى فكرة جوهرية مفادها أنّ الاتّصال ما هو إلاّ فن، أو صناعة يمكن تعلّمها بالتمرين، لذلك يمكن اعتباره علما قائما بذاته[3].

وقدّم العلماء العرب في العصور الوسطى أفكارا قيّمة في الموضوع، لا تقلّ درجة عما هو موجود في الدراسات الحديثة، فقد كانت لديهم نظرات ثاقبة في

---

[1]- "كوراكس Corax" و"تيزياس Tisias" فيلسوفان يونانيان، عاشا في القرن الخامس قبل الميلاد في صقلية (مستعمرة يونانية أنذاك) قبل السفسطائيين والإسكندر المقدوني، ويعدّان من الأوائل الذين اهتموا بفن البلاغة، حيث وضعوا لها خصائصها التي ربطوها أكثر بالإقناع.

[2]- ينظر فضيل دبليو، مقدمة في وسائل الاتصال الجماهيرية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1998، ص24.

[3]- ينظر المرجع نفسه، ص24.

وصف العملية الاتصاليّة وأركانها وشروطها ووظائفها، وهذا ما كان ماثلا في ثنايا مصنّفاتهم. ولقد انبثقت هذه العناية من حرصهم على لغتهم "لغة القرآن الكريم"، والتي تمثّل في أدنى تأمّل لها رسالة اتّصالية موجّهة للبشرية. فالقرآن الكريم يمثّل عملية الاتّصال بكامل عناصرها من مرسل ومرسل إليه ورسالة وقناة اتّصال وأثر[1]. لذا دعا العقول لأن تتأمله وتبحث فيه، فكثرت المؤلّفات التي تكشف عن أسراره.

ومما دعّم البحث العلمي لدى العرب توافرهم على ثلاث مدوّنات أساسية أثرت وقدّمت أفكارا تتعلّق بمباحث "علم الاتّصال"، وهي القرآن الكريم، والشعر الذي عُدّ ديوان العرب؛ بل اعتبره البعض "الصحيفة السيارة[2]، وكذلك الفنون النثرية كالخطابة والرسائل والتوقيعات والمناظرات.

وكان من نتائج دراسة هذه المدوّنات ظهور علوم كثيرة، تبحث في كل ما تقتضيه اللغة في هذه الأشكال الاتّصالية. وما يمكن أن نقوله إنّ "علم الاتّصال" كعلم قائم بذاته لم يظهر لديهم، ولكن يجب أن نذكر أنّهم قدّموا انطلاقا من التأليف المختلط لديهم آراء قيّمة تتّصل مباشرة بما يتأسّس عليه البحث في هذا العلم.

ونستطيع أن نوضّح ذلك على سبيل المثال بما ذُكر ضمن علوم البلاغة التي تضم المعاني والبيان والبديع[3]؛ فعلم المعاني اهتم بدراسة الأسلوب ككل، وذلك ليطابق مقتضى الحال، وليعبِّر عن المراد بأبلغ تعبير. أمّا البيان والبديع فمباحثهما عند العرب تتّصل بجوهر "الاتّصال"؛ إذ يتعلّقان بتنميق الجمل بالصوّر البيانية والمحسِّنات البديعية التي تجعل الرسالة اللغوية أكثر تعبيراً عن

[1]- ينظر عبد العظيم عبد السلام الفرجاني، تقنيات الاتصال التعليمي في القرآن والسنة، المغرب، دار المغرب، 2000، ص141.

[2]- أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي، القاهرة، (د.ت)، ص40-41.

[3]- ينظر عبد العزيز شرف، علم الإعلام اللغوي، مصر دار لونجمان للطبع، 1995، ص75.

المراد، وتأثيراً في النفوس. ويمكننا أن نقول إنّ الدراسات اللغوية القديمة بمختلف اتّجاهاتها قد أفادت في تناول العملية الاتّصالية وعناصرها ووظائفها وغير ذلك.

فمن المفاهيم التي ذكروها ذات الصلة بهذا العلم تلك الحدود المذكورة حول "البيان، والإبلاغ، والتبليغ، والبلاغة" في حدّ ذاتها، وما بيّنوه في كلامهم عن شروط الاتّصال البليغ والهادف، وعمّا يتعلّق بأركان الاتّصال. وقد كان الجاحظ من أبرز العلماء الذين تناولوا هذه المسائل؛ يقول -على سبيل المثال لا الحصر- في البيان: «البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى, وهتك الحجاب دون ضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأنّ مدار الأمر، والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلّغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع»[1]. فهذا القول يشرح الغاية الأساسية التي تتأسّس عليها الرسالة اللغوية، وهي الفهم والإفهام في أحسن تعبير، ويبيّن عناصر العملية الاتّصالية التي ترجع إلى:

-القائل: ويقابل المتّصل البليغ، المخاطب.

-السامع: المتلقي، المخاطب.

-كل شيء كشف القناع: ويقابل الرسالة.

-الدليل: الوسيلة.

-الغاية التي يجري إليها القائل: الفهم والإفهام والتأثير.

وتحدّث انطلاقا من صحيفة بشر بن المعتمر (ت210هـ) عن شروط الخطيب؛ إذ من الضروري «أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وعذبا سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، قريبا معروفا، إما عند الخاصة إذا كانت للخاصّة قصدت،

[1]- البيان والتبيين، ج1 ص76.

وإمّا عند العامة إن كنت للعامّة أردت»[1]. فمن هذه الوصايا يطالب الجاحظ المرسل أن تكون ألفاظه رشيقة، وأسلوبه سهلا، وأن يتخيّر لفظه، وأن يلائم بين كلامه ومستمعيه؛ فلا يكلّم سيِّد الأمّة بكلام الأمّة. وأن تكون له القدرة على إتقان جميع ضروب الكلام، بحيث لا يصعب عليه وجه من وجوه القول[2].

كما تحدّث الجاحظ أيضا عن أنماط الاتّصال التي تتنوّع بين الاتّصال اللفظي، والاتّصال غير اللفظي (الإشارة)، والاتّصال الكتابي. فالأول يتم عبر الكلام والتخاطب، والثاني يتعلّق بلغة الإشارات، أما الثالث فيرتبط بالخط في حدّ ذاته، والذي عدّه نوعا من الاتّصال الذي لا يدخل ضمن الاتّصال اللفظي، وذلك حين قال: «ثم لم يرض لهم من البيان بصنف واحد؛ بل جمع ذلك ولم يفرّق، وكثر ولم يقلل، وأظهر ولم يخف، وجعل آية البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم في أربعة أشياء، وفي خصلة خامسة، وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تبدّل بجنسها الذي وضعت له، وصرفت إليه»[3]. ثم بعد ذلك يعدّد تلك الخصال وهي «اللفظ والخط والإشارة والعقد والخصلة الخامسة ما أوجد لصحة الدلالة، وصدق الشهادة ووضوح البرهان»[4].

فمن هذين القولين تتّضح لنا رؤية الجاحظ لأنماط الاتّصال المبنية على ما يلي:

-وسيلة اللفظ (النطق) ← اتّصال شفاهي.

-وسيلة الخط (القلم) ← اتّصال كتابي.

-وسيلة الإشارة والعقد والنصبة ← اتّصال غير لفظي.

---

[1]- الجاحظ، المصدر نفسه، ج1 ص136.

[2]- ينظر شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، مصر دار المعارف، ط2/ ص37.

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص34.

[4]- ينظر البيان والتبيين، ج1 ص34.

وقد أشار إلى أنّ لكل وسيلة من هذه الوسائل خصائصها التي تميّزها عن غيرها؛ ويظهر ذلك في قوله: «فجعل اللفظ للسامع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرك الناظر واللامس في معرفة العقد... وجعل الخط دليلا على ما غاب من حوائجه عنه، وسببا موصولا بينه وبين أعوانه»[1]. وعلى ما يبدو وسيلة اللسان ضرورة عند الجاحظ، كونها تعبّر عن أقرب الحاجات، وهي حاجة دائمة وآكدة وراهنة ثابتة، وهي وسيلة التعبير في الحضور[2]. إنّه الآلة التي يخرج الإنسان بها عن حدّ الاستبهام، إلى حدّ الإنسانية بالكلام[3].

واهتم الجاحظ أيضا بالخط (الكتابة)، واعتبره الوسيلة المثلى للتفاهم وحفظ المعلومات، فأشاد بأهمية الكتاب في حفظ العلم، فهو الوعاء الذي يحفظ تراث أيّة أمّة، ويعتبر الرسالة المكتوبة «التي تبعث مع رسول أكثر أهمية من الرسالة الشفاهية، وأبلغ منها»[4]. ووضّح أكثر أهمية الاتّصال الكتابي بقوله: «ومما يدلّ على نفع الكتاب أنّه لولا الكتاب لم يجز أن يعلم أهل الرقّة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة»[5].

أمّا عن الاتّصال بالإشارة فقد أفاض فيه بدراسته، وبيان قيمته انطلاقا مما يلي:

-معاونة اللفظ في التعبير عن المعاني.

-التعبير عن معانٍ لا يستطيع الفرد استخدام اللفظ معها.

-التعبير عن الاستجابات اللفظية.

---

[1]- الجاحظ،الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت دار الجيل، 1992، ج1 ص45.
[2]- ينظر المصدر نفسه، ج1 ص48.
[3]- ابن عبد ربّه، العقد الفريد، تحقيق عبد المجيد الترحيني، بيروت دار الكتب العلمية، 1997، ج4/ص271.
[4]- الحيوان، ج1 ص96-97.
[5]- المصدر نفسه، ج1 ص97-98.

وهذا ما وجدناه ماثلا عند علماء الاتّصال المحدثين منهم "بيرد وستيل Berdwhistelle"، و"مارك كاناب M.kanap". وذكر أنّ الإشارة «تقرب المفهوم منها؛ رفع الحواجب، ولّيّ الشفاه، وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه»[1].

واهتم أيضا بكل ركن من أركان الاتّصال من مرسل ومرسل إليه ورسالة وغير ذلك.

ويمكن أن نشير أيضا إلى الأفكار الواردة في "الرسالة العذراء" لابن المدير (ت270هـ)، حيث تحدّث عن شروط الاتّصال الكتابي، ومحاسن صناعة الكتابة، ومكارمها وصفات الكاتب، ويظهر ذلك في قوله: «أن يكون الكاتب صحيح القريحة، حلو الشمائل، عذب الألفاظ، دقيق الفهم»[2]. بالإضافة إلى قضايا أخرى تتعلّق بالرسالة، وما يجب للكاتب أن ينتقيه من ألفاظ وعبارات. وركّز أيضا على فكرة المقام حيث يقول: «وإذا احتجت إلى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكتّاب والخطباء والأدباء والشعراء وأواسط الناس وسوقتهم، فخاطب كلاّ على قدر أبّهته وجلالته، وعلوّه وارتفاعه، و فطنته»[3]. وتكلّم على شكل الكتاب؛ أي الكتابة، وهذا يبيِّن اهتمامه بالاتّصال الكتابي الذي ينوب عن الاتّصال الشفهي.

ونجد أيضا رسالة عبد الحميد الكاتب التي احتوت على أفكار كثيرة متعلّقة بالشروط التي يجب أن يتّصف بها الكاتب والخطيب والشاعر[4]. وابن قتيبة (ت276هـ) الذي ارتكز على ما ذكره الجاحظ مضيفا إليه بعض القضايا الأخرى منها مثلا حديثه عن المتّصل، وما يجب أن يراعيه أثناء التواصل مع المتلقّي؛ حيث أقرّ بضرورة الإقبال عليه بالوجه والنظر إليه، وهذا ما أشارت إليه

---

[1]- الجاحظ، الحيوان، ج1 ص48.
[2]- أبو الأصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال المعاصر، ص 223.
[3]-ابن عبد ربه، العقد الفريد،ج4، ص262.
[4]- ينظر القلقشندي، صبح الأعشى،ج1 ص156.

النظريات الحديثة ضمن مصطلح "رجع الصدى"، وقد طرحه "ولبور شرام W.shramm"[1].

كما نذكر ما ورد في كتاب "نقد النثر"[2]؛ إذ قرّر قدامة بن جعفر (ت337هـ) في توضيح ماهية "البيان" أنّه «على أربعة أوجه: فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبين بلغتها, ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إكمال الفكرة واللبّ، ومنه البيان الذي هو نطق باللسان, ومنه البيان بالكتاب الذي يبلّغ من بَعُد أو غاب»[3]. ويعدّ عبد العزيز شرف الأفكار الواردة في هذا الكتاب أوّل دراسة علمية للاتّصال بألوانه وفنون تحريره؛ إذ فيه دراسة للمنظوم والمنثور والخطابة والترسّل, وفيه شرح لخصائص الرسالة كالتشبيه والرمز والتقديم والتأخير[4]. و لقد تبيّن أنّ البيان عند قدامة بن جعفر يرتكز على الوسيلة "الأشياء، اللسان، الكتابة".

وإذا كان الجاحظ قد اهتم بمرحلة الإرسال في العملية الاتّصالية، فإنّ قدامة بن جعفر ركّز على مرحلة الإنتاج؛ أي تكوين الرسالة اللغوية، وكيفية إرسالها إلى المتلقّي.

ثم نجد العلاّمة أبا هلال العسكري[5] (ت395هـ) الذي أفاد من آراء سابقيه في كتابه "الصناعتين فن الكتابة والشعر"؛ مضيفا عليها تحليلات ودراسات توضّح بالوصف والشرح الاتّصال اللغوي. وقد تأثّر تأثّرا شديدا بالجاحظ، لذا وجدناه يشيد كثيرا بما ورد في "البيان والتبيين"، يقول: «كان أكبرها وأشهرها

---

[1]- ينظر أبو الأصبع، أصول تراثية في ضوء علم الاتّصال المعاصر، ص32.

[2]- نسب أيضا هذا الكتاب إلى ابن وهب بعنوان "البرهان في وجوه البيان"، ونشير إلى أنّ الشيخ محمد محمود الشنقيطي عندما اطّلع على "نقد النثر" بالأسكوربال لم يشك في أنّه لقدامة بن جعفر، لكن هناك من يذكر أنّه لابن وهب. ينظر نقد النثر مخطوطة عبد الحميد العبادي، ص42.

[3]- نقد النثر، بيروت دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص9.

[4]- ينظر علم الإعلام اللغوي، ص151.

[5]- أبو هلال العسكري هو ابن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، وُلد في عسكر مكرم (من كور الأهواز) وإليها نسبته، انتقل إلى بغداد والبصرة. ترك مؤلفات كثيرة ومتنوّعة منها: جمهرة الأمثال، وديوان المعاني، والفروق في اللغة، والمعنون في الأدب، وغيرها من المصنّفات التي تدلّ سعة اطّلاع هذا العلاّمة.

كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد جميل المنافع لما اشتمل عليه من الفروع الشريفة، والفِقَر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة, وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة»[1].

وبعد تصفّحنا لما ورد في كتاب أبي هلال (الصناعتين) –الذي تخصّصنا بدراسته- اتّضح لنا أنّه استطاع أن يقدّم رؤية شاملة ودقيقة للاتّصال اللغوي الفنّي والعادي، المنظوم والمنثور، أسّسها على مجموعة من الآليات التي تعدّ اليوم من أهم ما يُدرس في علم الاتصال والتداولية، وهذا ما سنحاول بيانه من هذا البحث.

2-ماهية الاتّصال:

إنّ مصطلح "الاتّصال Communication" بالرغم من تداوله الواسع بين الأفراد والجماعات إلاّ أنّ مفاهيمه قد تنوّعت. وذكر العلماء أنّه مشتق من الكلمة اللاتنية " Communis" التي تعني في أساسها المشاركة؛ أي الاشتراك سواء في المعلومات وتبادلها، أو في المشاعر والاتّجاهات ووجهات النظر[2].

ولكن ما يجب توضيحه في هذا المقام أنّ كلمة "الاتّصال" تستخدم في سياقات مختلفة, لذلك تتضمّن مدلولات عديدة؛ فباستعمالها المفرد تعني تبادل الأفكار والرسائل، أما في الجمع فتدلّ على الوسائل التي تحمل مضمون الاتّصال[3].

وقد ورد في قاموس "أكسفورد Oxford" أنّ الاتّصال يعني «نقل أو توصيل أو تبادل المعلومات أو الأفكار بالكلام أو الكتابة أو بالإشارات»[4]. فتبادل

---

[1]- الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دمشق دار الفكر العربي، ط2، ص13.
[2]- ينظر إبراهيم أبو يعقوب، الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، مصر دار مجدلاوي، (د.ت)، ص17.
[3]- ينظر: حسين عماد مكاوي وليلى حسين السيد، الاتّصال ونظرياته المعاصرة، بيروت الدار المصرية اللبنانية، ط2/ 2002، ص15.
[4]- إبراهيم أبو يعقوب، الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، مصر دار مجدلاوي، (د.ت) ص17.

المعلومات يقتضي بالضرورة وجود مرسل ومستقبل أو أكثر في حالات متعدّدة؛ فحينما نتكلّم نجد من يسمعنا, وعندما نكتب نتوقّع من يقرأ لنا، وحينما نستخدم الإيماءات والابتسامات ننتظر لا محالة من يستقبلها.

وذكر كارل "هوفلاند Hof land" أنّ «الاتّصال هو العملية التي يقوم خلالها القائم بالاتّصال بمنبّهات (عادة رموز لغوية) لكي يعدّل سلوك الأفراد مستقبلي الرسالة»[1]. فالاتّصال يهدف في أساسه إلى تعديل سلوك المستقبل، انطلاقا من تصوّر معيّن يقدمه المرسل في رسالته اللغوية.

أما معجم اللسانيات الذي أشرف عليه "جون ديبوا J.dubois" فقدّم تعريفين:

أولهما: أنّ التواصل تبادل كلامي بين المتكلّم الذي ينتج ملفوظا، أو قولا موجّها نحو متكلّم آخر يرغب في السماع، أو إجابة واضحة أو ضمنية (Explicite ou implicite)، وذلك تبعا لنموذج الملفوظ الذي أصدره المتكلّم.

فالتواصل ضمن هذا المفهوم نشاط يقوم على التبادل الكلامي بين متكلّم يوجّه كلامه نحو متلقٍّ ليجلب انتباهه إلى هدف ما.

ثانيهما: التواصل حدث نبأ، ينقل من نقطة إلى أخرى، ونقل هذا النبأ يكون بواسطة مرسلة استقبلت عددا من الرسائل المفكوكة[2].

ويرى عبد الجليل مرتاض أنّ هذا المفهوم غامض؛ لأنّه عمّم ما يتّصل باللغة وغيرها؛ إذ لم يقتصر فقط على اللغة, لكونها الوسيلة الأساسية ؛ بل تعدّى ذلك إلى خارج اللغة[3]. ولكن يجب أن نشير إلى أنّه إذا كانت اللغة أهم وسيلة للاتّصال فإنّ هذا لا يعني إلغاء بقية الوسائل الأخرى, كتلك التي ذكرها الجاحظ[4]، ولذا أي تعريف للاتّصال لا بدّ أن يأخذ بعين الاعتبار هذه الأمور.

---

[1]- أميرة منصور يوسف علي، الاتصال والخدمة الاجتماعية، مصر المكتب الجامعي الحديث، 1999، ص17.

[2] Voir Dictionnaire de linguistique, paris librairie la rousse, 1973, p ;96 .

[3]- ينظر اللغة والتواصل، الجزائر دار هومة، 2000، ص78-79.

[4]- اللفظ والإشارة والخط والعقد والنصبة، ينظر: البيان والتبيين، ج1، ص34.

فالاتّصال عملية مركّبة تقوم على استعمال وسيلة معيّنة -من أكثرها اللغة- لنقل المعلومات والخبرات إلى الآخرين، تتأسّس على مجموعة من العناصر الضرورية لإنجاح الاتّصال، وتبتغي إشراك المرسل إليه فيما يريده المتكلّم، لذلك فهي هادفة إمّا بتلقّي الإجابة عن المتلقّين, أو التأثير فيهم من أجل تبنّي فكرة ما، أو غير ذلك لأنّ غايات الاتّصال تتنوّع.

3-شروط الاتّصال ووظائفه:

لكي تتم عملية التواصل لا بدّ من توافر مجموعة من الشروط التي تساعد على نجاحه, وهي متنوّعة بحسب أركان الاتّصال؛ إذ هناك شروط خاصة بالمرسل، وأخرى متعلّقة بالمرسل إليه، وأخرى مرتبطة بالرسالة وغير ذلك، ولكنّنا سنتحدّث في هذا المقام عن بعض هذه الشروط بصفة عامة، على أن نفصّل أكثر في حلقات بحثنا حيث سنخصص لكل ركن مبحثا خاصا، وهذه الشروط هي:

-أن يأخذ المرسل بعين الاعتبار جميع التحوّلات العلمية والثقافية لمجتمعه.

-يجب أن يكون المرسل على وعي تام بمضمون الرسالة المراد تبليغها، ومدى تعبيرها عن الواقع.

-العمل على ربط خبرة المرسل وأثرها في الوسط الخارجي بخبرة المستقبل للرسالة.

-التأكد من التجانس التام في النظام التواصلي بين المرسل والمستقبل لحمل الخبرات المراد نقلها من مرسل إلى مرسل إليه[1].

ونبيّن هذه الشروط من خلال الرسم الآتي[2]:

---

[1]- ينظر: أحمد وطاس، أهمية الوسائل التعليمية في عملية التعلم عامة وتعليم اللغة العربية للأجانب خاصة، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988، ص42.

[2]- ينظر: أحمد عزوز، المدارس اللسانية أعلامها مبادئها ومناهج تحليلها للأداء التواصلي، الجزائر دار الأديب للنشر، 2005، ص118.

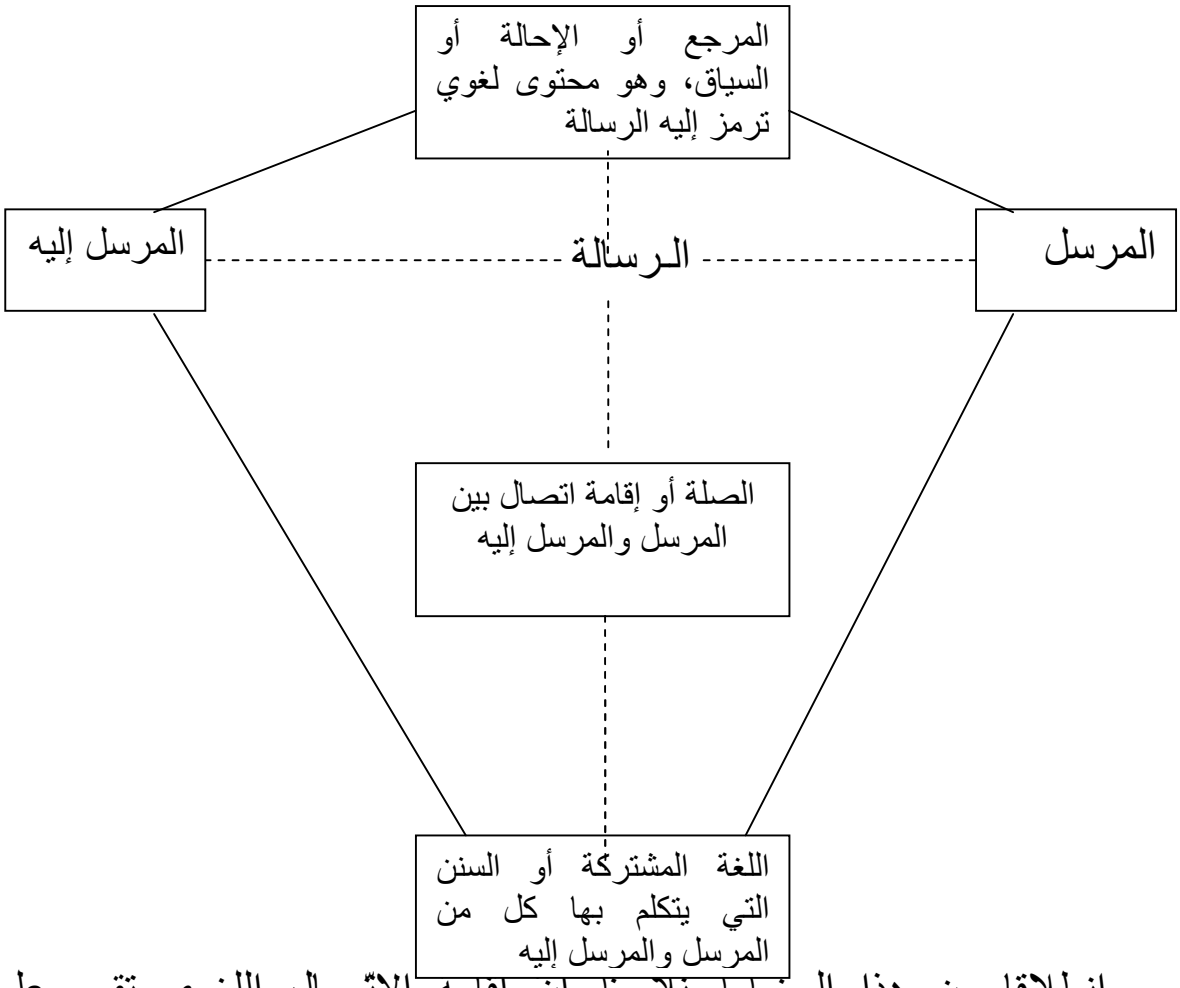

انطلاقا من هذا المخطط نلاحظ أن إقامة الاتّصال اللغوي تقوم على مجموعة من العناصر المتلائمة، وهذا ما وضّحه "رومان جاكبسون R.jakobson" في مخططه المشهور[1]، بحكم أنّه استثمر فيه مجمل النتائج المحقّقة في نظرية الاتّصال واللسانيات[2]، إذ حاول إحداث توأمة، وتجلّت بوضوح في تصوّره للعملية التواصلية التي رسمها كما يلي[3]:

سياق Contexte

مرسل Destinateur..... رسالة Message ..... مرسل إليه

Destinataire

[1] Voir: Essais de linguistique générale, paris les éditions de minuit 1963, p : 214.

[2]- ينظر: فاطمة طبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون دراسة ونصوص، لبنان المؤسسة الجامعية للنشر، ص65.

[3] Voir: R.Jakobson, Essais de linguistique générale, p : 214.

اتصال Contact

نظام Code

وقد أقرّ "جاكبسون Jakobson" أنّ لكل عنصر من هذه العناصر وظيفة مختلفة[1]، و«تتألّف كل منها من طبيعة العلاقة بين المتكلّم والمتلقّي, وبين العالم المحيط به, مما يتيح الحصول على فئات دلالية متنوّعة. وهذه الوظائف يمكن أن تهيمن أو تطغى فيُطبع الخطاب بطابعها»[2]. ويمكن أن نوضّح طبيعة هذه الوظائف بناءً على ما يلي:

أ-الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية: " Fonction expressive ou émotive" وتتعلّق بالمرسل حيث تعكس طبيعة علاقته بالمرسلات، وموقفه من مختلف القضايا التي يتناولها، فهي تمثّل «شخصيته في الخطاب، وهي تنزع إلى التعبير عن نفسية المرسل، ومواقفه إزاء الموضوع الذي يعبّر عنه»[3].

ب-الوظيفة الندائية: "Fonction conative" وتخص المرسل إليه وما يتعلّق به, وما قد يثير انتباهه، وتدخل الجمل الأمرية في هذه الوظيفة, فهي تُوظّف لكي تجلب الانتباه، أو لطلب القيام بأمر ما[4].

ج-وظيفة إقامة اتّصال: "Fonction phatique" ومصطلح "إقامة اتّصال" أوجده "مالينوفسكي Malinovski" للدلالة على أهمية اللسان الذي يقوي ويشدّ وسائل الصلة بين الناس عبر تبادل الكلمات البسيطة[5]. وتكمن هذه الوظيفة في الحرص على إقامة الاتّصال بين المرسل والمرسل إليه وإبقائه أثناء التخاطب, ومراقبة عملية الإبلاغ, ويندرج فيها كل ما يلفت الباث به انتباه سامعه من تأكيد

[1] Ibid : P ;214.

[2]- فاطمة طبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون دراسة ونصوص، ص67.

[3]- أحمد عزوز، المدارس اللسانية أعلامها مبادئها ومناهج تحليلها للأداء التواصلي، ص121.

[4]- ينظر: فاطمة طبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون دراسة ونصوص، ص66.

[5]- ينظر: فاطمة طبال بركة، المرجع نفسه، ص66.

أو تكرار أو إطناب[1]. وقد تنبّه البلاغيون العرب إلى هذه الوظيفة، واعتبروا بعض جوانبها مرتبطا بالعيّ الذي يناقض البلاغة والفصاحة؛ فقد «سُئِل العتابي: ما البلاغة؟ فقال: كل ما أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ... فقيل له: قد عرفنا الإعادة والحبسة، فما الاستعانة؟ قال: أما تراه إذا تحدّث قال عند مقاطع كلامه: يا هناه، ويا هذا، ويا هيه، واسمع منّي... فهذا كلّه وما أشبه عيٌّ وفساد»[2].

د-وظيفة ما وراء اللغة: " Fonction métalinguistique" تتجلّى عندما يتمركز الخطاب حول لغة الرسالة نفسها، كشرح بعض الكلمات والمفاهيم، أو التساؤل عن معاني بعض الكلمات الغامضة أثناء الحوار بين المرسل والمرسل إليه. والهدف من ذلك الحفاظ على التجانس الصوتي والتركيبي والدلالي في نظام العلامات المستخدمة بين طرفي الخطاب[3].

هـ-الوظيفة المرجعية: " Fonction référentielle" وتسمّى بالدلالية، وتتمركز حول السياق، وتظهر في المرسلة ذات المحتوى الذي يتناول موضوعات أو أحداثا معيّنة. وتشكّل التبرير الأساسي لعملية التواصل، وهي وظيفة تؤدّي الإخبار؛ لأنّ اللغة تحيلنا ضمنها على أشياء موجودة تتحدّث عنها، وهي تقوم بالرمز إلى تلك الموجودات والأحداث المبلّغة[4].

و-الوظيفة الشعرية: " Fonction poétique" وهي الوظيفة التي على أساسها عنون "جاكبسون Jakobson" القسم الرابع (اللسانيات والشعرية Linguistique et poétique) من كتابه " Essais de linguistique générale", وتبرز هذه الوظيفة في البنية اللغوية التي تبنى عليها الرسالة نفسها، وبيان

---

[1]- ينظر: أحمد عزوز، المدارس اللسانية أعلامها مبادئها ومناهج تحليلها للأداء التواصلي، ص123.
[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص113.
[3]- ينظر: ميشال زكريا، الألسنية علم اللغة الحديث المبادئ والأعلام، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1984/1، ص54.
[4]- ينظر: أحمد عزوز، المدارس اللسانية أعلامها مبادئها ومناهج تحليلها للأداء التواصلي، ص122.

الأدوات اللغوية التي تميّز الخطاب المعيّن فتجعله أدبيا أو عاديا. وهي في نظر "جاكبسون Jakobson" «موضوع الشعريّة بوصفها منوالا إجرائيا يتناول أدبية الخطاب الأدبي»[1].

وقد مثّل "جاكبسون Jakobson" هذه الوظائف بالمخطط التالي[2]:

المرجعية Référentielle

الانفعالية Emotive　　الشعرية Poétique　　الندائية Conative

إقامة اتّصال Phatique

تعدّي اللغة Métalinguistique

وتبقى هذه الوظائف بمثابة المدخل المؤدّي إلى تحليل النصوص والتعابير والخطابات المختلفة، فهي تساعد على فهم النصوص, وبخاصة الأدبية منها.

4-أنواع الاتّصال اللغوي:

تتعدّد أنواع الاتّصال بحسب الوسيلة المستعملة، ولكن سنخصص حديثنا في هذا المقام على الاتّصال الإنساني الذي تستخدم فيه اللغة، بحكم أنّ أهم وظيفة تقوم عليها هي "الاتّصال". وتتأسّس على نظام يضمن لها ذلك، قائم على استعمال الأصوات والألفاظ والتراكيب لإفادة معيّنة. فهي «تقوم أساسا بنقل المعلومات بطريقة ما؛ أي أنّها الرسالة بين المرسل والمستقبل، والرسالة إنّما تنقل صوتيا Vocally من خلال الهواء، وإما كتابة Grafically بواسطة علامات على سطح ما هو الورق في الغالب»[3].

وهذا ما ركّز عليه معظم اللسانيين من أبرزهم "أندري مارتني A.Martinet" الذي ذكر أنّ الإشارة إلى اللسان بكونه أداة أو وسيلة يجلب الانتباه

---

[1]- ينظر: فاطمة طبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون دراسة ونصوص، ص67.

[2] Voir R.Jakobson, Essais de linguistique générale, p :220.

[3]- دافيد كريستال، التعريف بعلم اللغة، ترجمة حلمي خليل، الإسكندرية دار المعرفة الجامعية، ط1999/2، ص82.

إلى ما يميِّز اللغة عن غيرها من الأنظمة، والوظيفة الأساسية لهذه الوسيلة هي "التواصل Communication"[1]. وأشار إلى ذلك "جاكبسون Jakobson" إذ اعتبرها الوسيلة المثلى للاتّصال.

ومهما تنوّعت الأشكال التي يتجلّى عن طريقها الاتّصال، فإنّنا نستطيع إرجاعها إلى الصنفين الآتيين:

أ-الاتّصال اللفظي:

والمقصود به الاتّصال الذي يستخدم فيه اللفظ كوسيلة لنقل الرسالة من المرسل إلى المتلقي، ونشير ههنا إلى أنّ استخدام اللغة في التفاهم الإنساني بدأ «عندما تطوّرت المجتمعات وأصبحت قادرة على صياغة كلمات ترمز إلى معاني متعدّدة، يلتقي عندما أفراد المجتمع ويعتمدون على دلالتها في تنظيم علاقاتهم والتعبير عن مشاعرهم»[2]. وإنّما قد اعتمد الإنسان على هذا النوع في بيان علاقاته مع غيره؛ لأنّ الصوت كان أفضل وأيسر لديه في التبليغ.

ويمكننا أن نميّز ضمن هذا النوع من الاتّصال بين صنفين:

-الاتّصال الشفاهي: ويعدّ من أقدم صوّر عمليات الاتّصال، يتجلّى من الأصوات المنطوقة، ضمن كيفيات معلومة بين أفراد الجماعة اللغوية المعيّنة، تنتظم هذه الأصوات في توالي مضبوط، تتشكّل منه الألفاظ ذات الدلالات المختلفة والمتنوِّعة بحسب التلوينات الأدائية لها. ويجب أن نشير إلى أنّ استعمال اللغة لا يكون جزافيا؛ بل يقتضي امتلاك مهارة النطق المبنية على ما يمليه النظام الصوتي للغة المقصودة.

[1]- Voir Element de linguistique générale, paris librairie armand colin,1967 p :9.
[2]- حسين مكاوي وليلى حسين السيد، الاتّصال ونظرياته المعاصرة، ص26.

ويمكن أن نلخِّص إجراءات الاتّصال الشفاهي في ثلاثة عناصر رئيسية هي: التفكير والكلام والاستماع[1]. فالتفكير يمثّل منطلق تشكيل المعلومة، والتي تتّضح من خلال التتابع الكلامي المضبوط. أما الاستماع فهو كما عرّفه "جونسون Jonson" «القدرة على الفهم والاستجابة بفاعلية الاتّصال الشفاهي»[2]. فالاتّصال النطقي عملية مركّبة تملي على الفرد امتلاك الكفاءة الاتّصالية التي تمكّنه من التفاهم مع بني جنسه.

-الاتّصال الكتابي: اعتمد عليه الإنسان بعدما أن توصّل إلى اكتشاف الأبجدية الكتابية التي تنوب عن الأصوات المنطوقة، وبفضله استطاع أن يبلّغ من لا يشاركه في الاتّصال المباشر، ويجعل المتلقين يشاركونه أفكاره وآراءه.

ب-الاتّصال غير اللفظي:

ويعلّق عليه أحيانا باللغة الصامتة، وينطبق كما يرى "راندال هاربيسون Randall harvison" على ظاهرة ذات مدى واسع؛ إذ يشمل تعبيرات الوجه والإيماءات والأزياء وغيرها[3]. ويقسّمه بعض العلماء إلى ثلاثة أقسام وهي:

-لغة الإشارة: وتعتمد على الإشارات المختلفة التي يتواضع عليها الإنسان من أجل الإبلاغ، وتكون بسيطة أو معقّدة، قد تُوظّف أثناء الاتّصال اللفظي فتكون مكمّلة ومبيّنة له.

-لغة الحركة والانفعال: وتتضمّن جميع الحركات التي يستعملها الإنسان لينقل إلى غيره ما يريد من معانٍ أو مشاعر[4].

-لغة الأشياء: وهو نوع خاص مغاير للغة الإشارة ولغة الحركة والانفعال، ويقصد به ما يتّخذه الإنسان من أدوات أو غيرها لإشراك المتلقّي في الإفادة

---

[1]- ينظر: محمد منير، مهارات الاتصال للإعلاميين والتربويين والدعاة، مصر دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1/1999، ص11.

[2]- المرجع نفسه، ص20.

[3]- ينظر: أبو الأصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال المعاصر، ص29.

[4]- ينظر: حسن مكاوي وليلى حسن السيّد، الاتّصال ونظرياته المعاصرة، ص27.

المقصودة، مثل الملابس إذ قد تعبّر بذاتها عن الحزن إذا كانت ذات لون أسود، وتتغيّر بحسب المعتقدات[1].

وقد أقر الباحثون أنّه يجب النظر إلى الاتّصال اللفظي، والاتّصال غير اللفظي، كوحدة غير قابلة للانفصال، يقول "بيرد وستال Birdwhistelle": «قادني بحثي الخاص إلى نقطة وهي أنّني لست بعد هذا راغبا في تسمية كل من الأنظمة اللغوية والإشارة أنظمة اتّصال، فإنّ كل البيانات التي بدت تظهر لي أنّها تؤيد القناعة بأنّ الأنظمة اللغوية والإشارية هي أنظمة اتّصالية أساسية، وأنّ انبثاق النظام الاتّصالي يمكن تحقيقه من خلال علاقتهما المتداخلة، ومع أنظمة مقاربة من النماذج الحسية»[2]. ومن هذا التوضيح نلاحظ أنّ الاتّصال اللغوي في بعده العام عملية معقّدة، لا تتجلّى في شكل معيّن؛ بل تتداخل أدواتها بعضها ببعض. وهذا ما وضّحه أكثر "مارك كناب Mark knap" حينما كشف عن السلوك الاتّصالي غير اللفظي وعلاقته بالأسلوب اللفظي، وبيّن ذلك مما يلي:

-التكرار والإعادة: مثلا حينما يقوم الاتّصال غير اللفظي على إعادة ما قلناه لفظيا؛ أي عندما نذكر لشخص عن وجود شيء ما بالقول "هنا"، ثم نشير إلى مكان هذا الشيء بإشارة.

-التناقض: عندما نطلب من شخص لغويا بإحضار شيء ما، ثم بحكم المقام "نشير" إليه بعدم إحضارها، وهذا تناقض. ونلاحظ ههنا رسالتين في الوقت نفسه؛ إحداهما لفظية، والأخرى غير لفظية.

-مكمل: يمكن للاتّصال غير اللفظي أن يكون مكمِّلا أو معدِّلا للرسائل اللفظية، مثل أن نطلب شيئا من شخص لسانيا، ونعزز ذلك بإشارة أو إيماءة أو ابتسامة[3].

---

[1]- ينظر: صلاح الدين جوهر، علم الاتّصال مفاهيمه نظرياته مجالاته، القاهرة، عين شمس، (د.ت)، ص17.
[2]- أبو الأصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال المعاصر، ص30.
[3]- ينظر: حسن مكاوي وليلى حسن السيّد، الاتّصال ونظرياته المعاصرة، ص28.

ويبقى الاتّصال اللغوي في أساسه نشاطا يقوم على إجراءات عملية مقصودة، تقتضي "التفاعل المتبادل" بين طرفيه؛ أي المرسل والمرسل إليه. ويقتضي من المتكلّم اكتساب لغة "نماذج الأفعال"، فيحدّد لكلّ نموذج الظرف الذي يمكن أن يعمل ويمارس أفعاله في نطاقها. وهذه النماذج على صلة بالكفاءة الاجتماعية بالدرجة الأولى التي تيسّر عليه الفهم، وبالتالي نجاح العملية التواصلية[1].

5-البلاغة والاتّصال والتداوليّة:

تحتلّ البلاغة مكانة مرموقة في الدراسات الأدبيّة واللغوية؛ إذ أصبح يُنظر إليها ليس كعلم لتحليل النصوص في بعدها الجمالي؛ بل هي تنزع لأن تكون علما واسعا للمجتمع[2]. فقد تطوّرت في العصر الحديث، ويرجع ذلك إلى إفادتها من مناهج البحث في مختلف الحقول المعرفية، وهذا ما أشار إليه "هانريش بليث H.bleath" الذي يقول: «إنّ سبب هذه النهضة البلاغية يرجع، في مجال التنظير، إلى الأهمية المتزايدة للسانيات التداولية، ونظريات التواصل والسيميائيات، والنقد الأيديولوجي، وكذا الشعرية اللسانية في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وتقويمها»[3]. وهذا التقارب سرّه أنّ البلاغة تعالج قوّة التأثير في الآخر وكيفية إقناعه، وبيان كل المقاصد التي يهدف الباث إلى تحقيقها. وهذه النقطة تعدّ من أهم مباحث التداوليّة التي تدرس التفاعل الاتّصالي بين الخطيب والمخاطب، وما يحدثه الفعل الكلامي من تأثير.

وهذه المقاربة بين البلاغة وعلم الاتّصال والتداولية برّرتها مجموعة من الدراسات مستعينة في ذلك بالتراث البلاغي من جهة، ونتائج العلوم المستحدثة

---

[1]- ينظر: عبد العزيز شرف، علم الإعلام اللغوي، ص103-104.

[2]- ينظر: محمد بوعزة، البلاغة بوصفها نظرية للخطاب، مجلة الراية المؤقتة، مج:3، ع 1 و2، 1994، ص63.

[3]- هانريش بليث، البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سميائي لتحليل النص، ترجمة محمد العمري، المغرب منشورات دراسات سال، (د.ت)، ص15.

من جهة أخرى. ومنطلقهم في ذلك أنّ البلاغة أول ما تنصرف إلى دراسته هو الإبلاغ[1]، وهذا الموضوع كان ولا يزال المحور الأساسي الذي تتساءل حوله العلوم الثلاثة المذكورة.

وثمة باحثون قدّموا بحوثا متنوِّعة ربطوا فيها بين البلاغة العربية ونظرية الاتّصال، منهم جميل عبد المجيد في مؤلّفه "البلاغة والاتّصال"، والخفاجي في "نحو بلاغة جديدة التجديد والتقليد"، وغيرهما، معتمدين في ذلك على بعض المفاهيم التي تظهر الصلة الوثيقة بينهما، وتتعلّق بماهية البلاغة، والكيفية التي يكون عليها المتكلّم، وتحديد سمات الكلام البليغ، وغير ذلك من القضايا التي يدرسها علم الاتّصال. وهذا ما وضّحه عبد العزيز شرف الذي اعتبر مصطلح "البلاغة" المقابل الصحيح لـ "علم الاتّصال"[2].

قد نوضّح هذا الأمر أكثر من المعنى الذي يدلّ عليه لفظ "البلاغة"؛ فهي من «بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغة وصل وانتهى، والبلاغ ما بلغك، والبلاغ الكفاية (كفاية الإخبار)، والإبلاغ الاتّصال، وكذلك التبليغ»[3]. وربط أبو هلال العسكري مفهومها بما يقتضيه مدلول الاتّصال؛ إذ عرّفها بقوله: «هي كل ما تبلّغ به المعنى قلب السامع, فتمكّنه في نفسه لتمكّنه في نفسك, مع صورة مقبولة ومعرض حسن»[4]. ومنه نلاحظ أنّ البلاغة لديه تنطلق من فكرة التوجّه إلى المستمع باعتباره المقصود من الاتّصال، فالمتكلّم يراعي من يوجّه إليه الكلام في إطار هذا التوضيح.

وهذا الطرح دعت البلاغة الجديدة إلى الاهتمام به؛ إذ يذكر "بيريلمان Perelman" «أنّ ما ينبغي أن يُحتفظ به من البلاغة التقليدية إنّما هو فكرة

---

[1]- ينظر: جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، مصر دار غريب، 2000، ص16.
[2]- ينظر: علم الإعلام اللغوي، ص48. وينظر أيضا عبد العزيز شرف وعبد المنعم الخفاجي، نحو بلاغة جديدة التجديد والتقليد، مصر مكتبة غريب، 1996، ص56.
[3]- ابن منظور، لسان العرب، بيروت دار صادر، (د.ت)، مادة (بلغ).
[4]- الصناعتين، ص13.

المستمعين التي تنبثق من فهم طبيعة الخطاب، فكل قول يوجّه لمستمع، وغالبا ما ننسى أنّ الشيء ذاته يحدث بكل مكتوب، وبينما نتصوّر الخطاب بالنظر إلى المستمعين، فإنّ غياب القراء ماديا ربّما يجعل الكاتب يظن أنّه وحده في هذا العالم، بالرغم من أنّ نصه في الواقع مشروط دائما بهؤلاء الذين يتوجّه إليهم، واعيا أو بشكل غير واعٍ»[1]. وعمّم أبو هلال هذه الفكرة أيضا على الكتّاب، وهذا ما سنوضّحه في المبحث الخاص بالاتّصال الكتابي من هذا العمل.

وإن كان العسكري قد انطلق مما يُتوجّه إليه الكلام في بيان حدّ البلاغة، فإنّ هذا لا يعني عدم اهتمامه بطرف الاتّصال الأوّل؛ نقصد "المرسل"، يدلّ على ذلك قوله "لتمكّنه في نفسك". وهذه العلاقة بين طرفي الاتّصال التي حرص على إبرازها ههنا «قد وجدت طريقها إلى نظرية الاتّصال، وبالتالي إلى التداولية التي عُنيت بالسياقات المختلفة وأطراف الموقف التواصلي عناية كبيرة. وإذا كان "لاوسبرج Lawsberj" يرى أنّ البلاغة نظام له بنية من الأشكال التصورية واللغوية يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلّم في موقف محدّد، فإنّ "ليش U.Leich" يرى أنّ البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ إنّها ممارسة الاتّصال بين المتكلّم والسامع، بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محدّدة للتأثير على بعضها»[2].

لكنّ أبا هلال لا يتوقّف عند هذا الحدّ، لذلك ربط البلاغة بالمعرض الحسن والصورة المقبولة؛ فما يحيل عليه لفظ "المعرض" الشكل اللغوي الذي يتجلّى منه الكلام، أما كلمة "الصورة" فتدل على الفكرة التي يريد المتكلّم تبليغها، والغاية التي تريدها البلاغة هي إيصال التصوّر كما هو في ذهن المتكلّم إلى المتلقّي.

---

[1]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الكويت عالم المعرفة، 1992، ص94-95.

[2]- سعيد حسن بحيرى، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، القاهرة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1/2004، ص23.

فالعسكري ربط البلاغة بالكلام البليغ الذي يحرز المنفعة المقصودة، وهذا ما طرحته التداولية ضمن ما أصطلح عليه بالفعل الكلامي.

وقد اشترط صاحب الصناعتين في موضع أخر للبلاغة فكرة جوهرية، و«هي أن يكون المعنى مفهوما واللفظ مقبولا»[1]. وهما شرطا الاتّصال الناجح كما نصّت على ذلك المفاهيم المتداولة للاتّصال.

إذن هناك صلة وثيقة بين البلاغة والاتّصال، وفي هذا الأساس قدّم تمام حسان قراءة مهمّة وقيّمة للمصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة، يقول: «وعندي أنّ المعنى البلاغي للفظ البلاغة على معنى الإبلاغ أو التواصل الذي هو موضوع من موضوعات علم الاتّصال»[2]. وقد عزّز هذه الفكرة ودعّمها من خلال مخطط "جاكبسون Jakobson"، نوضّح ذلك مما يلي:

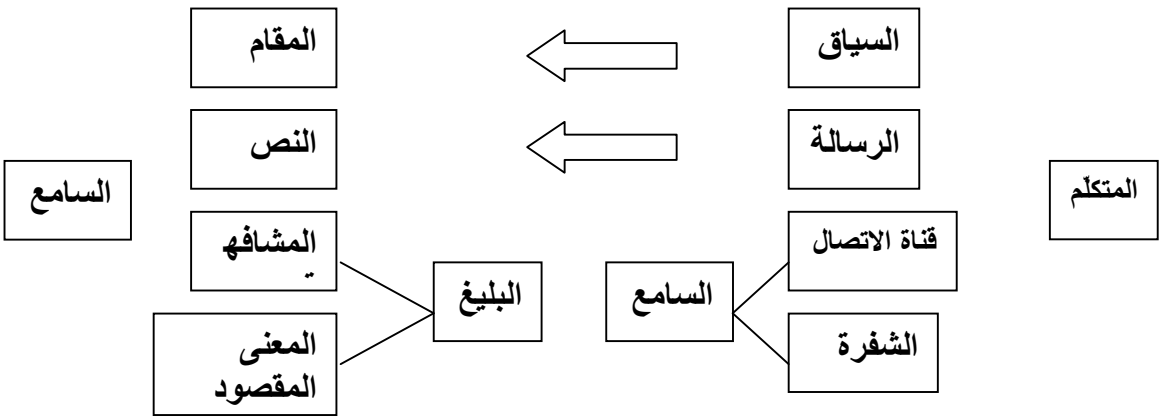

[1]- سعيد حسن بحيرى، المرجع نفسه، ص19.
[2]- قضايا المصطلح الأدبي، مجلة فصول، مجلد7 العددان الثالث والرابع، أبريل- سبتمبر 1987، ص27.

ونستطيع أن نضيف إلى هذا المخطط العناصر التي تقتضيها التداولية، فهي «تهتم بثلاث معطيات لما لها من دور فعّال في توجيه التبادل الكلامي وهي: المتكلّمين (المخاطِب والمخاطَب)، السياق (الحال،المقام، الاستعمالات العادية للكلام)؛ الاستعمال اليومي والعادي للغة في الواقع»[1]. ونوضّح ذلك أكثر من المخطط التالي:

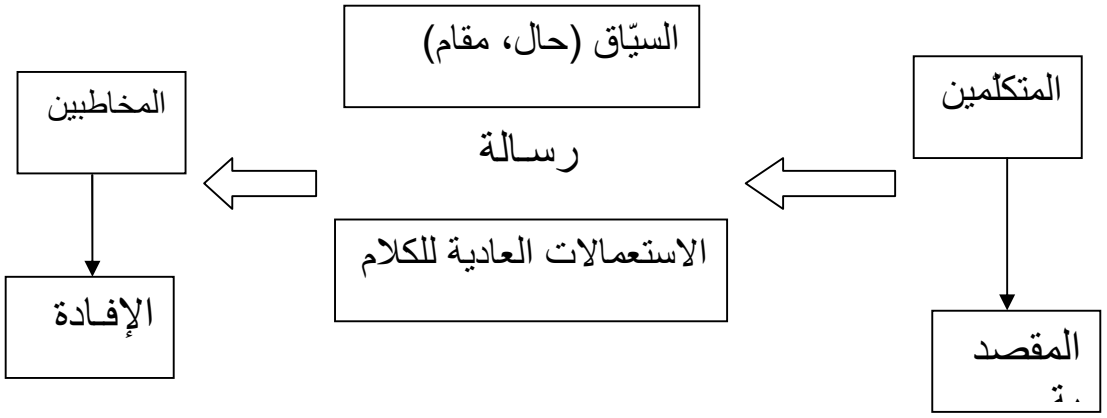

والتداولية عند مؤسسها "أوستين Austin" «جزء من علم أعم، هي دراسة التعامل اللغوي من حيث هو جزء من التعامل الاجتماعي. وبهذا التعريف ينتقل "أوستين Austin" باللغة من مستواها اللغوي إلى مستوى آخر هو المستوى الاجتماعي في نطاق التأثير والتأثر»[2]. فالتداولية تدرس الاتّصال اللغوي في إطاره الاجتماعي، والذي يملي خصوصيات تؤثّر في الفعل الكلامي.

كما تركّز التداولية على المقصديّة التي لا تتجلّى إلا من خلال الاتّصال اللغوي في مقام معيّن، لذا فهي تهتم «بدراسة اللغة التي يستعملها المتكلّم في عملية التواصل، وعوامل المقام المؤثّرة في اختياره أدوات معيّنة دون أخرى للتعبير عن مقصده»[3].

---

[1]- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، الجزائر دار القصبة للنشر والتوزيع، 2000، ص156.
[2]- راضية خفيف بكري، التداولية وتحليل الخطاب الأدبي، مجلة الموقف الأدبي، دمشق اتحاد الكتّاب العرب، العدد 399، تموز 2004، ص56.
[3]- ج. براون وج سيرل، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، السعودية جامعة الملك سعود للنشر العلمي، 1997 ص32.

ومن خلال المخططين السابقين تتبيّن العلاقة بين البلاغة والتداولية والاتّصال؛ باعتبار أنّ البلاغة كما ذكر بعض الدارسين هي «فن القول بشكل عام، أو هي فن الوصول إلى تعديل موقف المستمع أو القارئ»[1]. أما التداولية فتعنى «بالعلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منتظم، مما يطلق عليه سياق النص، ويأتي هذا ليغطي بطريقة منهجية منظّمة المساحة التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية لكل مقام مقال»[2]. فكلاهما يركزان على التشكيل اللغوي الذي يكون في الموقف المعيّن، وهذا ما يجعلهما «تتّفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقّي، على أساس أنّ النص اللغوي في جملته إنّما هو نص في موقف»[3]. ومنه يتّضح أنّ «البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ أنّها ممارسة الاتّصال بين المتكلّم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما، مستخدمين وسائل محدّدة التأثير على بعضهما»[4].

وهما يلتقيان مع علم الاتّصال الذي يهتم بالعناصر التي تسهم في الإنجاز اللغوي أيضا، وتتبيّن العلاقة بدقّة بين مكوّنات البلاغة والتداولية من جهة، وعناصر الاتّصال من جهة أخرى؛ فالبلاغة هي من عمل بليغ يسعى إلى إيصال معنى إلى السامع في مقام معيّن، ولكنّها تضيف أيضا السامع في إدراك المعنى المقصود كما أوضح ذلك أبو هلال العسكري الذي يقول: «ربّما كانت البلاغة في الاستماع الحسن»[5].

وقد وضّح تمام حسان طبيعة هذه العلاقة أكثر في الإبلاغ الأدبي، فبيّن ذلك من المخطط التالي[6]:

---

[1]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص97.
[2]- صلاح فضل، المرجع نفسه، ص98.
[3]- صلاح فضل، المرجع نفسه، ص97.
[4]- صلاح فضل، المرجع نفسه، ص97.
[5]- الصناعتين، ص25.
[6]- تمام حسان، الأصول دراسة ابستيمولوجية لأصول الفكر العربي، المغرب دار الثقافة، ط1997/1، ص387.

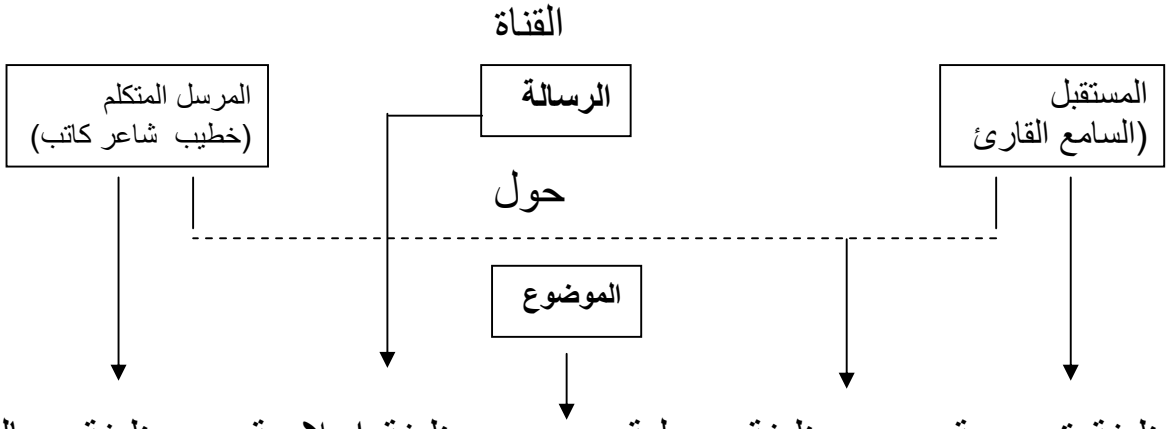

يلاحظ تمام حسان أنّ المرسل يتّخذ من اللغة أداة يبلّغ بها جملة من المعاني ماثلة في نفسه إلى المستقبل، والوظيفة ههنا إفصاحية، وبها ترتبط أيضا لغة الأدب التي تعتبر الحامل المادي لمقاصد الأديب.

أما بالنسبة للقناة التي يسلكها الكلام فتظهر في وظيفة اللغة الأساسية، وهي التواصل بشكليه الشفاهي والكتابي، ووظيفة الموضوع هي التي تحدّد الواسطة.

أما العلاقة بين المرسل والمستقبل فتتحدّد بالوظيفة الجمالية، فهي تعكس قدرات المتكلّم وأسلوبه الخاص الذي يميّزه عن غيره. وهذا ما ركّزت عليه البلاغة، وبصفة أدق طريقة التبليغ، والتي تتحدّد مع العملية التواصلية. ويمكن أن نستعين في هذا المقام بالتفسير الإعلامي الذي يفترض أنّ الأدب يقوم على مجموعة من الأسس، نوضّحها انطلاقا من النموذج الاتّصالي الشهير لـ"لازويل Lazwel"[1]:

-من يقول؟

-يقول ماذا؟ الرسالة الإبداعية.

-لمن؟ المستمعين؟

[1]- لازويل باحث مختص في العلوم السياسية، أول من اهتم بالتواصل الجماهيري، وتأثير وسائل الإعلام والاتصال في الفرد " La communication de masse".

-بأي وسيلة؟ المشافهة, الكتابة.

-بأي تأثير؟ الأدوات والآليات التداولية[1].

وقد نذكر تعديل "ريموند يكسون R.yekson" الذي يضيف الموقف العام للاتّصال، أو ما يقابل البلاغة العربية مقتضى الحال، وبالتالي يصبح النموذج كالآتي: من يقول؟ ماذا؟ لمن؟ وما تأثير ما يقال؟ وفي أي ظروف؟ ولأي هدف؟ وبأية وسيلة؟ وفي الأخير يأتي الموضوع الذي يكوّن وظيفة الإعلام، والمقصود بها نقل المعلومات مهما اختلفت, وهو المعنى الذي يجسّده علم الاتّصال[2].

بعد عرض هذه الأفكار نلاحظ أنّها ظلت ترتكز على فكرة جوهرية، وهي أنّ علم الاتّصال تمثّله البلاغة بكل شروطها؛ كونها تهتم بـ «الكلام الذي يرسل إرسالا، فتطلب منه الإفادة والإصابة وإفهام المعاني على وجه بديع، وتركيب لطيف. وهي المعايير التي نزن بها الأسلوب على نحو ما يتحقّق به غرض المنشئ حيث يستخدم الكلمة في تحقيق ما يريد»[3].

فهذا التوضيح يقودنا إلى تحديد أبعاد الاتّصال بشكله العام، والاتّصال الأدبي أو الإبداعي بشكله الخاص، والتي ترجع إلى:

1-الكلام: وهو الملفوظ الذي يُرسل من طرف المتكلّم (مرسل، خطيب، شاعر، كاتب).

2-الإرسال: يتم عن طريق قناة (المشافهة أو الكتابة).

3-الرسالة: ما يريد المتكلّم إبلاغه إلى الآخرين، وتقتضي حسن التأليف والتركيب.

4-الهدف: الإفادة والإصابة، بالإضافة إلى بسط المعاني بأسلوب متأنق.

---

[1]- ينظر عبد العزيز شرف، نماذج الاتصال في الفنون والإعلام والتعليم وإدارة الأعمال، مصر الدار المصرية اللسانية، ط1، 2003، ص129.

[2]- ينظر المرجع نفسه، ص130.

[3]- صالح بلعيد، التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 1993، ص41.

5-الكلمة: حين تستخدم في مكانها المناسب أو سياقها تؤدّي دورها الفعّال في تحقيق مقاصد المرسل، وهذا انطلاقا من المقولة المشهورة في البلاغة العربية؛ والتي توصي بأنّه "لكل مقام مقال". وهذا ما ركّزت عليه التداولية فهي -كما يذكر صلاح فضل- «العلم الذي يعنى بالعلاقة بين بنية النص والموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منظّم»[1]. وقد ربطها بشكل مباشر بفكرة "مقتضى الحال"، يقول: «ويأتي مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية منظّمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة "مقتضى الحال"، والتي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية لكل مقام مقال»[2].

وبناءً على هذه المعطيات سنحاول أن نكشف عن طبيعة العلاقة بين البلاغة وعلم الاتّصال والتداولية، انطلاقا من مدوّنة توافرت على أراء وأفكار على صلة مباشرة بذلك، وتتمثّل في كتاب "الصناعتين" لأبي هلال العسكري، وسنحرص على بيان الطروحات التي قُدِّمت من منطلق التفاعل بين التراث والحداثة، قصد استجلاء الأبعاد النظرية التي يمكن الإفادة منها في الدراسات المعاصرة.

[1]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص26.
[2]- المرجع نفسه، ص26.

الفصل الأوّل: أشكال الاتّصال اللغوي عند أبي هلال العسكري:

1-الصناعتين ومنهجيته:

أ-ماهية الصناعة لدى أبي هلال العسكري:

ب-اعتبارات تأليف الكتاب:

ج-محتويات الكتاب ومنهجه:

2-الاتّصال الكتابي عند العسكري:

أ-تقنيات الكتابة لدى العسكري:

-معرفة العربية لتصحيح الألفاظ وإصابة المعاني:

-المعرفة بالحساب وعلم المساحة والأزمنة والشهور والأهلّة:

-المعرفة بصنعة الكلام:

-المقام وأقدار المتكلّمين:

ب-طبيعة الاتّصال الكتابي عند العسكري:

-موضوع الرسالة وغايتها:

-موضوع الرسالة والمكتوب إليه:

-الكاتب والمكتوب إليه وموضوع الرسالة معا:

3-الاتّصال الشفاهي عند أبي هلال العسكري:

أ-بناء الاتّصال الشفاهي عند العسكري:

ب-نظم الشعر وخصائصه عند العسكري:

-ماهية الشعر لدى العسكري:

-مكوّنات الشعر لدى العسكري:

ج-الخطابة لدى العسكري:

-ماهية الخطابة:

-بناء الخطبة ومميّزاتها:

1-الصناعتين ومنهجيته:

تفنّن الناس قديما وحديثا في أساليب حياتهم، فنوّعوا في أنماط أقوالهم، وأحسنوا الوصل في أفكارهم ومعانيهم ومقاصدهم إلى غيرهم، كلّ حسب اقتداره وكياسته وذكائه. وقد تنوّعت هذه الأساليب في اتّصالهم، فكان الحديث بنوعيه الشفاهي والكتابي من أبرزها، وقد اهتم بـهما الدارسون قديما وحديثا، فقدّموا الكثير من الأفكار التي توضّحهما.

وقد كان العرب أمّة مشهورة بالبيان والبلاغة، فمنهما تجلّت دراسات هذين الأسلوبين؛ الكتابي والشفاهي، وارتبطا أساسا بالكلام وخصائصه. وأُصطلِح على الأدوات المعرفية التي تمكّن من إتقانهما باصطلاح "الصناعة"، فهذا اللفظ لم يطلق على بعض المؤلفات من باب التسمية فقط؛ بل أُعتُبر جوهرها، وخير دليل على ذلك كتاب "الصناعتين"، فقد ركّز فيه العسكري على الاتّصال اللغوي بنوعيه؛ الكتابي وتجسّد من قوله "الكتابة"، والشفاهي وربطه بالشعر بالدرجة الأولى بالإضافة إلى الخطابة والرسائل الديوانية.

وإذا عدنا إلى المعاجم اللغوية فإنّنا نجد لفظة "صناعة" تعني حرفة؛ قالوا صانع من صناع، ماهر في صناعته وصنعته، ورجل صَنَعٌ ماهرٌ، وصنْعُ اليدين، وامرأة صناع، وقومٌ صُنَّعٌ. ثمّ استعملوا هذه المادة في الفنون والأدب؛ فقالوا رجل صنع اللسان، ولسان صنع ذلك الشاعر ولكل بليغ[1].

أما مجال استعمال هذه الكلمة فقد عرف رواجا واسعا؛ إذ أُستعملت عند اليونانيين لترتبط بالشعر، وسمّت الشاعر "صانعا Maker"[2]. والأمر نفسه كان عند العرب؛ فقد رُبط بكل علم أو نشاط يتقنه الفرد في الحياة الأدبية؛ شعرا أو

---

[1]- ينظر الزمخشري أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، بيروت دار الكتب العلمي، ط1998/1، مادة (صنع).

[2]- بدوي طبانة، البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها الكبرى، مصر المطبعة الأنجلو المصرية، ط1968/4، ص154.

نثرا أو رسائل أو خطبا أو غير ذلك. وقد قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «خير صناعات العرب أبيات يقدّمها الرجل بين يدي صاحبه، يستميل بها الكريم، ويستلطف بها اللئيم»[1]. فالشعر من أبرز الصناعات التي عرفتها العرب، ولكن هذا لا يعني اكتفاءهم به.

أما توظيف هذا المصطلح في الدراسات الموروثة فلعلّ محمد بن سلاّم الجمحي (ت232هـ) أوّل من استعمل ذلك، حينما قرّر أنّ «الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات»[2]. ثم نجد قدامة بن جعفر يجعل الشعر أيضا صناعة؛ يقول: «ولما كانت للشعر صناعة، وكان الغرض في كلّ صناعة إجراءها يصنع ويعمل بها على غاية التجويد والكمال؛ إذ كان جميع ما سبيل الصناعات والمهن فله طرفان؛ أحدهما غاية الجودة، والآخر غاية الرداءة»[3].

وقد ظهرت كلمة "صناعة" على لسان دارسين آخرين مختصين؛ منهم على الخصوص أبو هلال العسكري الذي سمّى مؤلّفه ككل "الصناعتين" بالتثنية؛ لأنّه ربط المصطلح بنظم الشعر والكتابة؛ لأنّها «مصدر يتعلّق بكيفية العمل، ويحصل بالمزاولة. والصناعة عمل وتحسين واختيار وحسن، وهي معاني لغوية توحي إليها مدلولات الكتابة»[4]. ولذا كانت "الصناعة" أكثر تداولا لدى أبي هلال في هذا المؤلّف.

أ-ماهية الصناعة لدى أبي هلال العسكري:

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، 101/1.
[2]- طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، مصر مطبعة المدني، (د.ت)، ص6.
[3]- نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مصر مكتبة الخانجي، 1963، ص16.
[4]- خالد إبراهيم يوسف، مداخل الكتابة العربية وبلاغتها، لبنان مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1999/1، ص 152.

إنّ كلمة "الصناعة" التي ذكرها العسكري في كتابه ترتبط بـ "الفن"، لذلك أراد أن يميّزها عن العلم، فهي «تلك الملكة الحاصلة بالتمرّن»[1]. والفن هو «المهارة سواء أكانت فيما تثقفه اليد، أو يثقفه اللسان, فهو صناعة، فالدمية صناعة اليد، ولا يزاولها إلا الفنان أو الصانع الذي يختار لها المادة الجيّدة والأوضاع الجيّدة»[2]. فالمادة نقصد بها في مجال الاتّصال الأدبي الألفاظ والمعاني المنتقاة، وتقتضي حسن التأليف والاستخدام في المقام المناسب بينهما بحسب ما يريد الصانع الوصول إليه، أو بحسب مقاصده، وإذا «اجتمعت جودة المادة إلى جودة الهيئة الحاصلة عُدّ الفنان متمكّنا من صناعته»[3]. ولذلك كان الأدب صناعة «لما فيه من المهارة في إصابة المعنى، أو ابتكار الخيال، أو جمال الفكرة، وحسن الصياغة، والتأنّق في الأسلوب»[4].

فالعسكري آثر مذهب الصنعة في الكلام المنظوم والمكتوب، وعالجه باعتباره فنّاً يقتضي الحذق والمهارة، لذلك أردف "الصناعتين" بلفظتي "الكتابة والشعر". ويجب أن نشير أيضا إلى أنّه قد ربط الغاية من هذا المؤلّف ككل بهذا المصطلح؛ إذ يقول بعدما أن عرض الأدوات والآلات اللغوية التي تتعلّق بها صنعة الكلام: «إنّما عملنا هذا الكتاب لمن استكمل هذه الآلات كلّها، وبقي عليه المعرفة بصنعة الكلام، وهي أصعبها وأشدّها»[5]. إذاً فالاتّصال اللغوي لا يقف عند حدود المعرفة بما تقتضيه قواعد اللغة؛ بل هو مؤسس على الإجراء؛ أي على التوظيف الدقيق والسليم وفق ما يتطلّبه الموقف المعيّن، وهذا ما ركّز عليه أبو هلال في صنيعه، لذلك قال: «فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع

---

[1]- تمام حسان، الأصول دراسة ابستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، ص13.
[2]- بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، بيروت دار الثقافة، ط/3، 1981، ص125.
[3]- بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص125.
[4]- بدوي طبانة، المرجع نفسه، ص125.
[5]- الصناعتين، ص160.

ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال وإسهاب وإهذار»[1].

وقد انتقد بدوي طبانة هذه التسمية، وأقرّ بأنّه لو سمّى كتابه "النثر والشعر" لكان أقرب إلى الصواب[2]، بيد أنّنا نلاحظ أنّ العسكري كان يبغي الوصول إلى التنظير للكتابة ككل؛ العادية والفنية وفي كل مستوياتها، لذلك نجده أكثر دقّة بلفظة "الكتابة".

ويجب أن نذكر أنّ أبا هلال كانت غايته من لفظة "الصناعة" التطرّق إلى مستويات الكلام والتفرقة بينها, والتي تبدأ من الكلام العادي إلى أن تصل إلى الكلام المعجز (القرآن الكريم)، ويتوسّطهما الكلام الفني.

وقد كان لمجمل هذه الأفكار امتداد لدى الدارسين في من أتى بعده؛ منهم ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ) حينما تحدّث عن صناعة الكلام؛ إذ قال: «إنّ كل صناعة من الصناعات فكمالها بخمسة أشياء على ما ذكره الحكماء؛ الموضوع وهو الخشب في صناعة النجارة، والصانع وهو النجّار، والصورة وهي كالتربيع المخصوص إن كان المصنوع كرسيا، مثل المنشار والقدوم وما يجري مجراهما والغرض وهو أن يقصد على هذا المثال الجلوس فوق ما يصنعها»[3]، ثمّ يخصّ ذلك بالكلام حيث قال: «إنّ الموضوع هو الكلام المؤلّف من الأصوات... فأما الصانع المؤلف فهو الذي ينظم الكلام بعضه مع بعض... وأما الصورة فهي كالفصل للكاتب والبيت للشاعر... أما الآلة فأقرب ما قيل فيها إنّها طبع هذا الناظم والعلوم التي اكتسبها بعد ذلك... أما الغرض فبحسب الكلام المؤلّف فإن كان مدحا كان الغرض به قولا ينبئ عن عظم حال الممدوح، وإن

---

[1]- المصدر نفسه، ص11.
[2]- ينظر بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص126.
[3]- سر الفصاحة، تحقيق عبد المتعال الصعيدي، مصر مطبعة محمد على صبيح وأولاده، 1969، ص83.

كان هجوا فبالضد»[1], وبهذا فقد جعل الكلام أقساما، تتضافر فيما بينها لتشكّل صناعة تقوم على تأليف الأصوات من طرف مؤلف ينتقي الألفاظ ويتخيّرها لتغطي الغرض الذي يقصده.

ونجد عبد القاهر الجرجاني يربط "النظم" بالصنعة كذلك؛ إذ يقول: «وأوضح من هذا كلّه وهو أنّ النظم الذي يتواصفه البلغاء، وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله، صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة. وإذا كانت مما يستعان عليه بالفكرة، ويستخرج بالرويّة، فينبغي أن ينظر في الفكر بماذا تلبس؟ أبالمعاني؟ أم بالألفاظ؟ فأي شيء الذي وجدته الذي تلبِّس به فكرك من بين المعاني والألفاظ فهو الذي تحدث فيه صنعتك, وتقع فيه صياغتك ونظمك وتصويرك»[2]. فنظم الكلام صناعة؛ تتطلّب من المتكلّم معرفة واعية بكيفيات تعليق الألفاظ بعضها ببعض.

ب-اعتبارات تأليف الكتاب:

يعتبر كتاب "الصناعتين" من المحاولات القيّمة التي أراد بها صاحبها قراءة شاملة لأعمال البلاغيين الروّاد الذين سبقوه، وغايته الخروج بطرح عام يجمع المتفرّق, ويحقّق في المتّفق عليه، وهذا من أجل صياغة رؤية شاملة لصناعة الكلام. لذا حاول بطريقة ممنهجة جمع المعارف التي انتهت إلى عصره وتصنيفها وقراءتها, ثمّ تنظيمها تنظيما يسهّل الإفادة منها في صناعة الكلام[3].

وقد تنوّعت روافده من شعب مختلفة؛ من بيان الجاحظ، وبديع ابن المعتز، وما ذكره قدامة ابن جعفر وغيره. فالعسكري أراد أن يودعه جميع ما يُحتاج إليه

---

[1]- المصدر نفسه، ص 83.

[2]- دلائل الإعجاز، الجزائر سلسلة الأنيس، 1991, ص66-67، وينظر ص51 و70 و102 و372.

[3]- ينظر نظرية الكلام في بلاغة أبي هلال العسكري، رسالة ماجستير إشراف الدكتور محمد طول، جامعة تلمسان، 2005، ص75.

في صنعة الكلام شعره ونثره من غير إخلال ولا إسهاب[1]، لذلك لاحظناه لا يقدّم آراءه إلاّ بعد الاستقصاء لما قيل.

وعندما ألّف أبو هلال كتابه انطلق من البلاغة، وربطها باعتبارات معيّنة. وقد ردّها محمد العمري إلى اعتبارين أساسيين[2]:

-الاعتبار الديني: باعتبار أنّ الإعجاز القرآني لا يمكن الوقوف عليه إلا عن طريق البلاغة، يقول: «إنّ أحق العلوم بالتعلّم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى»[3]. فمعرفة البلاغة والفصاحة هي السبيل إلى إدراك الإعجاز القرآني، فإذا أغفل الإنسان «علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضَمَّنَه من الحلاوة، وجلّله من رونق الطَّلاوة، مع سهولة كلِمِه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيّرت عقولهم فيها»[4]. ومن هذا الاعتبار نلاحظ أنّ العسكري أراد أن يقف على خصوصيات البلاغة والفصاحة من أجل ضبط آليات صنعة الكلام في تجلياته المختلفة، فإذا عرفها المتكلّم استطاع أن يمتلك ناصية التأليف.

-الاعتبار الأدبي: ويأتي بعد الأول، ويتعلّق بفضائل هذا العلم وقيمته في إنجاز الكلام وإدراك جمالياته، يقول أبو هلال: «ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة، ومناقب معروفة؛ منها أنّ صاحب العربية إذا أخلّ بطلبه، وفرَّط في التماسه، فَفَاتَتْه فضيلته، وعلقت به رذيلة فَوْتِه، عفّى على جميع محاسنه، وعَمَّى

---

[1]- زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، القاهرة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 125/2.
[2]- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، المغرب أفريقيا الشرق، 1999، ص289.
[3]- الصناعتين، ص07.
[4]- المصدر نفسه، ص07.

سائر فضائله؛ لأنّه إذا لم يَفْرق بين كلام جيّد وآخر رديء، ولفظ حسن، وآخر قبيح، وشعر نادر، وآخر بارد، بَانَ جهله، وظهر نقصه. وهو أيضا إذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشئ رسالة -وقد فاته هذا العلم- مزج الصَّفو بالكدر، وخلط الغُرَرَ بالعُرَرِ، واستعمل الوحشي العكر، فجعل نفسه مهزأة للجهل وعبرة للعاقل»[1]. فأدنى تأمّل لهذا التوضيح نرى أنّ صاحبه أراد أن يوضّح أهمية البلاغة والفصاحة، وترتكز على أمرين أساسيين:

1-تمكّن المنتمي للعربية من التمييز بين الكلام الجيّد والمقبول من الرديء المرفوض.

2-اكتساب آليات صناعة الكلام المنظوم والمنثور.

وما يمكن ذكره أيضا أنّ الاعتبار الديني كان عند العسكري من أولى الأولويات، وللإشارة هذا الأمر كان مطروحا بقوة في ذلك العصر؛ مثل الرماني (ت386هـ)[2]، والباقلاني (ت403هـ)[3]. وتكاد تهيمن الوظيفة الأدبية على كتابه، كما كانت كذلك عند البلاغيين الذين اهتموا بالحياة الأدبية[4]. وبالتالي فقد اتّبع سابقيه الذين اشتغلوا في حقل البلاغة، منطلقين من القرآن الكريم.

والملاحظ أنّ أبا هلال أراد من صنيعه استقصاء ما يجب معرفته من المعطيات اللغوية التي تمكّن صاحب العربية من إنتاج وإدراك الكلام الفصيح والبليغ. وقد رأى أنّ «الكتب المصنّفة فيه قليلة... فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال وإسهاب وإهذار»[5]. فلقد أحسّ صاحب

---

[1]- الصناعتين، ص08.

[2]- ينظر النكت في إعجاز القرآن، ضمن كتاب "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"، مصر دار المعارف، ط/2، 1968، ص75.

[3]- ينظر إعجاز القرآن، تحقيق أبي عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، بيروت دار الكتب العلمية، ط/1، 2001، ص15.

[4]- ينظر محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص290.

[5]- أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص11.

الصناعتين بالحاجة الملحّة إلى تأليف كتاب شامل جامع لما يحتاج إليه الناظم والناثر، لذا تحرّى ما يحقّق له ذلك.

ج-محتويات الكتاب ومنهجه:

اشتمل كتاب الصناعتين على عشرة أبواب، تضم ثلاثة وخمسين فصلا، نوضّحها كما يلي:

الباب الأول: في الإبانة عن موضوع البلاغة في أصل اللغة، وما يجري معه من تصرّف لفظها وذكر حدودها وشرح وجوهها، وضرب الأمثلة في كلّ نوع منها، وتفسير ما جاء عن العلماء فيها (ثلاثة فصول).

الباب الثاني: في تمييز الكلام جيّده من رديّه، ومحموده من مذمومه (فصلان).

الباب الثالث: في معرفة صنعة الكلام (فصلان).

الباب الرابع: في البيان عن حسن السبك وجودة الوصف (فصل واحد).

الباب الخامس: في ذكر الإيجاز والإطناب (فصلان).

الباب السادس: في حسن الأخذ وقبحه وجودته ورداءته (فصلان).

الباب السابع: القول في التشبيه (فصلان).

الباب الثامن: في ذكر السجع والازدواج (فصلان).

الباب التاسع: في شرح البديع والإبانة عن وجوهه، وحصر أبوابه وفنونه (خمسة وثلاثون فصلا).

الباب العاشر: في ذكر مقاطع الكلام ومبادئه، والقول في الإساءة في ذلك والإحسان فيه (ثلاثة فصول).

وكل هذه العناوين ومضامينها تخدم الاتّصال اللغوي وضوابطه التداولية، وقد وضع محمد العمري مخططا يشرح فيه تصوّر العسكري لذلك، فجعله كما يلي[1]:

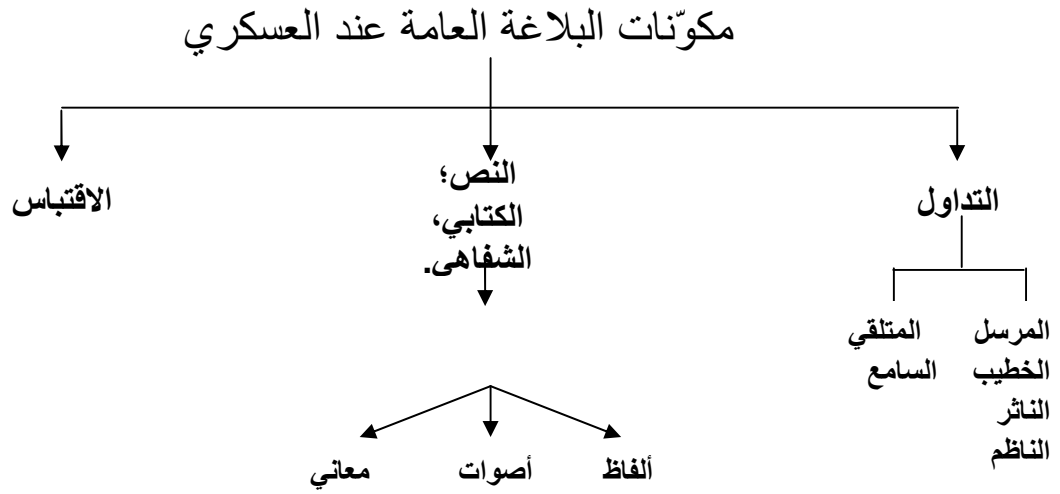

إنّ بلاغة الاتّصال التي يبتغيها أبو هلال تستوعب ما تقتضيه كل عملية اتّصالية بأبعادها المتنوّعة؛ فهدفه هو محاولة بناء صرح بلاغة تتّسع للمنظوم والمنثور، لذلك قدّم مجموعة من الضوابط التي تساعد صاحب العربية في التواصل الناجح والبليغ مع غيره. والمستوى التداولي الذي يكشف عن طبيعة العلاقة بين المرسل والمتلقّي جليّ في هذا التوضيح. أما النص الاتّصالي أو الرسالة فقد يكون بشكلين مختلفين؛ شفاهيا أو كتابيا، تضبطه خصائص تضمن له الفعاليّة، بحسب الأغراض والغايات المرادة.

ولتوضيح ما تستلزمه هذه المعطيات كان منهج العسكري قائما على الشرح والتحليل، ابتداءً بطرح القضية محلّ الدراسة، ثم تقديم آراء بعض العلماء التي

[1]- ينظر البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص292.

تصبّ في ذلك، ليقوم بتفسيرها، ويقف بعد ذلك على ما يجب أن يكون. وأهم ميزة اتّسمت بها طريقته هي كيفية تبسيط الرؤى؛ فالمعروف أنّ الطرح في اللغة يتميّز بالطابع التجريدي، وقد تفطّن لذلك أبو هلال، لذا كان لا يقدّم الرؤية المعيّنة إلاّ ويدعّمها بمثال ذي طابع محسوس. قد نمثّل لذلك بما ذكره عن حسن التأليف وجودة التركيب؛ إذ يقول: «فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا في المرأى، وإن لم يكن مرتفعا جليلا. وإن اختلّ نظمه فضمّت الحبّة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا... الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنّما تراها بعيون القلوب، فإذا قدّمت منها مؤخرا، أو أخّرت منها مقدّما، أفسدت الصورة وغيّرت المعنى، كما لو حلّ رأس إلى موضع يد، أو يد موضع رجل، لتحوّلت الخلقة، وتغيّرت الحلية»[1]. فصاحب الصناعتين مثّل بـ"العقد" لما له من مميزات تسحر وتجذب كل ناظر ومتأمّل فيه، وقد أراد أن يكون تأليف الكلام مثله في حسن تأليفه، ودقّة نظمه، فيلقى لدى المتلقّي قبولا واستحسانا. وهذه الطريقة تسهّل على المتصفّح لكتابه إدراك مقاصده، وهي مفتقدة في الدراسات اللسانية الحديثة.

وما نلفيه لدى العسكري أنّه كان لا يعرض القضية إلا ويقدّم الحجّة والدليل، وربّما يرجع ذلك لتأثّره بشكل أو بآخر بمذهب المتكلّمين من جهة، وتبحّره في تحليل المسائل اللغوية المختلفة من جهة أخرى. لذا كانت إحاطته واسعة وشاملة بالقضايا التي كان يطرحها، نلمس ذلك من خلال وعيه الكامل بضرورة إخراجها إلى المتلقّي في أرقى فكرة.

وكان العسكري يعتمد بقوّة على الاستشهاد بآي القرآن الكريم وشعر العرب ونثرهم لتدعيم الأفكار، وحتى ما ذُكر عنهم. قد نوضّح ذلك بما أورده عن

[1] العسكري، الصناعتين، ص167.

المعاظلة باعتبارها من سوء النظم؛ إذ بيّن أنّ عمر بن الخطّاب (رضي الله عنه) مدح زهيرا؛ لأنّه كان لا يعاظل بين الكلام[1].

ومما لاشكّ فيه أنّ أبا هلال قد عرض في كتابه كيفيات بناء الكلام المنظوم والمنثور، ودرس قضايا المعاني والألفاظ والتأليف والغايات, وغيرها من المسائل التي خصّص لها مباحث معيّنة. لذلك فقد اتّجه إلى طريق أفاد منه من جاء بعده، وهو تحويل أساليب النقد إلى مناهج بلاغية تعنى بالحصر والتحديد والتقسيم لأطراف الفن الأدبي[2].

2-الاتّصال الكتابي عند العسكري:

اهتم أبو هلال بالاتّصال الكتابي، فحرص على بيان مفهومه وتقديم خصائصه التي تؤطّره، ويعود ذلك إلى عصره الذي تنوّعت فيه الكتابات التاريخية والديوانية وغيرها. لكنّه لم يركّز على هذه الأنواع بقدر تركيزه على توضيح تقنيات الكتابة الفعّالة، والتي تضمن الاتّصال البليغ والناجح.

والكتابة مصدر "كتب يقال كتب يكتب كتبا وكتابا وكتابة"[3]، وقد تطلق على العلم، ومنه قوله عز وجلّ: **(أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)**[4]؛ أي يعلمون. أما في الاصطلاح فتعني تصوير اللفظ بحروف الهجاء[5]. وقد ذكر القلقشندي (ت861هـ) بأنّها «صناعة روحانية بآلة جثمانية»[6], وقد خصّ العُرف فيما تقدّم من الزمان لفظ الكتابة بصناعة الإنشاء، حتى كانت إذا أُطلقت لا يراد بها غير كتابة الإنشاء[7].

---

[1] ينظر المصدر نفسه، ص167.
[2] ينظر بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص111.
[3] ابن منظور، لسان العرب، مادة (كتب).
[4]- سورة الطور، آية (41).
[5] ينظر أسعد أحمد علي، صناعة الكتابة، دمشق دار السؤال، ط4، 1981، ص35.
[6] أبو عباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في الإنشا، تحقيق وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة، 1963، 52/1.
[7] ينظر المصدر نفسه، 52/1.

وتعني الكتابة في أساسها «التعبير عن اللغة المحكية (الكلام) بواسطة إشارات خطية مكتوبة، فهي نظام تواصل ينتمي إلى الدرجة الثانية من بين أنظمة التواصل»[1]. فهي نظام سميائي مرئي مكاني؛ أي يرتكز فيه على حاسة البصر، فهو "ترميز Encodage" يقابله القراءة التي هي نشاط لفك الرموز Décodage. ويمكن الإشارة إلى أنّ عملية الترميز تحتلّ مكانة هامة في عملية التواصل بحكم أنّ المرسل يعتمد في اتّصاله مع الآخر على نظام من الرموز الكتابية يتقيّد فيه بمجموعة من القواعد اللغوية بمختلف مستوياتها؛ الصوتية والنحوية والمعجمية.

وقد اعتبر "رولان بارث R. Barthes" الكتابة وظيفة؛ أي أنّها تلك العلاقة بين الإبداع والمجتمع من المنظار الشعري، فهي ليست رموزا أو إشارات موضوعة في حيّز مكاني فحسب؛ بل هي عملية إبداعية تضم سيرورة الترميز الكتابي، أي علاقة المرسل بلغته وعالمه وسننه من خلال حلقة لأشكال مبنية على الرموز[2].

وقد كانت الكتابة العربية تابعة للمواد والأغراض التي تتناولها، ولهذا تنوّعت بين أشكال مختلفة وأساليب متنوِّعة، لذلك ظلّ الكاتب العربي يميِّز بين الكتابة الديوانية والكتابة الإبداعية[3]، باعتبار أنّ كل صنف تضبطه خصوصيات معيّنة.

وقد درس العسكري الكتابة بفنونها وشروطها، وهي عنده صناعة. وقد خصّص لذلك فصلا سمّاه بـ "فيما يحتاج إليه الكاتب في مكاتباته"[4]، بالإضافة إلى إلى آراء أخرى جاءت مبثوثة في ثنايا كتابه.

أ-تقنيات الكتابة لدى العسكري:

---

[1] بسام بركة، علم الأصوات العام –أصوات اللغة العربية- لبنان مركز الإنماء القومي (د.ت) ص152.
[2] ينظر بسام بركة، المرجع نفسه، ص160.
[3] ينظر عبد المجيد جيدة، صناعة الكتابة عند العرب، بيروت دار العلوم العربية 1998، ص111.
[4] ينظر أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص160.

لاحظ أبو هلال أنّ الكتابة سواء أكانت عادية أم فنيّة تقتضي اكتساب العديد من الأدوات والآليات، حيث يقول: «ينبغي أن تعلم أنّ الكتابة الجيّدة تحتاج إلى أدوات جمّة، وآلات كثيرة؛ من معرفة العربية لتصحيح الألفاظ، وإصابة المعاني، وإلى الحساب وعلم المساحة، والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهلّة، وغير ذلك مما ليس ها هنا موضع ذكره وشرحه؛ لأنّا إنّما عملنا هذا الكتاب لمن استكمل هذه الآلات كلّها، وبقي عليه المعرفة بصنعة الكلام، وهي أصعبها وأشدّها»[1]. وقبل الوقوف على آليات الكتابة التي وردت في هذا القول ندقّق في العبارة الأخيرة التي يلمّح فيها العسكري إلى الفرق بين معرفة آلات الكتابة وإنجازها في كل اتّصال معيّن.

إذ تأمّلنا القول وما ذكره العسكري في الفصل الذي خصّصه للكتابة نلاحظ أنّه قد أشار إلى فكرة جوهرية، وهي أنّ الاتّصال الكتابي الجيّد يقوم على تقنيات متعدّدة، مركّزا على ما يلي:

-معرفة العربية لتصحيح الألفاظ وإصابة المعاني: فمن ضرورات الكتابة البليغة معرفة قواعد العربية التي تمكّن المتكلّم من الاتّصال الفعّال. ولا يتحقّق هذا إلا بالتوسّع في ذلك، يقول صاحب الصناعتين: «ومن تمام آلات البلاغة التوسّع في معرفة العربية، ووجوه الاستعمال لها»[2]، وكلّ هذا لكي يتسنّى للكاتب الدقّة في اختيار ألفاظها وتأليفها حتى تكون سليمة خالية من اللحن؛ وخصوصا وأنّ العربي كان دائم الحرص على ذلك، فقد «كان العرب يتكلّمون باللغة العربية المستقيمة في أساليبها، والنقية من الشوائب، لذلك تبوّأت مكانا مرموقا في الدراسات اللغوية بكل مستوياتها، وهو ما نراه ماثلا في أقدم أثر لغوي عربي وصل إلينا؛ وهو كتاب سيبويه»[3].

---

[1]- المصدر نفسه، ص160.
[2]- المصدر نفسه، ص27.
[3]- زين كامل الخويسيكي، فتاوى لغوية، مصر دار المعرفة الجامعية، 1995، ص7.

ومن أجل أن تكون العربية سليمة في التداول أُلّفت العديد من المصنّفات التي تضبط الاستعمال الصحيح للعربية. وقد انقسمت إلى قسمين:

-ما تلحن فيه العامة من الناس.

-وما تلحن فيه الخاصة من الشعراء والأدباء[1].

وفي هذا الصدد ألف العسكري كتابا سمّاه "ما تلحن فيه الخاصة".

ثمّ إنّ هذه المعرفة لا تكتمل إلا من خلال التوظيف، لذلك قال أبو هلال: «فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى وتصحيح اللفظ، والمعرفة بوجوه الاستعمال»[2]. فالاتّصال يقتضي وضع ألفاظ ذات معاني في علاقات معيّنة بحسب الغاية المقصودة، لذلك لابدّ من الدقّة في الوقوف على اللفظ الذي يحقّق ذلك، ومن الضروري أن يتّصف كما يذكر بـ: "الجودة، والجزالة، والشرف، والحسن"، وغيرها من الصفات التي هي عنده من مكوِّنات آلات البلاغة. ولا بدّ من إصابة المعنى؛ أي التعبير بما يعنيه المتكلّم، وتقبله البلاغة الجيّدة. وللتنبيه على أهمية ذلك عقد فصلا سمّاه "في التنبيه على خطأ المعاني وصوابها ليتبع من يريد العمل برسمنا مواقع الصواب فيرتسمها، ويقف على مواقع الخطأ فيتجنّبها"[3].

-المعرفة بالحساب وعلم المساحة والأزمنة والشهور والأهلّة، وغير ذلك من المعطيات التي تسهم في تكوين الكفاية اللغوية والعلمية التي تمكّن المتّصل من المعرفة بما يقتضيه الاتّصال المعيّن. فـ «طالب البلاغة في حاجة إلى ألوان كثيرة من الثقافة، وأقل ما يجب علية درسه هو اللغة والطبيعة والنفس»[4]. فبلاغة الاتّصال بأشكاله المختلفة تقتضي المعرفة الواسعة بالمحيط الطبيعي الذي ينتمي

---

[1]- رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطوّر اللغوي، مصر دار المعارف، ط1967/1، ص97-98.

[2]- الصناعتين، ص75.

[3]- المصدر نفسه، ص75.

[4]- بدوي طبانة، البيان العربي دراسة في تطوّر الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، ط3، 1962، ص282.

إليه متداولو الخطاب، أساسها اللغة بحكم أنّها «أداة القول والكتابة داخل لغة من اللغات عبقرية تستكن في طرق الأداء والنوع الصور وتلاؤم الألفاظ»[1].

أما المحيط الطبيعي فهو مصدر إلهام المبدع، كما أنّها «كتاب الفنان الجامع منها موضوعه ومادته وعنها اقتباسه وواجبه»[2]. بالإضافة إلى النفس التي تحرّك المتكلّم أو الكاتب فتجعله يتفاعل مع هذا المحيط، فيعبّر عنه في شكل لغوي معيّن.

-المعرفة بصنعة الكلام:

وهو أساس الفعل الاتّصالي لدى العسكري لذا لاحظناه يربط في القول الغاية من تأليف هذا الكتاب بهذه القضية. ولا تقف هذه المعرفة عند حدود إدراك قواعد اللغة؛ بل تقتضي أيضا اكتساب آليات الاتّصال المختلفة التي يستدعيها الموقف المحدّد. وهذا الأمر ليس في متناول الجميع؛ لذلك قال "وهي أصعبها وأشدّها".

ومن هنا تكون الكتابة جيّدة إذا استطاع الكاتب أن يتجاوز هذه الصعوبة والشدّة؛ أي إن تمكّن من ترجمة ما يجول في خلده على صحيفته. والشاهد الذي ذكره أبو هلال «ما روى لنا أبو أحمد عن مبرمان عن المبرد أنّه قال: لا أحتاج إلى وصف نفسي لعلم الناس بي، أنّه ليس أحدٌ من الخافقين يختلج في نفسه مسألة مشكلة إلاّ لقيني بها، وأعدَّني لها، فأنا عالم ومتعلّم وحافظ ودارس، لا يخفى عليّ مشتبه من الشعر والنّحو والكلام المنثور والخطب والرسائل، ولربّما احتجت إلى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة، فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني، ثمّ لا أجد سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان، ولقد بلغني أنّ عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل فحاولت أن أكتب إليه رقعةً أشكره فيها، وأعرض ببعض أموري،

[1]- بدوي طبانة، المرجع نفسه، ص286.
[2]- بدوي طبانة، المرجع نفسه، ص268.

فأتعبت نفسي يوما في ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منه، وكنت أحاول الإفصاح عمّا في ضميري، فينصرف لساني إلى غيره»[1].

فهذه الشواهد تبيّن مقدار الصعوبة التي قد يصادفها الكاتب في كتاباته حتى وإن كان عالما بأمور اللغة، فهذا لا يكفي في الإحاطة بالسيّاقات المختلفة، وبالخصوص في مقام الشكر حيث يعجز القلم عن التعبير الكافي بما يريده صاحبه.

-المقام وأقدار المتكلّمين: فصنعة الكتابة مؤسسة أيضا لدى أبي هلال على المقام، ويمثّل الجوهر لكل من يريد أن ينشئ كلاما بليغا. وقد اكتسى أهمية بالغة عند سابقيه كالجاحظ الذي ظلّ يربط أشكال التأليف اللغوي المختلفة بهذا الأساس.

والمقام يتطلّب استخدام اللغة التي تتلاءم مع مقتضيات الموضوع، «باستخدام اللغة الاصطلاحية، وباستخدام معجم خاص ملائم لها، فإذا كان الموضوع موضوعا كلاميا فيجب توظيف مصطلحات علم الكلام للتعبير عنه»[2].

وهو مرتبط في الاتّصال الكتابي بالمكتوب إليه، لذلك قال أبو هلال: «فأوّل ما ينبغي أن تستعمله في كتابتك مكاتبة كل فريق منهم على مقدار طبقتهم، وقوّتهم في المنطق»[3]. فالعسكري يركّز على الطبقة وقدرتها على إدراك ما كُتب واستيعابه. وهذا ما أشار إليه ابن قتيبة (ت375هـ) من قبل، حيث يقول: «ونستحب له أن ينزّل ألفاظه في كتبه، فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، ولا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس خسيس الكلام»[4]. فلكل فريق طريقة في تركيب الكلمات، وتوالي العبارات.

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص160.
[2]- صالح أبو الأصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتّصال المعاصر، ص115.
[3]- الصناعتين، ص160.
[4]- ابن قتيبة، أدب الكاتب، تحقيق، محيي الدين عبد الحميد، بيروت، عالم المعرفة (د.ت). ص178.

ولعلّ ما يريده العسكري من توضيحه هو أن يجعل لكل طبقة لغة خاصة، وعلى الكاتب أن يعي هذه الآلية؛ لأنّها تمكّنه من التعامل مع مختلف الطبقات مهما تنوّعت وتباينت. وساق أبو هلال شاهدا يكشف عن ذلك مفاده «أنّ النبي (صلّى الله عليه وسلّم) لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس بعث إليهم بما يمكن ترجمته: "من محمد رسول الله إلى كسرى ابرويز عظيم فارس، سلام على من اتّبع الهدى وآمن بالله ورسوله، فأدعوك بداعية الله فإنّي أنا رسول الله إلى الخلق كافة لينذر من كان حيا ويحقّ القول على الكافرين، فاسلم تسلم فإن أبيت فاسم المجوس عليك". فسهّل (صلّى الله عليه وسلّم) الألفاظ كما ترى غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة في العربية»[1]. فلما لم تكن للمرسل إليه المعرفة القوية بالعربية خُوطب بما يتلاءم مع هذه البساطة.

ولكن الأمر يختلف إذا أردنا الكتابة إلى من لهم المعرفة الجيّدة بهذه اللغة، لذلك لما أراد النبي (صلّى الله عليه وسلّم) «أن يكتب إلى قوم من العرب فخّم اللفظ لما عرف من فضل قوّتهم على فهمه وعادتهم لسماع مثله. فكتب لوائل بن حُجْر الحضرمي "من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة من أهل حضر موت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة على التبعة الشاة، والتيمَة لصاحبها، وفي السُّيوب الخُمُسُ، لا خلاَطَ ولا وِرَاطَ، ولا شناق ولا شِغَارَ، ومن أجْبَى فقد أربَى، وكل" مسكر حرام»[2]. فالرسول (صلّى الله عليه وسلّم) لما أراد مكاتبة من لهم المعرفة القوية بالعربية اختار كلماته، ودقّق في تراكيبه بما يضمن له مقصده. والمعرفة بصنعة الكلام وآلياته المختلفة هي التي مكّنت النبي عليه الصلاة والسلام من التنويع في كتاباته بحسب المرسل إليه.

[1]- الصناعتين، ص161.
[2]- المصدر نفسه، ص161.

ومعرفة المقام وأقدار المتلقّين في الاتّصال الكتابي «سعت إلى خلق تقليد يجعل كل كاتب لا يرفع قلما ولا يخطّ سطرا إلاّ وفي خلده شبح المتلقي؛ فردا كان أو جماعة. وقد عملت فكرة المقام على خلق ما يشبه الطبقات في الفنون الأخرى، فالطبقة تفرض لون حديثها على المتكلّم، ولون مصطلحاتها. وعلى هذا القدر يكون من واجب المتأدِّب أن لا يتناسى هذا الشرط؛ بل يدرّب نفسه على الانصياع له»[1]، فعلى أقدار المتلقّين تصاغ الألفاظ وتُؤلّف المعاني. وهذا ما ركّزت عليه التداولية حين اتّخذت من المتلقّي محورا جوهريا على أساسه يتم التواصل، وهنا «تكمن وظيفة التداولية كما ذهبت إلى ذلك "أوركيوني"[2] في استخلاص العمليات التي تمكّن الكلام من التجذّر في إطاره الذي يشكّل العلاقة الآتية: المرسل، المتلقّي، والوضعية التبليغية»[3].

وقد اعتمد العسكري ههنا على أقدم نص يعكس أهمية المقام، وهو صحيفة بشر بن المعتمر[4]، التي حملت جملة من النصائح والوصايا، قُدِّمت لكلّ من يريد أن يؤلّف كلاما في حالة ما. فـ «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكلّ حالة من ذلك مقاما»[5]. فأبو هلال كان على قدرٍ واعٍ من هذه المعطيات التي تسهم في ضبط الكلام الذي يوافق الموضوع والمقصد المعيّن، فـ «مدار المعنى على الصواب وإحراز المنفعة، وموافقة الحال، وما يجب لكلِّ مقام من مقال»[6].

---

[1]- حبيب مونسي، نظرية الكتابة في النقد العربي القديم، الجزائر دار الغرب للنشر والتوزيع، ط2001/1، ص84.

[2]- كانت طالبة في مدرسة المعلمين العليا بباريس، وقد حازت على دكتوراه الدولة في اللسانيات، وهي حاليا أستاذة بجامعة ليون 2، من مؤلفاتها:

L'implicite, les interactions verbales, la connotation.

[3]- عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، الجزائر منشورات الاختلاف، ط2003/1، ص8.

[4]- ينظر الصناعتين، ص160.

[5]- الجاحظ، البيان والتبيين، 138/1.

[6]- الجاحظ، المصدر نفسه 136/1.

فمدار العملية الاتّصالية مبني على تحقيق المنفعة وإحرازها، ولا يتأتّى هذا كلّه إلا مع موافقة الحال، وكلّ هذا يشارك في معرفة أبعاد الكلام. وهذا ما ركّزت عليه التداولية التي تبيّن دور المقاصد والمقام في فهم الخطاب ككل. وقد طرح ذلك "فلمور Filmor" (1988) إذ قال: «علينا أن نحدّد ما يمكن معرفته عن معنى قول ما ومقامه»[1].

ويجب أن نذكر أيضا أنّ التداولية تراعي في المقام طرفي العملية الاتّصالية؛ إذ تربطه «بالمستمع والمتكلّم، وهو مفهوم ينظر إلى الظروف الاجتماعية والمذهبية والحضارية ومختلف السيّاقات الخاصة بعملية التواصل»[2]، ويتجلّى هذا الأمر في الرسالة اللغوية التي تعبّر عن ذلك. واهتم العسكري بهذه القضية، يدلّ على ذلك الكتابات المتنوّعة التي ذكرها عن الرسول الكريم (صلّى الله عليه وسلّم)؛ إذ لاحظ أنّ الكتابات كانت تختلف بحسب المقام والمرسل إلية الذي تعنيه الكتابة. وما يمكن أن نسجّله أنّ أبا هلال ربط بلاغة الصنعة في الكتابة بما تقتضيه هذه العلاقة.

ب-طبيعة الاتّصال الكتابي عند العسكري:

لاحظ أبو هلال أنّ الاتّصال الكتابي له طبيعته الخاصة، ويرتبط بثلاثة محاور رئيسية وهي:

-موضوع الرسالة وغايتها:

ربط العسكري بلاغة الاتّصال الكتابي بالموضوع وغاياته، وبيّن أنّ طبيعة اللغة تختلف بحسبهما، يقول: «واعلم أنّ المعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمر والنهي سبيلها أن تؤكّد غاية التوكيد بجهة كيفية النظم لا بجهة كثرة اللفظ؛ لأنّ

[1]- تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، السعودية مطابع الرياض للنشر والتوزيع، 1997 ص45.

[2]- محمد سورتي، اللغة ودلالتها تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، مجلة عالم الفكر، مجلد 8، العدد 3 يناير/ مارس 2000، ص91.

حكم ما ينفّذ عن السلطان في كتبه شبيه بحكم توقيعاته من اختصار اللفظ وتأكيد المعنى. هذا إذا كان الأمر والنهي واقعين في جملة واحدة لا يقع فيها وجوه التمثيل للأعمال، فأما إذا وقعا في ذلك الجنس فإنّ الحكم فيهما يخالف ما ذكرناه، وسبيل الكلام فيها أن يُحمل على الإطالة والتكرير دون الحذف والإيجاز، وذلك مثل ما يُكتب عن السلطان في أمر الأموال وجبايتها واستخراجها»[1].

فالموضوع من جهة، والغايات أو "مقاصد الرسالة" -بمصطلح تداولي- من جهة أخرى هما اللذان يحدِّدان طبيعة الكتابة، وكلاهما يبقيان على صلة بالسيّاق ككل. وهذا ما تركّز عليه التداولية؛ إذ اعتبرت مكوِّناته ومعطياته مما يُؤخذ بعين الاعتبار في كل إجراء تواصلي، لذلك فهي «تُعنى بالشروط والقواعد اللازمة الملائمة بين أفعال القول ومقتضيات المواقف الخاصة به، أي للعلاقة بين النص والسياق»[2]. وهي تحاول أن تدرس بنية النص وبنية السياق والمساحة التي تشغلهما.

وركّز "أوستين Austin" على ارتباط الدلالات بالسياق؛ إذ يقول: «لا يمكن تصوّر الدلالة من داخل نظام اللغة، ولكن بالرجوع إلى شروط استعمال الملفوظ، فالقيمة الدلالية –التداولية- هي بالتحديد وظيفة السياق الذي أنتج فيه الملفوظ»[3]. وهذا ما كان ماثلا في قول العسكري حيث بيّن أنّ صاحب الرسالة -وهو السلطان- إذا كان في موضوع الأمر والنهي فإنّه ينوّع في كيفية تركيب ألفاظه وجمله بحسب الغايات ككل، فيقلّل في لفظه أو يطيل ويكرّر.

وفي هذا الإطار دائما قسّم "أوستين Austin" الملفوظات إلى قسمين:

---

[1]- الصناعتين، ص162.

[2]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص24-25.

[3] Jacques noeshler, théorie pragmatique et pragmatique conversationnelle, Armand colin,masson paris,1996 p :21.

-الملفوظات التقريرية Enoncé constatives"؛ وانطلق ههنا من مسلّمة مفادها أنّه «بما أنّ كلّ القضايا الصادقة منها والكاذبة ليست كلّها دالة على الوصف، فقد عدل عن لفظ الوصف واختار بدله ألفاظا تقريرية، والتي تنحصر وظيفتها في وصف الحوادث»[1].

ب-الملفوظات الإنجازية Enoncés performatives"، وهي على حدّ تعبير "أوستين Austin" لا تحتمل الكذب أو الصدق، وإنّما هي ملفوظات تنجز شيئا ما قد تكون وعدا أو أمرا أو تهديدا. وأصطلح عليها هذا المصطلح لأنّ «الفعل هو وظيفة التلفّظ، وليس نتيجة من نتائجه فقط»[2].

ويمكن أن نمثّل هذه الأفعال في الجدول الآتي:

الملفوظات	
الملفوظات التقريرية	الملفوظات الإنجازية
-هي التي تحتمل الصدق أو الكذب (جمل خبرية) -اللغة تخضع للواقع وتحاول أن تمثّله، وقد يكون التمثّل صادقا أو كاذبا (وصف حقيقة	-لا تحتمل الصدق أو الكذب (جمل إنشائية). -الواقع يخضع للغة، وهي تحاول أن تغيِّر هذا الواقع (تنشئ حقيقة جديدة).

[1]- علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، المغرب دار الثقافة (د.ت)، ص63.
[2]- علي أيت أوشان، المرجع نفسه، ص64.

وعلى هذا الأساس نلاحظ أنّ أبا هلال رأى أنّ الاتّصال الكتابي الذي يتم بين السلطان ورعيته يعتمد على الملفوظات الإنجازية بمصطلح تداولي، والتي من شأنها أن توصل المعنى المقصود إلى قلب السامع، فيجني الفائدة التي قد تكون الخضوع لأمر السلطان، أو الإقناع بوعوده على حسب المقصد.

وقد فصّل البلاغيون القول في الإنشاء فقسّموه إلى إنشاء طلبي وغير طلبي، والطلب كما يذكر السكاكي نوعان «نوع لا يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول، وقولنا "لا يستدعي أن يمكن" أعم من قولنا "يستدعي أن لا يمكن"، ونوع يستدعي فيه إمكان الحصول»[1]. فالجمل الإنشائية نستعملها لإنجاز فعل ما، والسلطان حينما يتواصل مع رعيّته فإنّه يتخيّر من خلال كلامه فعلا قد يكون أمرا أو نهيا، والعسكري اشترط عليه اختصار اللفظ وتأكيد المعنى.

وقد توصّل "أوستين Austin" إلى ضبط معيارين أساسيين يكفي كل منهما على حدة لتحديد الجملة الإنشائية وهما:

المعيار الأول: اشتمال الجملة على فعل بصيغة المضارع المعلوم للمتكلّم المفرد، في مقابل ما اشتملت على فعل بصيغة أخرى، مثل "فأعدك بكذا"، فالجملة إنشائية. أما في "لقد وعدوك بكذا" التي هي لغير المتكلّم المفرد، وكذلك "وعدتك بكذا" التي هي لغير المضارع، فالجملتان تدلان على الخبرية لا الإنشائية.

المعيار الثاني: اشتمال الجملة على فعل بصيغة المبني للمجهول، مع ضمير المخاطب أو الغائب، مثل "المسافرون منذرون بوجوب العبور بطريق الجسر فقط"، أو ما تشتمل عليه الوثائق من القول "بموجب هذا أنت مفوض

[1]- السكاكي، مفتاح العلوم، مصر مطبعة مصطفى البابي وأولاده، ط1990/2، ص169.

بكذا"، فهذان معياران صريحان، لكن مع ذلك قد تخلو منها بعض الجمل الإنشائية؛ مثل "أغلق الباب"[1].

وهذا ما عبّر عنه العسكري حينما طالب الكاتب بأن يعرف مقدار المكتوب إليه، فعلى أساسه ينشئ الكلام، قال: «هذا أدام الله عزّك بعد أن تفرّق بين من تكتب إليه "فإن رأيت"، وبين من تكتب إليه "فرأيك"، وأن تعرف مقدار المكتوب إليه من الرؤساء والنظراء والغلمان والوكلاء»[2].

ويمكن أن نوضّح أكثر ما قاله أبو هلال و"أوستين Austin" مما يلي:

-اشتمال الجملة على فعل بصيغة المضارع المعلوم للمتكلم المفرد "أعدك بكذا".

هي جملة إنشائية عند "أوستين Austin".

-اشتمال الجملة على فعل بصيغة الماضي للمعلوم "فإن رأيت" جملة إنشائية لدى العسكري.

وهذا القضية تتّضح أكثر مع ما ذكره "سيرل Searle" حينما حلّل الفعل الكلامي[3] المتضمّن في القول ونمطه الإنجازي، بحكم أنّ الأفعال المتضمّنة في القول تستدعي نمطا خاصا، أو طريقة معيّنة، تميّزها ظروف تساهم في تحقيق الغرض. فـ «المتكلّم الذي يصدر أمرا إداريا رسميا من موقع السلطة يفعل شيئا أزيد مما يفعله المتكلّم الذي يصدر طلبا عاديا. فالقولان يحققان غرضا متضمنا في القول واحدا، لكن الأمر الإداري الرسمي يحقّق غرضه باستناد المتكلّم إلى

[1]- طالب سيد هاشم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين الفلاسفة المعاصرين والبلاغيين العرب، الكويت 1994، ص5-6.

[2]- الصناعتين، ص165.

[3]- الفعل الكلامي ترجمة لمصطلح " Acte langagière"؛ وهو فعل أو سلوك كإصدار الأوامر والقرارات والوعود وطرح الأسئلة وإبرام العقود والمعاهدات وإبداء المشاعر، ومن هنا أُطلق فعل التكلم على عمليات القول.

موقع السلطة التي يتمتّع بها»[1]. وأشار "سيرل Searle" أيضا إلى أنّ الجملة الإنشائية تقوم على معايير عدّة، وميّز من خلالها بين[2]:

1-الأمريات (الطلبيات) " Des actives"، والغرض ههنا أمري طلبي، «فهي الأفعال التي يكون الغرض منها أن يجعل المتكلّم المخاطب يقوم بفعل ما، مثالها "طلب، أمر"»[3]. وبيّن أيضا أنّ «اتجاه المطابقة للغرض الوعدي هو من العالم إلى القول، والمسؤول عن إحداث المطابقة هو المخاطب»[4]. والحالة النفسية التي يعبّر عنها في الأمريات هي الإرادة والرغبة، والأمريات تخلق أسبابا للمخاطب؛ كي يؤدّي المطلوب منه[5].

2-البوحيات " Expressives": وهي أن يعبّر عن الحالة النفسية للمتكلّم، وما قد يثيره من مشاعر إزاء المخاطب. و «الغرض من البوحيات ذات الصيغة ق (ض) هو التعبير عن موقف " Attitude" حيال الواقعة التي تعبّر عنها القضية (ض)»[6].

وبيّن العسكري في الاتّصال الكتابي أهمية هذه المعطيات؛ بل فصّل أكثر، وهذا ما لاحظناه في المعاني التي تُنشأ فيها الكتب من الأمر والنهي، فالسلطان يعقّب بذكر الأمر بامتثاله، و«كذلك في الإحماد والإذمام والثناء والتقريظ والذّم والاستصغار والعدل والتوبيخ، وسبيل ذلك أن تشبع الكلام فيه. ويمدّ القول حسب ما يقتضيه آثار المكتوب إليه في الإحسان والإساءة والاجتهاد والتقصير، ليرتاح بذلك قلب المطيع، وينبسط أمله، ويرتاع قلب المسيء، ويأخذ نفسه بالارتداع»[7].

---

[1]- الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين الفلاسفة المعاصرين والبلاغيين العرب، ص18.

[2] Voir John Searle, les actes de langage essai de philosophique du langage, collection avoir hermanen, p52.

[3]- عادل فاخوري، تيارات في السيمياء، بيروت دار الطليعة، ط1990/1، ص98.

[4]- الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين الفلاسفة المعاصرين والبلاغيين العرب، ص31.

[5]- ينظر الطبطبائي المرجع نفسه، ص30.

[6]- الطبطبائي، المرجع نفسه، ص32.

[7]- العسكري، الصناعتين، ص163.

فكلّ موضوع يقوم على كيفية مضبوطة في ضبط الفعل الكلامي، لذلك طلب أبو هلال في مقام الشكر الاختصار في السياق الذي يستدعي ذلك، يقول: «وسبيل ما يكتب به في باب الشكر أن لا يقع فيه إسهاب، فإنّ إسهاب التابع في الشكر إذا رجع إلى خصوصية نوع من الإبرام والتثقيل»[1]. فهنا العامل يكتب ليعبّر عن شكره للسلطان؛ ولكن بدون تفريط في الشكر، لكي لا يصبح مبالغا فيه ولا يصل إلى مقصده المرجو، وبالتالي فالمتكلّم يستعمل الأفعال اللغوية الدالة على "السيرة Condutifs" بحسب تصنيف "أوستين Austin".

أما في الاعتذار فالاستعمال الكلامي يستدعي ضوابط خاصة، يقول أبو هلال: «وسبيل ما يكتب به في الاعتذار من شيء أن يتجنّب فيه الإطناب والإسهاب إلى إيراد النكت التي يتوهّم أنّها مقنعة في إزالة الموجدة، ولا يمعن في تبرئة ساحته في الإساءة والتقصير، فإنّ ذلك مما تكرهه الرؤساء»[2].فطبيعة الاعتذار تستوجب من المعتذر أن يستعمل جملا واضحة باستطاعتها أن تحقّق غايته، فيوظّف الجمل التقريرية الخبرية الكفيلة بوصف الحقيقة كما عبّر عن ذلك "أوستين Austin"؛ لأنّها السبيل الأنجع لنجاح العملية الاتّصالية.

وأضاف العسكري فكرة جوهرية؛ وهي ضرورة الأخذ بعين الاعتبار منزلة السامع، فالكتابة للرؤساء -كما يذكر- تقتضي طريقة خاصة، فهم لا يرضون بمن يحاسبهم، أو من يظهر تقصيرهم؛ بل يحبّذون من يجلّ بمقدارهم ومكانتهم ومنزلتهم الراقية، ولهذا قال: «وسبيل من يكتب به التابع إلى المتبوع في معنى الاستعطاف، ومسألة النظراء أن لا يكثر من شكاية الحال ورقّتها واستيلاء الخصاصة عليها فيها، فإنّ ذلك يجمع إلى الإبرام والإضجار شكاية الرئيس لسوء حاله وقلّة ظهور نعمته عليه. وهذا عند الرؤساء مكروه جدّا؛ بل

[1]- العسكري، المصدر نفسه، ص163.
[2]- الصناعتين، ص164.

يجب أن يجب أن يجعل الشكاية ممزوجة بالشكر والاعتراف بشمول النعمة وتوفير العائدة»[1].

ويمكن أن نوضّح التوضيحات السابقة بالمخطط التالي:

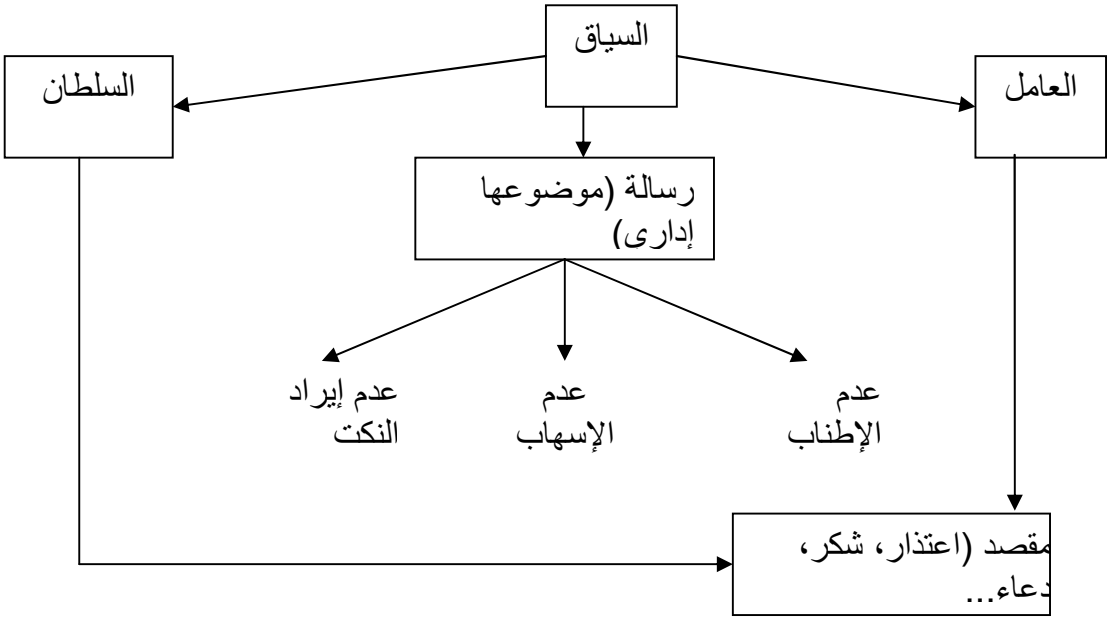

وحاول العسكري أن يقدّم فروقا جوهرية بين الجمل الإنشائية، والمتمثّلة في النهي والأمر والنهي وغيرها، والجمل الخبرية التي تتضمّن الاعتذار والشكر والدعاء وغير ذلك.

وأشار اللغويون العرب بعد العسكري إلى التمييز بين الجمل الخبرية والإنشائية، منهم ابن سينا (ت422هـ)، ويمكن أن نبيّن ذلك بالمخطط التالي[2]:

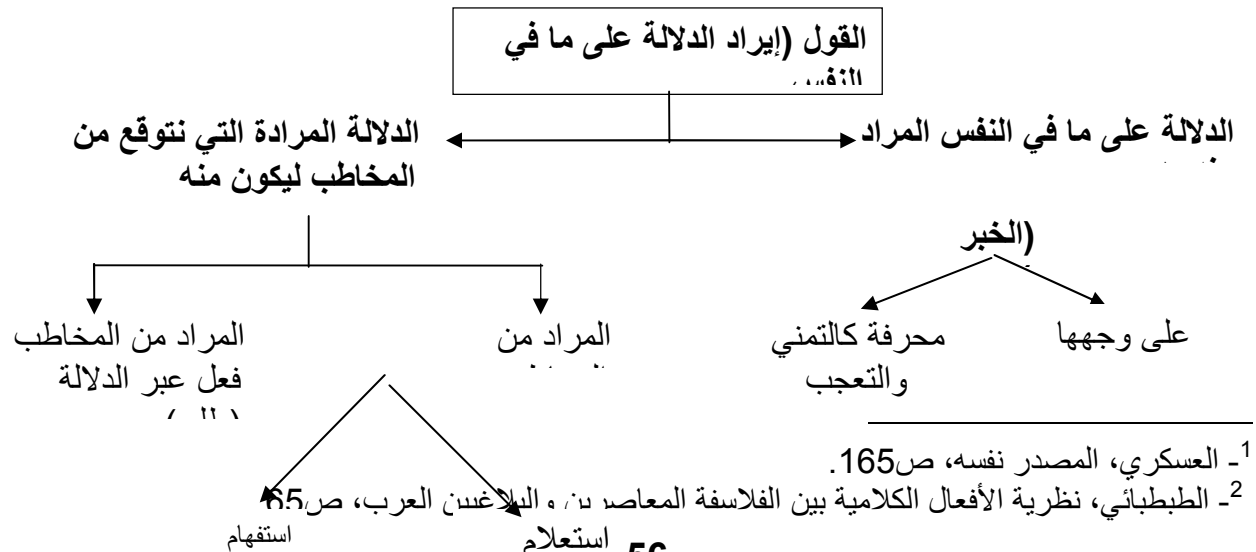

[1]- العسكري، المصدر نفسه، ص165.

[2]- الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين الفلاسفة المعاصرين والبلاغيين العرب، ص65.

ومن هذا المخطط نجد ابن سينا قد ميّز بين الجمل الإنشائية والخبرية، غير أنّه أدخل التمنّي والتعجّب واعتبرهما إخبارا، وغاية الأمر أنّها محرّفة، وهذا هو نحو من إرجاع البوحيات التي قصدها "سيرل Searle" إلى تقريرات.

ولكن ما لاحظناه عن العسكري حينما تكلّم عن هذين التصنيفين في الاتّصال الكتابي فإنّه لم يفرّق بينهما مباشرة؛ بل كان همّه أن يقف على التقنيات التي تتعلّق بذلك، لهذا لما أشار إلى الأمر والنهي والاعتذار والشكر وغير ذلك مما ينضوي ضمنهما بيّن أنّ كلَّ مجال تؤطّره تقنيات كتابية لها علاقة بالمرسل والمرسل إليه والمقصد، لذلك رأى أنّه حينما يكون المرسل هو السلطان في الأمر والنهي يجب أن يكون اتّصاله كالتوقيعة؛ أي أن يكون فعله الكلامي –بالمصطلح التداولي- يقتضي إفادة المخاطب بما يجعله ينجزه في الآن نفسه، وبالتالي تتحقّق المقصدية.

وهذا التفريق يتجلّى أكثر عند غيره من الدارسين أمثال القرافي (ت684هـ) الذي أعطى فروقا خاصة بين الخبر والإنشاء قائمة على أربعة أوجه:

-أنّ الإنشاء يسبِّب لمدلوله بخلاف الخبر.

-أنّ الإنشاءات يعيّنها مدلولها.

-أنّ الإنشاء لا يلزم الصدق أو الكذب بخلاف الخبر.

-أنّ الإنشاء لا يقع إلا منقولا عن أصل الوضع، بينما الخبر يكفي عنه الوضع الأول[1]. ومنه يتجلّى الفرق بين الجمل الخبرية والجمل الإنشائية، وما يقتضيانه في العملية التواصلية.

-موضوع الرسالة والمكتوب إليه:

ركّز العسكري على العلاقة بين موضوع الرسالة والمكتوب إليه، ورأى أنّه لابدّ من مراعاتها في كل اتّصال كتابي، فمن الضروري معرفة مقدار المكتوب إليه من الرؤساء والنظراء والغلمان والوكلاء[2]. قد نوضّح ذلك من خلال الاتّصال الذي ذكره بين التابع والمتبوع، يقول: «فأما ما يكتبه العمال إلى الأمراء ومن فوقهم، فإنّ سبيل ما كان واقعا منها في إنهاء الأخبار وتقرير صور، وما يلونه من الأعمال، ويجري على أيديهم من صنوف الأموال، أن يمدّ القول فيه حتى يبلغ غاية الشفاء والإقناع، وتمام الشرح والاستقصاء»[3].

وقد ربط أبو هلال هذه العلاقة مباشرة بالأثر الذي تحدثه الرسالة في قلب السامع، ودرجة تقبّله فيما يبديه من استحسان أو إساءة وغيرهما. وذكر أنّه من الضروري أن «يمدّ القول حسب ما يقتضيه آثار المكتوب إليه في الإحسان والإساءة والاجتهاد والتقصير، ليرتاح بذلك قلب المطيع، وينبسط أمله، ويرتاع قلب المسيء، ويأخذ نفسه بالارتداع»[4]. فالعسكري في التوضيحات التي ذكرها في الفصل المذكور انتقل من الفرضية إلى مقصديّة الكاتب، وأثر الفعل الكلامي في المكتوب إليه، بحسب ما يقتضيه كل تشكيل لغوي ودلالته، أو بحسب ما تحتويه فصائل الأفعال الكلامية. وقد قام "أوستين Austin" بتجميعها ضمن خمس فصائل كبرى وهي:

---

[1]- ينظر شهاب الدين القرافي، الفروق في أنواع الفروق، تحقيق خليل منصور، بيروت دار الكتب العلمية (د.ت) ص39.

[2]- ينظر العسكري، الصناعتين ص165.

[3]- المصدر نفسه، ص163.

[4]- المصدر نفسه، ص162.

1-الأفعال اللغوية الدالّة على الحكم (Verdictifs)، مثل "قدّر وحكم على"، وعبّر عنها العسكري لما تحدّث عن العلاقة بين الرؤساء ورعيّتهم، وعندما تطرّق إلى الرسائل الديوانية.

2-الأفعال اللغوية الدالة على الممارسة والتطبيق (Exercitifs)، نحو "عيّن ونصح وحذّر" وغيرها من الأفعال[1].

3-الأفعال اللغوية الدالة على "الوعد "، مثل "وعد، كفل، التزم".

4-الأفعال اللغوية الدالة على "السيرة "، نحو "شكر، هنّأ"، ووضعها هي ضبط سيرة وسلوك المتعلّمين الاجتماعي[2].

***-الكاتب والمكتوب إليه وموضوع الرسالة معا:**

ربط أبو هلال بين هذه العناصر الثلاث من أجل بيان طبيعة الاتّصال الكتابي في العملية الاتّصالية، قد نوضّح ذلك من هذه الخطاطة:

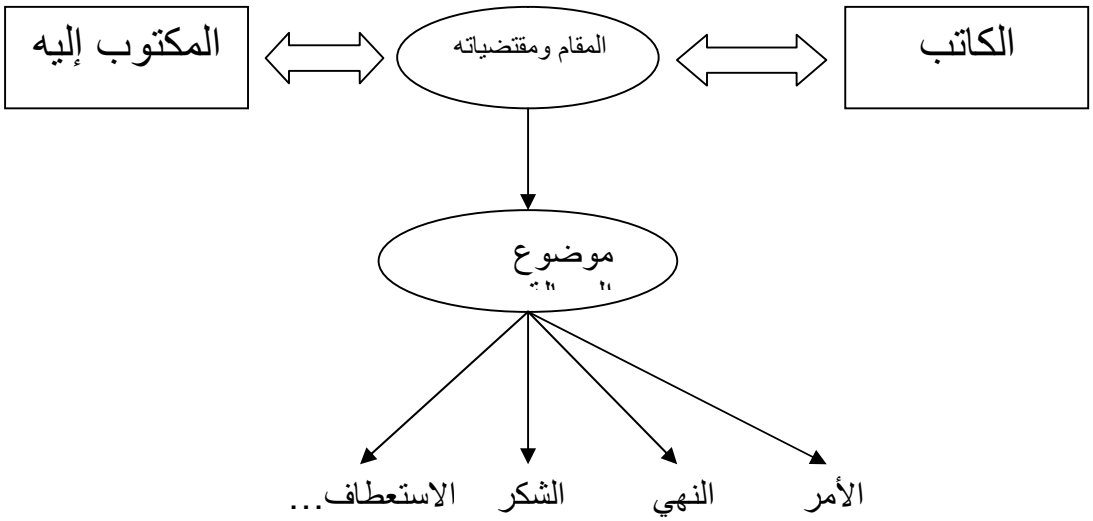

وأكّد العسكري على المقام، وما يحدثه من تغيير في موضوع الرسالة. وهذا الأمر من صميم اهتمامات التداولية، باعتبار أنّ المكوّن التداولي تدرج فيه

[1]- ينظر الدكتور أحمد عزوز، الأسس النظرية للسانيات التداولية وآلياتها الإجرائية على الخطاب التواصلي، ص12.

[2]- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري استراتجية التناص، المغرب المركز الثقافي العربي، ط1992/3، ص138.

العلاقات التي تربط الدوال بمستعمليها، وظروف استعمالاتها، وآثار ذلك على البنى اللغوية[1]. وفي هذا الصدد يقترح محمد مفتاح تحديدا إجرائيا للتداولية يتجلّى في التأثير المتبادل بين المرسل والمتلقّي في حال حضور أو غياب باستعمال الأدلة اللغوية مع مطابقة مقتضى المقام والمقال[2].

ولاحظ العسكري ضمن هذه العلاقة الثلاثية أنّ كلّ موضوع يقتضي كيفية معيّنة في الكتابة؛ فباب الشكر يختلف عن الاستعطاف أو الاعتذار أو غير ذلك، قد نوضّح ذلك بما ذكره في الشكر؛ إذ يقول: «وسبيل ما به في باب الشكر أن لا يقع فيه إسهاب، فإنّ إسهاب التابع في الشكر، إذا رجع إلى خصوصية، نوع من الإبرام والتثقيل. ولا يحسن منه أن يستعمل الإكثار من الثناء والدعاء أيضا فإنّ ذلك فعل الأباعد الذين لم تتقدّم لهم وسائل من الخدمة ومقدّمات في الحرمة، أو تكون صناعتهم التكسّب بتقريظ الملوك وإطراء السلاطين، فلا يُقبح إكثار الثناء من هؤلاء»[3]. فلكلِّ موضوع ضوابط تفرض نفسها على الكاتب في تشكيل كتابته.

ويمكن أن نوضّح التصوّر الذي ذكره العسكري لذلك بالمخطط الآتي:

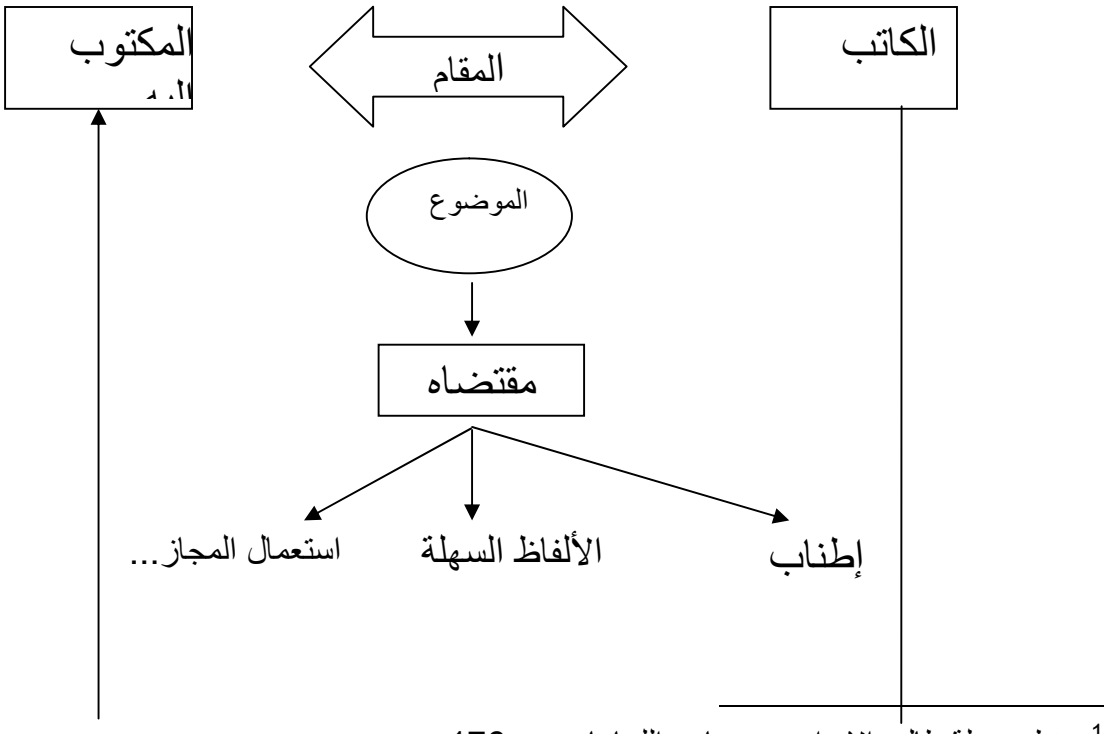

[1]- ينظر خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ اللسانيات، ص176.
[2]- ينظر محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري استراتجية التناص، ص138.
[3] الصناعتين، ص164.

الغرض تحقيق الإفهام (الإبلاغ)

ولكي يبيّن خصوصية العلاقة بين الكاتب والمكتوب إليه عرّج على التشكيل اللغوي الذي يربطهما، فذكر أنّه لابدّ للكاتب «أن يعرف مقدار المكتوب إليه من الرؤساء والنظراء والغلمان والوكلاء، فتفرّق بين من تكتب إليه بصفة الحال وذكر السلامة، وبين من تكتب إليه بتركها إجلالا وإعظاما، وبين من نكتب إليه أنا أفعل كذا، وبين من تكتب إليه نحن نفعل كذا»[1]. وهذا ما أشار إليه ابن قتيبة أيضا بقوله: «فليس يفرّقون بين من يُكتب إليه "فرأيك في كذا"، وبين من يُكتب إليه "فإن رأيت كذا، ورأيك"»[2]. فأبو هلال أراد من التوضيح السابق أن يفرّق - بالاعتماد على المقام- في الكتابات بين استعمال الضمير "أنا" والضمير "نحن"؛ فـ «"أنا" من كلام الأخوان والأشباه، و"نحن" من كلام الملوك»[3].

وليوضّح أكثر ما يحتاج إليه الكاتب في تأليف الرسائل والخطب يقول: «واعلم أنّ الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك فيها السجع، فإن جعلتها كان أحسن ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد»[4]. فممّا يراعيه المرسل في الرسائل والخطب الازدواج، أما السجع فمشروط بالسهولة في توظيفه وعدم التعقيد.

ثم انتقل إلى حروف الربط والصلات ، فأكّد على أهميّتها في النثر والشعر، ولكنّه دعا إلى تجنّب إعادتها في الموضع الواحد، فـ «إذا كتبت مثل قول القائل منه له عليه، أو عليه فيه، أو به له منه، وأخفها له عليه، فسبيله أن تداويه حتى تزيله بأن تفصل ما بين الحرفين، مثل أن تقول "أقمت به شهيدا عليه"»[5]؛ فكلمة

[1] العسكري الصناعتين، ص164- 165.
[2] أدب الكاتب، ص18.
[3] الصناعتين، ص165.
[4] المصدر نفسه ص165.
[5] المصدر نفسه، ص166.

"شهيدا" هي الفاصل بين الرابطين. ولذا فتوالي الصلات والرباطات في الكلام يعدّ عيبا يثقل الاتّصال، وهذا ما أكّده العسكري الذي قال: «ولا أعرف أحدا كان يتتبّع العيوب فيأتيها غير مكترث إلا المتنبِّي، فإنّه ضمّن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئا منها حتى تخطى إلى هذا النوع فقال:

ويسعدني في غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ سَبُوحٌ لَها مِنْهُ عَلَيْها شَوَاهِدُ

فأتى من الاستكراه بما لا يطار غرابه»[1].

3-الاتّصال الشفاهي عند أبي هلال العسكري:

يعتمد هذا الصنف على آلة النطق التي كرّم الله سبحانه وتعالى بها الإنسان، وقد دارت حوله دراسات كثيرة تبحث في أصواته وتكوينه وغير ذلك, ولاحظ الدارسون المحدثون أنّه يقوم على ثلاثة عناصر أساسية وهي: تفكير وكلام وسماع[2]. ويفترض في أساسه من المتكلّم والمتلقّي أن يكونا حاضرين؛ إذ يجري سرد الخطاب المراد تبليغه في الوقت نفسه[3]، (المتكلّم المستمع). لذلك فهو يعتمد على قواعد وأسس في ذات منظومته اللسانية نفسها، وهو يتميّز بذكاء آلي خلاّق خلافا للخطاب الكتابي الذي عليه التكلّف والخمول وإعادة النظر[4].

وقد تناول أبو هلال الاتّصال الشفاهي بالدرس والتحليل، بحكم أنّ «البلاغة العربية انتمت إلى ثقافة قديمة غلبت عليها الشفاهية، والنص الأدبي القديم من "الشعر والخطابة" هو في الأغلب الأعم نص منطوق»[5]. لذلك يتّصل هذا الصنف الصنف مباشرة بفنّين رئيسيين، وهما الشعر والخطابة، وللبحث فيهما قدّم الكثير

---

[1] العسكري، المصدر نفسه، ص166.
[2]- ينظر أحمد منير حجاب، مهارات الاتصال الإعلاميين والتربويين والدعاة، ص12.
[3]- ينظر عبد الجليل مرتاض، التحليل اللساني البنوي للخطاب، الجزائر دار الغرب للنشر والتوزيع، ط 2002، ص11.
[4]- ينظر جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص63.
[5]- العسكري، الصناعتين، ص139.

من الآراء التي جاءت مبثوثة في ثنايا كتابه، بالإضافة إلى ذلك خصّص فصلا خاصّا عنونه بـ "في كيفية نظم الكلام والقول في فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله في تأليفه"[1]. وما يجب الوقوف عليه هو طبيعة هذا الاتّصال والمكوّنات والخصائص التي تضبطه.

أ-بناء الاتّصال الشفاهي عند العسكري:

ذكر أبو هلال أنّ أهم شيء يتأسّس عليه الاتّصال ككل هو المعنى الذي يدور حوله التشكيل اللغوي، لذلك قال: «إذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك، وتنوَّق له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك، ليَقْرُبَ عليك تناوُلُها، ولا يتعبُك تطلُّبها، واعمله ما دمت في شباب نشاطك، فإذا غشيك الفتور، وتَخَوَّنَك الملالُ، فأمسك فإنّ الكثير من الملال قليل، والنفيسَ من الضجر خسيس، والخواطر كالينابيع يسقى منها شيء بعد شيء، فتجد حاجتك من الرّي، وتنال أرَبَك من المنفعة»[2]. فهذا القول يعكس الاستعداد الذي يجب أن يكون عليه المتكلّم لإنجاز الرسالة الإبلاغية؛ إذ لا بدّ أن يختار الوقت الذي يكون في نشاطه، حتى يتمكّن من البيان عن المراد انطلاقا من معنى معيّن، وبأبلغ الألفاظ وأجودها.

فمعرفة أخطار المعاني هي أساس بناء الاتّصال التي يتّبعها أي شاعر أو خطيب، فهي المادة التي ستحملها الرسالة الإعلامية. ولكن يجب أن تتجلّى من كرائم اللفظ وأشرفها وأقواها في التعبير عن المراد. والعسكري بذلك قدّم تصوّرا جديدا يتجاوز فيه ما كان سائدا عن سابقيه الذين ركّزوا على اللفظ دون المعنى، منهم الجاحظ مؤسس مدرسة البيان، و«هي التي تعطي للفظ وشرط درجته مكانة تجعل من الصناعة ضربا من البناء الهندسي الذي يقوم على تخيّر الألفاظ تخيّرا دقيقا»[3]. وقد ذكر ابن جني «أنّه لما كانت الألفاظ للمعاني أزمَّة، وعليها أدلّة،

---

[1]- ينظر المصدر نفسه، ص141.
[2]- الصناعتين، ص139.
[3]- حبيب مونسي، نظرية الكتابة في النقد العربي القديم، ص48.

وإليها موصِّلة، وعلى المراد منها محصِّلة، عنيت العرب بها فأولتها صدرا صالحا من تثقيفها وإصلاحها»[1]. فصحيح أنّ الألفاظ هي أساس التشكيل اللغوي، ولكنّ أهميتها لا تتّضح إلا بالمعاني التي تحملها.

فاللفظ هو أوّل ما يدرك عند سماعه صوتا، أو قراءته خطا، لكن لا قيمة له بدون معنى. ويجب أن نشير أيضا إلى أنّ الأفكار كذلك «بحاجة إلى تجسيم، وتجسيمها يتم عن طريق الألفاظ، فالفكر اتّصال، وكل اتّصال ينطوي على الاختلاط، فلكي يصبح الفكر متميّزا لا بدّ له أن يثار في كلمات»[2].

وذكر العسكري خصوصيات متنوّعة في اللفظ والمعنى، تتمحور حول الجودة والشرف وغيرهما من النعوت. وقد كان لها حضور في أقدم سجّل ذكره الجاحظ يتعلّق بصحيفة بشر بن المعتمر التي تضمّنت أفكارا قيّمة حول هذه القضية. فممّا جاء فيها «من أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإنّ حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقّهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما»[3]. ولهذا «لا خير في المعاني إذا استكرهت قهرا، والألفاظ إذا اجترت قسرا، ولا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه، ولا في غرابة المعنى إلا إذا شرف لفظه مع وضوح في المغزى، وظهور المقصد»[4]. فالبناء اللغوي لا يقوم على الجودة في اللفظ فحسب؛ بل لابدّ منها أيضا في المعاني.

فالعسكري أقرّ بشمولية البلاغة للفظ والمعنى، بعدما أن كانت تركّز على اللفظ فقط، فيصبح «شرط البلاغة في الكلام متحقّقا في وضوح المعنى، ووضوح اللفظ. وهذه النتيجة هي التي خوّلت للعسكري الانتقال إلى بحث اللفظ والمعنى

---

[1]- ابن جني، الخصائص تحقيق محمد على النجار، بيروت المكتبة العلمية (د.ت)، 312/1.
[2]- حبيب مونسي، نظرية الكتابة في النقد العربي القديم، ص48.
[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، 136/1.
[4]- العسكري، الصناعتين، ص66.

باعتبارهما عنصري البلاغة الرئيسي»[1]. ولذلك ربط تصوّره للبلاغة بهذين الأساسين.

وهذه الثنائية تقتضي أولا في اللفظ أن يكون شاملا لمعناه؛ إذ لابدّ «أن يكون الاسم يحيط بمعناك، فالاسم ههنا اللفظ، أي يحصر اللفظ جميع المعنى ويشتمل عليه. فلا يشذّ منه شيء يحتاج أن يعرّف بشرح أو تفسير، فإذا سمعت اللفظ عرفت أقصى المعنى. وهذا مثل قول الآخر: البليغ من طبّق المفصّل فأغناك عن المفسّر»[2].

كما تقتضي ثانيا في المعنى أن يكون مطابقا للفظ الذي يُطلق عليه، ورد في الصناعتين «واعلم أنّ حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا، وتلك الحال له وفقا، ولا يكون الاسم فاضلا ولا مقصّرا، ولا مشتركا، ولا مضمّنا، ويكون تصفحه لمصادر كلامه بقدر تصفّحه لمصادر كلامه، وبقدر تصفّحه لموارده، ويكون لفظه مونقا، ومعناه نيّرا واضحا»[3]. فلضمان الاتّصال الناجح والفعّال لا بدّ من موافقة الألفاظ للمعاني المتداولة بينهما، لذلك لم يُجوِّز للمتكلّم «أن يريد الإبانة عن معنى فيأتي بألفاظ لا تدلّ عليه خاصة؛ بل تشترك معه فيها معانٍ أخرى، فلا يعرف السامع أيّهما أراد، وربّما استبهم الكلام في نوع من هذا الجنس حتى لا يوقف على معناه إلا بالتوهّم. فمن الجنس الأول قول جرير:

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِكم يَوْمُ الرَّحيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَل

فوجه الاشتراك في هذا أنّ السامع لا يدري إلى أي شيء أشار من أفعاله في قوله "فعلت ما لم أفعل"»[4]. فالكلام مؤسّس على الإعلام والإفهام، لذا فهو يقتضي بناء التراكيب اللغوية التي تسهم في تحقيق هذه الوظيفة؛ إذ يمكن الآن للمتلقّي أن

---

[1]- الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، دمشق اتحاد الكتاب العرب، ط2001/1، ص98.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص48.
[3]- العسكري، ص26.
[4]- العسكري، الصناعتين، ص38-39.

يتوهّم دلالات متنوّعة من الجملة الشاهد، فهي تفيد أنّ المتكلّم بعدما أن فارق أحبِّته قد يتبعهم أو يمنعهم من الرحيل أو يوصيهم بشيء، أو غير ذلك مما يمكن للعاشق أن يقوم به. فالمرسل لم يبن عن غرضه، وأحوج السامع إلى أن يسأله عما أراد فعله عند رحيلهم[1].

ويذكر أبو هلال أنّ الاتّصال الناجح ما كان موافقا للعرف في الاستعمال اللغوي، والذي يسهم في رسم المعقولية في الكلام. فـ «من عيوب المعنى مخالفة العرف، وذِكر ما ليس في العادة، كقول المرار:

وَخَالٍ عَلى خَدَّيْكِ يَبْدو كَأنّه سَنَا البَدْرِ في دَعْجَاءَ بَادٍ دُجُونُهَا

والمعروف أنّ الخيلان سود أو سمر، والخدود الحسان إنّما هي البيض، فأتى هذا الشاعر بقلب المعنى»[2]. فصناعة الكلام تُلزم المنشئ المخاطبة بما هو متّفق عليه في العرف لدى الجماعة اللغوية المعيّنة؛ حتى يتمكّن المتلقّي من الوقوف على المقصد الذي يريده الباث. ومنه نلاحظ أنّ اللاعقلي عديم الفائدة، وهي أحد شروط التداولية[3].

ويطابق هذا الطرح في بيان وظيفة الكلام «المفهوم الخاص بنظرية الفعل الكلامي للفعل الإنجازي؛ إذ تربط فيه الجانب المقصدي بالجانب العرفي لأفعال لغوية بعضها ببعض على نحو مماثل»[4].

وإذا كان الاتّصال الشفاهي ينطلق من المعنى المعبّر عنه فإنّه يتجلّى عبر المرسل، ويشترط فيه طلاقة اللسان، والبعد عن الحيرة والدهش، فهما «يورثان الحبسة والحصر، وهما سبب الإرتاج والأجبال. وقد بلغك ما أصاب عثمان بن

---

[1]- ينظر العسكري، المصدر نفسه، ص39.
[2]- المصدر نفسه، ص102.
[3]- اللغة ودلالتها تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، محمد سويرتي، مجلة عالم الفكر، المجلد 28، العدد الثالث، يناير/مارس 2000، ص39.
[4]- كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمة سعيد حسن بحيرى، القاهرة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط2005/1، ص122.

عفان رضي الله عنه أول ما صعد المنبر فارتج عليه، فقال عليه، فقال إنّ الذين كانا قبلي، كان يعدان لهذا المقام مقالا، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام قائل، وستأتيكم الخطبة على وجهها، ثم نزل»[1]. فإذا استغلق على المتكلّم الكلام حصل التقصير وعدم الإحاطة بكل ما يريد إبلاغه.

ولكن تقديم المعاني في الاتّصال اللغوي يقتضي الموافقة للمقام الذي تصاغ فيه، يقول العسكري: «ينبغي أن تعرف أقدار المعاني، فتوازن بينها وبين أقدار الحالات، فتجعل لكل طبقة كلاما، ولكل حال مقاما، حتى تقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات»[2].

كما ذكر أبو هلال أنّه لا يبنى الاتّصال إلا من أجل أن يجلي عن المغزى «أي يوضّح مقصدك، ويبين للسامع عن مرادك، ينهي عن التعمية والإغلاق»[3]. فمن عوامل نجاح الإبلاغ إيراد التشكيل اللغوي الذي يعبّر عن مراد المتكلّم من جهة، ويدركه المتلقّي من جهة أخرى، ومنه تتحقّق فعّالية العملية الاتّصالية.

ب-نظم الشعر وخصائصه عند العسكري:

قبل أن يوضّح صاحب الصناعتين كيفية نظم الشعر، والكشف عن خصائصه، عَقَد موازنة بين أشكال الاتّصال المكتوب (الرسائل)، والشفاهي (الشعر والخطب)، فذكر «أنّ الرسائل والخطب متشاكلتان في أنّهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتّاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب، مثل فواصل الرسائل، ولا فرق بينهما إلا أنّ الخطبة يشافه بها، والرسالة يكتب بها، والرسالة تُجعل خطبة، والخطبة تُجعل رسالة، في أيسر كلفة ولا يتهيّأ مثل ذلك

[1]- العسكري، الصناعتين، ص27.
[2]- المصدر نفسه، ص141.
[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص49.

في الشعر»[1]. فعلى الرغم من أوجه التشابه المتنوّعة بين أشكال الاتّصالين إلا أنّ هناك نقاط اختلاف بينهما.

فمن حيث البناء العام نلاحظ «أنّ العلامة اللغوية المستخدمة فيما بين الاتّصالين تختلف، فهي في الاتّصال الشفاهي (الصوت)، بينما هي في الاتّصال الكتابي (الخط)، وثمة فروق جوهرية بين هاتين العلامتين»[2]. فجوهر الخلاف يعود للمكتوب غير المقيّد بالزمن، والمنطوق المرتبط به؛ إذ «تتّصف العلامة الصوتية بالتتابع الزمني، بينما العلامة الخطيّة تتّصف بالتتابع المكاني، والتتابع الصوتي غير قابل للإرجاع والاستدبار»[3]. وهذا التفريق كان من أولويات الدراسات الاتّصالية الحديثة، واتّضح من:

1-الإرسال (الكتابة) الكاتب حاضر/قارئ غائب.

2-الاستقبال (القراءة) الكاتب غائب/القارئ حاضر[4].

ويمكن أن نوضّح التقارب والفرق بين الاتّصال الكتابي (الرسائل) والاتّصال الشفاهي (الخطب والشعر) من المخطط التالي:

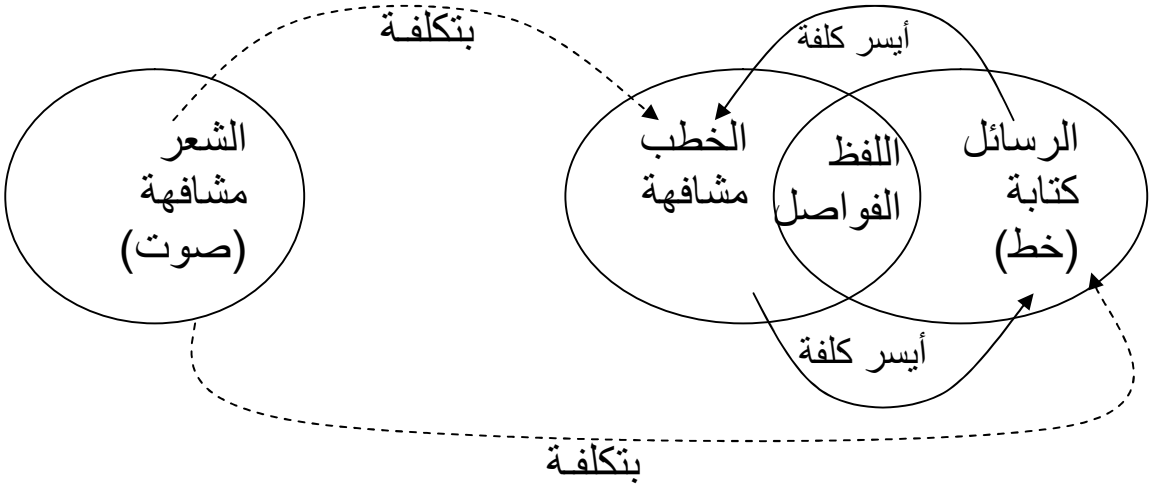

[1]- العسكري، الصناعتين، ص143.
[2]- جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص63.
[3]- جميل عبد المجيد، المرجع نفسه، ص63.
[4]- حسن البنا والترج أونج، الشفاهية والكتابة، الكويت عالم المعرفة، العدد 182، 1994 ص90.

-ماهية الشعر لدى العسكري:

لم يبتعد أبو هلال في بيان ماهية الشعر عما كان مألوفا، واعتبره كغيره صناعة من الصناعات، له خصائصه التي تميّزه، يقول: «إذا أردت أن تعمل شعرا فاحضر المعاني التي تريد نظمها فكرك، وأخطرها على قلبك، واطلب لها وزنا يتأتّى فيه إيرادها وقافية يحتملها. فمن المعاني ما تتمكن من نظمه في قافية ولا تتمكّن منه أخرى، أو تكون في هذه أقرب طريقا وأيسر كلفة منه في تلك... فإذا عملت القصيدة فهذّبها ونقّحها بإلقاء ما غثّ من أبياتها ورثّ وذلّ، والاقتصار على ما حسن وفخّم»[1]. فما يحيل عليه هذا التوضيح هو ارتباط الشعر بالمعاني التي تكوّن الرسالة الإعلامية، في نظم معيّن، مبني على وزن وقافية تجعله يتميّز عن المنثور.

وهذه الأفكار كانت حاضرة عند الدارسين القدامى؛ إذ ذكر ابن طباطبا في تعريف الشعر بأنّه «كلام منظوم بائن عن المنثور، الذي يستعمله الناس في مخاطبتهم بما يخص به من نظم»[2]. فالشعر صنف من أصناف الكلام المتداول بين الناس، وهو مرتبط بخاصيتين أساسيتين:

---

[1]- الصناعتين، ص145.

[2]- عيار الشعر، دراسة وتحقيق محمد زغلول، مصر منشأة المعارف، ط3، ص41.

أولهما: أنّه "كلام منظوم"، ومعرفة النظم ليست شرطا إلا لمن لم يصح ذوقه وطبعه[1]. فـ «من صحّ طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض الذي من ميزاته»[2]. كما أنّه لم يعد من الشعر ما توافر فيه الوزن دون وجود الخصائص الشعرية الأخرى؛ يقول ابن طباطبا: «والشعر هو ما إن عري من معنى البديع لم يعر من حسن الديباجة، وما خالف هذا فليس بشعر»[3].

ثانيهما أنّه "بائن عن المنثور"؛ أي أنّه فرّق بين الكلام النثري والكلام الشعري، وهو بهذا يتّفق مع الكثير ممن وضع النثر الكامل في طرف، والشعر الكامل في الطرف الأخر، وبين القطبين تتقاسم الأنماط اللغوية الأخرى حظوظها من الشعرية[4].

أما قدامة بن جعفر فبعدما أن ربط الشعر بالوزن والقافية قال: «ولما كان الشعر صناعة، وكان الغرض في كل صناعة إجراء ما يصح ويعمل بها على غاية التجويد والكلام؛ إذ كان جميع ما يؤلّف ويوضع على سبيل الصناعات والمهن، فله طرفان أحدهما غاية الجودة، وآخر غاية الرداءة، والحدود بينهما تسمّى الوسائط»[5]. فقدامة يبحث من هذا التوضيح في المسافة بين الشعر الجيّد والرديء وما يُتداول بينهما.

فمما سبق نلاحظ تركيز العلماء على ربط الشعر بالصنعة التي تختلف عن بقية الصناعات؛ فهو يتميّز عنها في كيفية البناء كما وضّحنا، وفي الموضوعات أيضا؛ إذ ذكر العسكري أنّه «مما يعرف أيضا من الخطابة والكتابة أنّهما مختصّتان بأمر الدين والسلطان، وعليهما مدار الدّار، وليس للشّعر بهما

---

[1]- طراد الكبيسي، في الشعرية العربية قراءة جديدة في نظرية قديمة، دمشق اتحاد الكتاب العرب، 2004، ص20.
[2]- ابن طباطبا، عيار الشعر، ص41.
[3]- عيار الشعر، ص25.
[4]- طراد الكبيسي، في الشعرية العربية قراءة جديدة في نظرية قديمة، ص20.
[5]- نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مصر مكتبة الخانجي، 1963 ص16.

اختصاص. أمّا الكتابة فعليها مدار السلطان. والخطابة لها الحظّ الأوفر من أمر الدّين، لأنّ الخطبة شطر الصلاة التي هي عماد الدّين، في الأعياد والجمعات والجماعات، وتشتمل على ذكر المواعظ التي يجب أن يتعهّد بها الإمام رعيّته... ولا يقع الشّعر في شيء من هذه الأشياء موقعا»[1]. فالشّعر تتّسع موضوعاته، فتتجاوز تلك التي تعالجها الخطبة والرسالة وبالخصوص الأمور الدينية، لذلك كانت له «مواضع لا ينجح فيها غيره من الخطب والرسائل وغيرها، وإن كان أكثره قد بُني على الكذب والاستحالة»[2]. فأبو هلال لاحظ أنّ الشعر ليس له موضوعات خاصة به كما هو الحال في الخطبة والرسالة ذوائَيْ العلاقة بالدين من جهة, والاعتماد على الصدق والإمكان من جهة أخرى، وهذا ما لا يقع في الشعر. ولذلك كانت كتابة الشعر «كتابة إبداعية مميّزة، وبخاصة عند العرب الذين استبهروا بهذا الفن، وإنّ علماء النقد حدّدوا لكتابة الشعر قواعد علميّة وقوانين فنيّة، استنبطوها من داخله»[3].

فتنوّع موضوعات الشعر، وإبداعيته التي تتجلّى من خلال كتابته الفنية الراقية جعلا العسكري يعطي أهمية كبيرة لذلك، فهو النموذج الذي ينبغي احتذاؤه لبلوغ مرامي البلاغة. وحاجة كلّ متأدّب إليه ضرورية، ومعرفته مطلوبة، فهو «ديوان العرب، وخزانة حكمتها، ومستنبط آدابهم، ومستودع علومها»[4].

وإذا كان الشعر يتأسّس أولا على المعنى، فإنّه يرتبط ثانيا بالصوت الذي تلذّ له القرائح وتنجذب له النفوس، يقول أبو هلال: «ومما يفضّل به الشعر أنّ الألحان -التي هي أهنا اللّذات- إذا سمعها ذوو القرائح الصافية، والأنفس اللطيفة، لا تتهيّأ صنعتها إلا على كل منظوم من الشعر؛

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص142.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص142.
[3]- عبد المجيد جيدة، صناعة الكتابة عند العرب، ص139.
[4]- العسكري، الصناعتين، ص144.

فهو لها بمنزلة المادّة القابلة لصورها الشريفة»[1]. فارتباط الشعر بالمقاطع الصوتية المنتظمة في قافية مضبوطة هو الذي جعل هذا الصنف من الكلام أوقع أثرا وأبقى ذكرا. وهذا ما ركّز عليه "جاكبسون Jakobson"؛ حيث «اعتبر القصيدة ليست شكلا كلاما عاديا الذي من شأنه أن يندثر فور النطق به، وإنّما شيء يبقى ويدوم، ويبقى رغم تعاقب الأزمان»[2].

وقد لاحظ صاحب الصناعتين أنّ للشعر فضائل وميزات متنوِّعة، فـ «من مراتبه العالية التي لا يلحقه فيها شيء من الكلام هو النظم الذي به زنة الألفاظ، وتمام حسنها؛ وليس شيء من أصناف المنظومات يبلغ في قوة اللفظ منزلة الشعر»[3]. فاتّصاف هذا الصنف من الاتّصال بالنظم المبني على الوزن والدقّة في اختيار الألفاظ وتأليفها وترتيبها جعل الشعر في أعلى المراتب، فكان بذلك من أهمها في التأثير على المتلقّين. وهذا الأمر راجع إلى اللغة التي تمارس سلطتها علينا، فتجعلنا أكثر تدبّرا للمعاني التي يحملها الشعر. ولذلك اعتبره "جاكبسون Jakobson" «يقوي إحساسنا باللغة، ويزيد من حدسنا وتفهّمنا لما هو معنى، وما هو صوت»[4].

وهذه المعطيات هي التي جعلت للشعر فضائل أخرى، منها طول بقائه على أفواه الرواة، وامتداد الزمان به، وذلك لارتباط أجزائه بعضها ببعض. وهذه الخاصية له في كلّ أمة، وطول مدّة الشيء من أشرف فضائله[5].

ومنها كثرة تداوله بين الناس؛ شأنه شأن الأمثال، يقول العسكري: «ومما يفضل به غيره من الكلام استفاضته في الناس وبُعد سَيْره في الآفاق؛ وليس شيء أسْيَر من الشعر الجيّد، وهو في ذلك نظير الأمثال. وقد قيل لا شيء أسبق في

---

[1]- المصدر نفسه، ص144.
[2]- فاطمة طبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص77.
[3]- العسكري، ص143.
[4]- فاطمة طبال، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون دراسة ونصوص، ص76،
[5]- ينظر العسكري، الصناعتين، ص143.

الأسماع، وأوقع في القلوب، وأبقى على الليالي والأيام من مثل سائر، وشعر نادر»[1].

ولعلّ أهم ميزة يتّصف بها هذا الصنف من الاتّصال، فتجعله يفوق فَنَيْ الرسالة والخطبة، قوّة التأثير ولفت انتباه المتلقّي، فـ «ليس يؤثّر في الأعراض والأنساب تأثير الشعر في الحمد والذم شيء من الكلام؛ فكم من شريف وُضع، وخامل دني رُفع، وهذه فضيلة غير معروفة في الرسائل والخطب»[2].

وهذه الميزة تتجلّى أكثر في المحافل الجامعة، حيث يقتضي أي اتّصال شفاهي ضمن هذا المقام توظيف الرسالة اللغوية التي تجذب إليها النفوس، وتلفت العقول، ولا يؤدّيها إلا الشعر. يقول أبو هلال: «ومما يفضلهما به أيضا أنّه ليس شيء يقوم مقامَه في المجالس الحافلة، والمشاهد الجامعة، إذا قام به مُنشدٌ على رؤوس الأشهاد، ولا يفوز أحد من مؤلّفي الكلام بما يفوز به صاحبه من العطايا الجزيلة، والعوارف السنيّة، ولا يهتزّ مَلِكٌ، ولا رئيس لشيء من الكلام كما يهتزّ له، ويرتاح لاستماعه؛ وهذه فضيلة أخرى لا يلحقه فيها شيء من الكلام»[3].

-مكوّنات الشعر لدى العسكري:

يعدّ بناء الشعر وتشكيله من أهم القضايا التي عالجها أبو هلال، فقد كان وراء صياغة تصوّره البلاغي الذي حاول التنظير له تحت لواء البلاغة؛ أو "بلاغة الرسالة" مهما كان جنسها أو شكلها. وقد ذكر الباحثون أنّ الشعر ارتبط منذ القدم حتّى العسكري وبعده بـ «ضرب المثل وانتزاع تقفية، وتوشيه لفظ، ومدح مأمول، وترقيق غزل، وهجو مسيء»[4]. فهذا الفن لا يُبنى إلاّ على من موضوع معيّن، في أبيات مضبوطة، ولغرض محدّد.

---

[1]- المصدر نفسه، ص143.
[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص143
[3]- العسكري، الصناعتين، ص143.
[4]- محمد مشبال، البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، مجلة عالم الفكر، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مج30، عدد1، سبتمبر 2001، ص76.

ولكي نبيّن طريقة بناء هذا الجنس من الاتّصال كما طرحه العسكري نذكر الأسس التالية:

أ-اللفظ والمعنى:

شكّلت هذه الثنائية محور الإبداع الأدبي, ومدار البلاغة في نظر العسكري، وأهم شيء ركّز عليه هو العلاقة الاستلزامية بين اللفظ والمعنى، فـ «الألفاظ أجساد والمعاني أرواح؛ وإنّما تراها بعيون القلوب، فإذا قدّمت منها مؤخّرا، أو أخّرت منها مقدّما أفسدت الصورة وغيّرت المعنى... واعلم أنّ الذي ينبغي في صيغة الكلام وضع كلّ شيء منه في موضعه ليخرج بذلك من سوء النظم»[1]. فلا يستوي النظم في أساسه إلا بالأخذ بعين الاعتبار الدلالة الموضوعة بين اللفظة ودلالتها من جهة، ثم استعمالها في مكانها المنوط بها وفق ما تنظّمه العلاقات التي يقتضيها النظام اللغوي من جهة أخرى.

والألفاظ ترتّب أثناء النطق وفق ترتيب المعاني في الذهن، ولكن اختيارهما يبقى مرتبطا بخصائص تضمن لهما القبولية وعدم الفساد؛ فـ «من أراع معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإنّ حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقّهما أن يصونهما عمّا يفسدهما ويهجنهما»[2]. وقد ركّز العسكري على ذلك، مشيرا إلى أن تكون متلائمة بعضها مع بعض في مواقعها المضبوطة، وفق ما هو متداول في المجتمع المعيّن، فـ «إن كانت هذه لا تواتيك، ولا تَسْنَح لك عند أوّل خاطر، وتجد اللفظة لم تقع موقعها، ولم تصل إلى مركزها، ولم تتّصل بسلكها، وكانت قلقة في موضعها، نافرة عن مكانها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها»[3].

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص167-168.
[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، 136/1.
[3]- العسكري، الصناعتين، ص140-141.

والتلاؤم يبدأ من حسن توالي أصوات الكلمة، ثم الدقّة في تأليف الألفاظ في التراكيب؛ إذ «ينبغي أن تجعل كلامك مشتبها أوّله بآخره، ومطابقا هاديه لعجزه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطراره. وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها، ومقرونة بلِفقها، فإنّ تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام... ومثال ذلك من الكلام المتلائم الأجزاء، غير المتنافر الأطرار، قول أخت عمرو ذي الكلب:

فَأُقْسِمُ يَا عَمْرو لَوْ نَبَّهَاك إذاً نَبَّهَا مِنْكَ دَاءً عُضَـالا

إذاً نَبَّهَا ليْث عَرِّيسَةٍ مُفيتاً مُفيداً نُفوساً وَمـالا

وَخَرْقٍ تَجَاوَزَت مَجْهُولَه بوَجْنَاءَ حَرْفٍ تَشَكَّى الكلالا

فَكُنْتَ النَّهارَ بهِ شَمْسُهُ وَكُنْتَ دُجَى اللَّيْلِ فيه الهلالا

فجعلته الشمس بالنهار، والهلال بالليل، وقالت: مفيتا مفيدا، ثم فسّرت فقالت نفوسا ومالا»[1].

ويبقى التلاؤم مرتبطا كذلك بحسن ترتيب الألفاظ؛ إذ «ينبغي أن ترتّب الألفاظ ترتيبا صحيحا؛ فتقدّم منها ما كان يحسن تقديمه، وتؤخّر منها ما يحسن تأخيرُه، ولا تقدّم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا تؤخّر منها ما يكون التقديم به أليَق. فمما أُفْسِد ترتيبُ ألفاظِه قول بعضهم:

يَضْحَكُ مِنْهَا كُلُّ عُضْوٍ لـها مِنْ بَهْجَةِ العَيْشِ وحُسن القِوامْ

تَرْفُلُ فِي الدَّارِ لـها وَفْـرَةً كَوَفْرَةِ المَلْطِ الـخَليع الغُـلامْ

كان ينبغي أن يقول "كوفرة الغلام المِلط الخليع"، أو "الغلام الخليع الملط". فأما تقديم الصفة على الموصوف فرديء في صنعة الكلام جدّا. وقوله أيضا "بهجة العيش وحسن القوام" متنافر غير مقبول»[2].

[1]- العسكري، المصدر نفسه، ص147-148.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص157-158.

والحسن والقبولية يضبطهما الاستعمال المألوف لدى العرب، بحسب ما يقتضيه الإبلاغ، ولذلك دعا أبو هلال إلى «أن تتجنّب إذا مدحت أو عاتبت المعاني التي يُتطيّر منها، ويستشنع سماعها، مثل قول أبي نواس:

سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيا إذَا مَا فُقِدْتُمْ بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائحين وغَادِي

وإذا أردت أن تأتي بهذا المعنى فسبيلك أن تسلك سبيل أشجع السلمي:

لَقَدْ أَمْسَى صَلاحُ أبـي علي لأَهْلِ الأَرْضِ كُلِّهِمْ صَلاحـا

إذَا مَا المَوْتُ أخطأهُ فَلَسْنَا نُبَالي الموتَ حَيثُ غَدا ورَاحـا

فذكر إخطاء الموت إياه، وتجاوزه إلى غيره، فجاد المعنى، وحسن المستمع»[1]. فالتداول المألوف يضبط كيفية تقديم علاقات الألفاظ في بناء الشعر، باعتبار أنّ صاحب البلاغة محتاج إلى التصوير، ولكن لا بدّ من إصابة المعنى، ولذلك قال الجاحظ: «إنّما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير»[2]. لتتجلّى بذلك قدرة الشاعر من درجة إتقان هذه الصنعة[3].

فصنعة الشعر ليست مستمدّة من علاقات الألفاظ بعضها ببعض فقط؛ وإنّما تستمد مشروعيتها أيضا من الاستعمال المألوف في البيئة اللغوية المضبوطة.

ب-الوزن والقافية: يعد الوزن والقافية أساس الشعر، لذلك هناك من عرّفه بالتركيز عليهما فقط، فقال إنّه كلام موزون مقفى. وذكر أبو هلال أنّه بعد اختيار الألفاظ التي يقتضيها المعنى المقصود، لا بدّ من أن يُطلب لها الوزن والقافية[4].

وبيّن ابن رشيق القيرواني (ت456هـ) أنّ الوزن «هو أعظم أركان حدّ الشعر، وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية، وجالب لها ضرورة»[5]. ويعني أيضا أن تكون المقادير المقفاة تتساوى في أزمنته، لاتّفاقها في عدد

---

[1]- المصدر نفسه، ص152-153.
[2]- الحيوان، ج1ص131.
[3]- ينظر عبد الحميد جيدة، الكتابة عند العرب، ص144.
[4]- ينظر الصناعتين، ص145.
[5]- العمدة صناعة الشعر ونقده، تحقيق مفيد قميحة، بيروت دار الكتب العلمية، ط1983/1، ج1ص99.

الحركات والسكنات والترتيب[1]. و «المساواة في الزمن تعني وجود تناسب بين أجزاء الكلام, ليس كمّا وحسب؛ بل صوتا, بحيث إذا ما حذف من بعضها بعض... جرى تعويض ذلك وتلافيه بتمكين الحركات والسكنات التي تكتنف ما فات من زمان النطق به بحيث يعتدل المقداران بذلك فيكونان متوازيين»[2].

فاختيار الوزن في القصيدة المعيّنة لا يكون اعتباطا، وإنّما تمليه المناسبة التي يقتضيها الموضوع، لذا فهو متوقّف على «معرفة التناسب في المسموعات والمفهومات... وهي لا يتوصّل إليها بشيء من علوم اللسان إلا بالعلم الكلّي في ذلك, وهو علم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب والوضع»[3]. وهذه القضية ركّز عليها العسكري حيث ذكر أنّ من المعاني ما تتمكّن من نظمه في قافية, ولا تتمكّن منه في أخرى، أو تكون في هذه أقرب طريقا، وأيسر كلفة منه في تلك[4]. ولكي يبيّن أهمية ذلك أورد مقطوعة للنابغة يقول فيها:

واحْكُم كَمَا حَكَمتْ فَتَاةُ الحيِّ إذْا نظرت ... إلى حَمَامٍ سِراع واردى الثَّمَدِ

يـحفّهُ جَـانبا نـيْقٍ وَتتْبَعُه ... مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد

قـالَتْ ألاَ لَيْتَـما هَذَا الحمام لـنا ... إلـى حَمامَتِنا أو نصفه فـقدِ

فكمّلتْ مـايةً فيها حـمَامَتها ... وَأسْرَعتْ حسْبَةً في ذلك العددِ

فحسبُوهُ فألْفوه كما حَسَبَتْ ... تِسْعاً وتسعين لم تنقصْ ولم تَزِدِ

ثم قال: «فهذا أجود ما يذكر في هذا الباب، وأصعب ما رامه شاعر منه؛ لأنّه عمد إلى حساب دقيق، فأورده مشروحا ملخّصا، وحكاه حكاية صادقة. ولما

---

[1]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، بيروت دار الغرب الإسلامي، ط3/1986، ص263.

[2]- حازم القرطاجني, المصدر نفسه, ص263.

[3]- حازم القرطاجني، المصدر نفسه، ص226.

[4]- ينظر الصناعتين، ص153.

احتاج إلى أن يذكر العدد والزيادة والتَّمد بنَى كلامه على قافية فاصلة الدال، فسَهُل عليه طريقه، واطّرد سبيله»[1].

ومنه نلاحظ أنّ مبدأ التناسب يبقى من مرتكزات الصناعة الشعرية، وقد ارتبط بشكل عام بالإيقاع ذي الصلة بالخيال الذي يمكّن الشاعر من الدقّة في التصوير، ومنه تتجلّى قدرته في التأثير على المتلقّي. يقول ابن سينا: «لا يتم الشعر إلا بمقدّمات مخيّلة، ووزن ذي إيقاع متناسب، يكون أسرع تأثير في النفوس»[2]. والعسكري ركّز على فكرة التفاعل بين المعاني والوزن، وهذه هي حقيقة الشعر، باعتبار أنّ «فاعليّة التخييل في الشعر قائمة على نوع من التناسب بين المسموعات والمفهومات, كما يصبح لهذه الفاعلية القدرة على تشكيل البنية الإيقاعية في نفس الوقت الذي تشكّل فيه البنية الدلالية والتركيبية»[3].

أما القافية فهي «شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، ولا يسمّى شعرا حتى يكون له وزن وقافية»[4]. وذكر أبو هلال أنّ اعتمادها يخضع لما يقتضيه المراد، و«مثل ذلك ما أتاه البحتري في القصيدة التي أوّلها:

هَاجَ الخَيَالُ لَنا ذِكْرَى إذا طَافا وَافى يُخَادِعُنَا وَالصُّبْحُ قدْ وَافى

وكان قد احتاج إلى ذكر الآلاف والإسعاف والأضعاف والإسراف، وترك الاقتصار على الأنصاف، فجعل القصيدة فائية، فاستوى له مراده، وقرب له مرامه، وهو قوله:

قضَيْتَ عَنِّي ابن بسْطَامٍ صَنِيعَتَهُ عندي وَضَاعَفْتَ مَا أوْلاَهُ أضْعَافا

وَكَانَ مَعْروفُهُ قصْداً إلَـيَّ ومَا جَازَيْتَهُ عَنْهُ تَبْذيراً وَإسْـرَافا

---

[1]- الصناعتين، ص154.

[2]- إبراهيم رماني، الشعر الغموض الحداثة –دراسة في المفهوم- مجلة فصول، مجلّد 7، عدد 3-4، سبتمبر 1987 ،ص84.

[3]- مفهوم الشعر عند ابن عصفور، دراسة في التراث النقدي، القاهرة دار الثقافة للطباعة والنشر، 1987، ص158.

[4]- ابن رشيق، العمدة، ج1ص110.

مِئونَ عَيْناً تَوَلَّيْتَ الثّوَابَ بها حَتَّى انْثَنَتْ لأبي الـعَبَّاسِ آلافا

قد كَانَ يكْفيه مِمَّا قدَّمَتْ يَدهُ وَمَا يَزيدُ على الآحادِ أنْـصَافا»[1].

ولكن القافية تضبطها ضوابط، لذا «ينبغي أن تتحامى العيوب التي تعتري القوافي مثل السناد والإقواء والإيطاء، وهو أسهلها والتوجيه»[2]. لذلك كان أعذب الشعر ما توافقت قافيته مع الموضوع من جهة أولى، وما خلت من العيوب المعروفة من جهة ثانية.

ج-التهذيب والتنقيح:

لا تتوقّف حدود صناعة الشعر عند اختيار الألفاظ والمعاني والوزن والقافية؛ بل يقتضي كل ذلك التهذيب والتنقيح، يقول أبو هلال: «فإذا عملت القصيدة فهذّبها ونقّحها، بإلقاء ما غثّ من أبياتها، ورثّ ورَدُل، والاقتصار على ما حسن وفخّم بإبدال حرف منها بآخر أجود منه حتى تستوي أجزاؤها، وتتضارع هواديها وأعجازها. فقد أنشدنا أبو أحمد رحمه الله قال أنشدنا أبو بكر بن دريد:

طَرَقتْك عزَّةُ من مزارٍ نـازحٍ ياحُسنَ زائرةٍ وبُعْدَ مـزار

ثم قال أبو بكر لو قال "يا قرب زائرة وبعد مزار" لكان أجود، وكذلك هو لتضمّنه الطباق»[3].

والتهذيب والتنقيح يكونان بإبدال اللفظ بغيره، أو بإعادة ترتيبه، أو بالدقّة في صياغته. و«قد كان هذا دأب جماعة من حذّاق الشعراء من المحدثين والقدماء، منهم زهير؛ كان يعمل القصيدة في ستة أشهر، ويهذّبها في ستة أشهر ثم يظهرها، فتسمّى قصائده الحوليات لذلك. وقال بعضهم خير الشعر الحولي المنقّح... وكان أبو نواس يعمل القصيدة ويتركها ليلةً، ثم ينظر فيها فيلقي أكثرها، ويقتصر على

[1]- العسكري، الصناعتين، ص154.
[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص145.
[3]- المصدر نفسه، ص145.

العيون منها، فلهذا قَصُر أكثرُ قصائدِه. وكان البحتري يلقي من كل قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به، فخرج شعرُه مهذّبا. وكان أبو تمام لا يفعل هذا الفعل، وكان يرضى بأول خاطر، فنُعَى عليه عيب كثير»[1]. فالشعراء كانوا قبل إلقاء الشعر يهذّبونه وينقّحونه مخافة الوقوع في الخطأ، أو العيوب المختلفة، وكل ذلك يضمن الاتّصال الجيّد والفعّال.

ج-الخطابة لدى العسكري:

الخطابة جنس من الأجناس الأدبية التي شاع استعمالها في اللسان العربي، ولا ترد إلاّ عبر المشافهة، وقد قيل إنّ الخطبة والخطابة اشتقّا من الخطب والمخاطبة؛ لأنّهما مسموعان[2].

وقد ازدهر هذا النوع من الاتّصال بعد ظهور الإسلام؛ لأنّ توضيح تشريعات هذا الدين ومقاصده كان يتطلّب ذلك. وقد تحدّث عنها العسكري فقدّم مجموعة من الأفكار التي تخصّ الخطيب وما يجب أن يتوافر فيه؛ فالشاعر يُحدث مع نفسه تفاعلا ليُعبِّر عما في داخله، أما الخطيب فيتفاعل أكثر مع الجمهور، وقدّم قضايا أخرى تتعلّق بموضوع الخطابة.

-ماهية الخطابة:

الخطابة على حدّ تعبير قدامة بن جعفر «مأخوذة من خطبت أخطب خطابة... واُشتق من الخطب وهو الأمر الجليل؛ لأنّه إنّما يقام بالخطب في الأمور التي تجلّ، والاسم منها خاطب مثل راحم، فإذا جُعل وصفا لازما قيل خطيب»[3].

---

[1]- العسكري، المصدر نفسه، ص147.
[2]- ينظر جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص72.
[3]- نقد النثر، ص94.

فالخطابة في أساسها مشاركة في فعل ذي شأن جليل، وهو توضيح يتّجه أكثر نحو وظيفتها[1].

تتعدّد موضوعاتها وتتنوّع بحسب مقاصدها؛ إذ تستعمل في إصلاح ذات البين، وإطفاء نار الحرب، وحمالة الدماء، ونشيد الملك، والتأكيد للعهد، وفي عقد الأملاك، وفي الدعاء إلى الله تعالى، والإشادة بالمناقب، ولكلّ ما أريد ذكره ونشره وشهرته في الناس[2]. ولكنّ العسكري لاحظ أنّ «لها الحظ الأوفر من أمر الدين؛ لأنّ الخطبة شطر الصلاة التي هي عماد الدين، في الأعياد والجمعات والجماعات، وتشتمل على ذكر المواعظ التي يجب أن يتعهّد بها الإمام رعيته لئلا تدرس من قلوبهم آثار ما أنزل الله عزّ وجلّ من ذلك في كتابه، إلى غير ذلك من منافع الخطب»[3]. وغاية الخطابة متنوّعة، ولكنّها تبقى مرتبطة بالتأثير في النفوس وإقناعها بقضية معيّنة، لذلك قال أرسطو: «الريطورية قوة تتكلّف الإقناع الممكن في كلٍّ من الأمور المفردة»[4].

والخطابة في أبسط تصوّر لها تعني إلقاء خطبة في مقام معيّن، وفي موضوع خاص، تقتضي في أساسها «تواجد المتكلّم والسامع في نفس الحيّز الزماني والمكاني، ويستوجب تزامن عمليتي التلفظ والتمثيل وإلا انفصم الرباط بينهما وتعطّلت المقاصد، وغايتها الإقناع»[5]. فالخطابة اتّصال شفاهي مرتبط بتواجد ركنيه في حيّز زمكاني مضبوط؛ وهذا من أبرز ما يميّز الخطبة عن فن الرسالة.

-بناء الخطبة ومميّزاتـها:

---

[1]- ينظر محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، المغرب أفريقيا الشرق، ط2002/2، ص18.

[2]- ينظر قدامة بن جعفر، نقد النثر، ص93.

[3]- الصناعتين، ص142.

[4]- عبد الرحمن بدوي، فن الخطابة عند أرسطو، مصر النهضة المصرية، 1959، ص29.

[5]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، تونس منشورات الجامعة التونسية، 1981، ص200.

لقد عُرفت الخطابة العربية بخصوصية بنائها وتشكيلها، لكن يجب أن نشير أوّلا إلى أنّ الخطبة في أساسها كلام منثور مسموع، فهي مثل الرسالة التي لها أوّل وآخر، وهذا ما عبّر عنه أبو هلال أثناء مفاضلته بين الشعر والرسائل والخطب، حيث قال: «واعلم أنّ الرسائل والخطب متشاكلتان في أنّهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية. وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل, وألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل، ولا فرق بينهما إلا أنّ الخطبة يشافه بها، والرسالة يكتب بها»[1]. فالخطبة كلام نثري لا يخضع للوزن والقافية، تعتمد على السهولة في إيراد الألفاظ، مع الأخذ بعين الاعتبار الفواصل التي تعطي لها نغمة خاصة تسهم في لفت المتلقّي لها.

ولبيان كيفية بنائها وخصائصها قدّم أبو هلال تصوّرا شاملا مبنيا على التمثيل، وهو يعكس قوة التماسك والانسجام الذي تقتضيه الخطبة؛ فـ «رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخيّر الألفاظ، والمحبّة مقرونة بقلّة الاستكراه»[2]. فالعسكري ينطلق من جملة من التشبيهات، باعتبار أنّ أمر الخطبة ليس هيّنا، وإنّما يحتاج إلى امتلاك صناعة من نوع خاص، تضبطها مجموعة من الخصائص نوضّحها انطلاقا من هذا القول، ونركّز على ما يلي:

*الطبع والدربة:

ويختصان بالخطيب؛ إذ لا بدّ أن يكون مطبوعا على إنجاز الخطبة وإلقائها، يتمكّن من ذلك بالدربة المتكرِّرة. وهذا الأمر أشار إليه الجاحظ من قبل[3]. و«الخطيب همّه الوحيد هو التظاهر بمظهر الطبع، وعدم التكلّف لإقناع

[1]- الصناعتين، ص142.
[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص64.
[3]- البيان والتبيين، ج1 ص44.

جمهوره»[1]. فمن أسباب نجاح المرسل في الخطبة عدم التكلّف، وعدم الاندفاع. و التكلّف –كما وضّحه العسكري- هو «طلب الشيء بصعوبة، للجهل بطرائق طلبه بالسهولة، فالكلام إذا جمع وطلب بتعب وجهد، وتنولت ألفاظه من بعد فهو متكلّف»[2].

وهذا التكلّف قد يولّد الاضطراب واستغلاق الكلام، لذا نصح صاحب الصناعتين الخطيب بأن يكون «رابط الجاش ساكن النفس جدا؛ لأنّ الحيرة والدهش يورثان الحبسة والحصر وهما سبب الإرتاج والأجبال. وقد بلغك ما أصاب عثمان بن عفان رضي الله عنه أول ما صعد المنبر فارتج عليه، فقال: إنّ الذين كانا قبلي كانا يعدّان لهذا المقام مقالا، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام قائل، وستأتيكم الخطبة على وجهها، ثم نزل»[3].

فلابدّ للخطيب أن يمتلك الحركة الخطابية أو العمل الخطابي، وهو عبارة عن فن التعبير عن الإحساسات بوساطة الصوت والإشارة والملامح. فالصوت يقتضي أن يكون أداة طيّعة، فـ «طورا يكون الصوت متوسِّلا، وطورا يكون ساخطا، وطورا يكون مبتهجا، وطورا يكون شاكيا، وهو في كلّ تلك الأطوار إنّما يتحدّث عن الروح لا بوساطة الكلمات أو الجمل؛ بل بواسطة ما يتشكّل به من تغيّر وتبدّل»[4]. فالتنويع في صوت الخطيب ضروري لضمان الفعالية في الفعل الخطابي، تفرض ذلك طبيعة الخطبة التي تتعدّد بحسب الموضوع المطروق. وللملامح والإشارات دور كذلك في ترجمة أحاسيس الخطيب وأفكاره التي قد لا تتّضح من الخطبة.

---

[1]- محمد الصغير بناني, النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص227.

[2]- الصناعتين، ص50.

[3]- العسكري، ص27-28.

[4]- لابي سي فينسان، نظرية الأنواع الأدبية، ترجمة حسن عون، الاسكندرية منشأة المعارف، ط1990/2، ص390.

والدربة هي التي تساهم في دفع الإرتاج عن المرسل، فهي بمثابة التعوّد على قول الخطب، والذي يساعد حتى في الاعتذار إن أصاب الخطيب الحيرة والاندهاش، و«من حسن الاعتذار عند الإرتاج ما أخبرنا به أبو أحمد، قال أخبرنا الشطني، قال أخبرنا الغلابي، قال أخبرنا العتبي عن أبيه قال: خطب داود بن علي، فحمد الله جلّ وعزّ وأثنى عليه، وصلّى على النبي صلّى الله عليه وسلّم، فلما قال: "أما بعد" امتنع عليه الكلام، ثم قال: أما بعد: فقد يجد المعسر، ويعسر الموسر، ويُفَلُّ الحديد، ويقطع الكليل، وإنّما الكلام بعد الإفحام كالإشراق بعد الإظلام، وقد يعزب البيان، ويعتقم الصَّواب... ومن بعد مقامنا هذا مقام، وبعد أيامنا أيام، يعرف فيها فضل البيان، وفصل الخطاب، والله أفضل مستعان، ثم نزل»[1]. ومن هذا التوضيح نلاحظ أنّ إبداعية الخطابة تبدأ أولا مع الخطيب، وقد لا نغالي إن قلنا أنّ نجاحها يعود إليه في الأساس، قبل الموضوع المطروح في الخطبة، لذلك قال "بارث Barthes": هي «وسيلة إنتاج واحد من الأشياء التي يمكن أن تكون أو لا تكون بدون تمييز، والتي مصدرها الشخص المبدع، وليس الموضوع المبتدع»[2].

ويجب أن نشير أيضا إلى أنّ الطبع والدربة يمكّنان الخطيب من بناء تصوّر عام حول طبيعة النفوس التي يلقي إليها خطبته، وقد ذكر ههنا أفلاطون أنّه «على المرء –لكي يكون قادرا على الخطابة- أن يعرف ما للنفوس من أنواع، وعلى قدر هذه الأنواع تكون الصفات، وهو ما يختلف به الناس في أخلاقهم. ولكل حالة نفسية نوع خاص من الخطابة، فعليّ إذن كي أولّد في النفوس نوعا من الإقناع أن أطابق بين كلامي وطبيعتهم، وإذا توافرت للمرء هذه المبادئ عرف متى يجب عليه أن يمتنع عن الكلام، ومتى يليق أن يكون موجزا أو مطيلا

[1]- العسكري، الصناعتين، ص28.

[2] Roland berthes, Communication recherches rhétorique, édition de seuil,1970 N16, p 179.

أو مبالغا، أما قبل الوقوف على هذه المبادئ فلا وسيلة له إلاّ التعرّف على ذلك»[1]. فنجاح الفعل الخطابي مرهون بمعرفة مقامات المستمعين وأحوالهم، حتى يكيِّفه الخطيب معهم، ويحقّق مقصديته.

*رواية الكلام:

الخطابة اتّصال شفاهي، قد تتطلّب عند الارتجال، وعدم الاعتماد على المصادر المكتوبة، اضطلاع الخطيب بذاكرة قوية تكون مرجعه الوحيد عند الإلقاء، الشيء الذي لا يتوافر لكثير من الناس[2]. ومعرفة كلام العرب تعدّ من الشواهد التي سيعتمد عليها الخطيب في توضيح أفكاره وتأكيده، إنّها الحجّة التي تجذب العقول وتقنعها، ولذا أكّد أبو هلال على حاجة «الخطيب وكل متأدّب بلغة العرب، أو ناظر في علومها، ماسة وفاقته إلى روايته شديدة»[3]. فكلّما ازدادت معرفة الخطيب وثقافته كان أكثر إلماما بموضوعه من جهة، وكانت له القدرة على التأثير والإقناع أكثر من جهة أخرى.

ورواية الكلام تمكّنه من وضع يده على آليات التأثير والإقناع التي يستدعيها الفعل الخطابي، فـ «من واجب الخطيب ألا يلقي القول جزافا، وألاّ يتّخذ سهمه مما يصادفه من أنواع الأخشاب. فمن الضروري إذن أن تكون براهينه - كما يقول أرسطو- واضحة الدلالة ومفخمة»[4].

وطالما أنّ الخطبة مرتبطة أساسا بالمتلقّين، فإنّه من الضروري أن يراعي الخطيب أحوالهم والظروف الراهنة التي تؤطّر الخطبة ككل. فالخطيب قد يكون مضطرا «أكثر من غيره إلى مراعاة حال مستمعيه وظروفهم الراهنة، مما

---

[1]- محمود عباس عبد الواحد، قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي دراسة مقارنة، مصر دار الفكر العربي، ط1/1996، ص121.

[2]- ينظر محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ص227.

[3]- الصناعتين، ص144.

[4]- لابي سي فينسان، نظرية الأنواع الأدبية، ص381.

يفرض عليه إخضاع كلامه إخضاعا آنيا لهذه الظروف التي قد تتغيّر من لحظة إلى أخرى، بخلاف الكاتب مثلا الذي يتمتّع بحدود زمانية ومكانية تمكّنه من التصرّف في مطابقة كلامه مطابقة ليّنة»[1]. فطالما أنّ الخطيب معرّض لبعض الحالات الاضطرارية فإنّه لابدّ أن يتمتّع بالكفاية التي تمكّنه من تجاوز ذلك، من دون قلق أو تردّد.

*الإعراب:

ارتبط مفهوم الإعراب لدى علمائنا بالإبانة عن المعاني ومقاصد الجمل، يقول ابن فارس (ت395 هـ): «فأمّا الإعراب فبه تميّز المعاني، ويوقف على أغراض المتكلّمين. وذلك أنّ قائلا لو قال: "ما أحسن زيد" غير معرب، أو "ضرب عمر زيد" غير معرب لم يوقف على مراده، فإذا قال: "ما أحسن زيدا"، أو "ما أحسن زيد"، أو "ما أحسن زيدٌ"، أبان عن المعنى الذي أراده»[2]. فتجاهل ما تقتضيه أواخر الكلمات والجمل -كما نلاحظه اليوم في ألسنتنا، والذي تبرّره مقولة "سكّن تسلم"- قد يؤدّي إلى ضياع الفائدة التي لا تتوقّف في العربية عند حدود الإفهام فقط؛ بل تزيد التراكيب حلية وبهاءً، مما يجلب المتلقّي أكثر إلى الخطبة. فالجملة العربية ليست توالي مجموعة من المفردات فقط، إنّها علاقات وحركات مضبوطة من خلال النظام اللغوي ككل.

*تخيّر الألفاظ: وهو على صلة بالخطبة في حدّ ذاتها؛ إذ تقتضي انتقاء الكلمات التي تجعل المستمع أكثر متابعة، فـ «من تمام آلات البلاغة التوسّع في معرفة العربية، ووجوه الاستعمال لها، والعلم بمفاخر الألفاظ وساقطها ومتخيِّرها»[3]. والتخيّر ههنا يومئ إلى التنويع في استعمال اللفظ بحسب المقام من

[1]- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ص227.
[2]- الصاحبي في فقه اللغة العربية و مسائلها وسنن العربية في كلامها، تحقيق عمر فاروق الطبّاع، بيروت مكتبة المعارف، ط1993/1 ص 196-197.
[3]- العسكري، الصناعتين، ص27.

جهة، والمتلقّين من جهة أخرى، باعتبار أنّ المستمعين تختلف مستوياتهم، لذلك يخاطبهم بحسب درجاتهم.

ولكن لا يعني هذا الوصول إلى حدّ الهجنة؛ فقد «خطب بعضهم فقال: إنّ الله أنشأ الخلق وسوّاهم ومكّنهم، ثمّ لاشاهم، فضحكوا منه»[1]. فأساس بناء الخطب يقتضي التدبّر والتمعّن في اختيار اللفظ الملائم مع عدم الوصول إلى الركاكة التي تؤدّي إلى الزلل. لذا فالحسن في اختيار الألفاظ يسهم في رونقة الكلام، وجريانه مجرى السيل، و«من الكلام الجاري مجرى السيل... أنّ الحسن بن علي رضي الله عنهما خطب فقال: "اعلموا أنّ الحكمة زين، والوقار مروءة، والصلة نعمة، والإكثار صلف، والعجلة سفه، والسفه ضعف، والغلق ورطة، ومجالسة أهل الدناءة شين، ومخالطة أهل الفسوق ريبة"، فهذه هي البلاغة التامة والبيان الكامل»[2]. فبلاغة الخطابة كما يراها العسكري مرتبطة بحسن اختيار الألفاظ التي تتعالى عن كلام السوقة، لترقى لما هو مطلوب، وملائم للغاية التي يريدها الخطيب.

وهذا الأمر هو الذي جعل أبا هلال يسوق مقولة المعاني التي ذكرها الجاحظ من قبل، حيث يؤكّد فيها ضرورة الدقّة في انتقاء الألفاظ؛ إذ ورد فيها «وليس الشأن في إيراد المعاني؛ لأنّ المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنّما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف»[3]. فمن هذا القول نلاحظ أهمية اللفظ بالنسبة للمعنى، باعتبار أنّ هذا الأخير متداول لدى كل أفراد البيئة اللغوية المعيّنة، ولكنّ القيمة ترجع إلى كيفية انتقاء ما يحقّق الجودة والفخامة، فيكشف عن المراد في السهولة والإمتاع.

---

[1]- العسكري، المصدر نفسه، 142.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص49.
[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص63-64.

ومدار البلاغة يتّصل بذلك؛ لأنّ الخطب الرائعة «ما عُمِلت لإفهام المعاني فقط، لأنّ الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيّدة منها في الأفهام. وإنّما يدلّ حسن الكلام وأحكام صنعته ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مباديه، وغريب مبانيه على فضل قائله وفهم منشيه، وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني»[1]. فالخطابة لا تقف عند حدود الإفهام فقط؛ بل مؤسسة على الإقناع، فهي مبنية على «عناصر ثلاثة: وسائل الإقناع أو البراهين، والأسلوب والبناء اللغوي, وترتيب أجزاء القول، ثم هناك عنصر الإلقاء الذي اعتبره الدارسون للخطابة بعد أرسطو ومنهم البلاغيون العرب عنصرا مستقلا, ويتضمّن الحركة والصوت»[2]. لنرى أنّ الخطبة مرتبطة بالإلقاء أيضا ذي الصلة المباشرة بالخطيب، فهو من البلاغة أيضا، لذلك قال أبو هلال: «وأوّل آلات البلاغة جودة القريحة، وطلاقة اللسان»[3]. وطلاقة اللسان ههنا تعني القدرة على الارتجال من جهة، والتمكّن من الإلقاء الجيّد من جهة أخرى.

بعد هذا التوضيح نلاحظ أنّ الخطابة تضبطها تقنيات هي على صلة بالخطيب والمخاطبين والرسالة الاتّصالية أيضا، وبقي أن نذكر أنّ «الخطابة لا تهتم باللغة من حيث هي بنية؛ أي بالملفوظ كملفوظ, لكن باعتبارها فعلا، فيتنزّل الشكل اللغوي من مخطط التواصل الحملي منزلة الزينة أو الحلية، وتكون الوظيفة قطب الرحى والهدف القارّ، وليست هذه الوظيفة إلا ما يروم المتكلّم من سامعه الفهم والإفهام بالأساس، والإقناع بعد ذلك، وما يتّصل بهذا وذاك من حالات»[4]. لنلاحظ أنّ الخطابة تتعلّق في أساسها بنجاح المتكلّم في إيصال ما يريد إلى المتلقّي وإقناعه به، وهذا من البلاغة، يقول أبو هلال: «البلاغة قول مُفْقِه في

---

[1]- العسكري، المصدر نفسه، ص64.
[2]- عبد الرحمن بدوي, فن الخطابة لأرسطو, ص181.
[3]- الصناعتين، ص26.
[4]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السادس، ص200.

لطف؛ فالمفقه المفهم، واللطيف من الكلام؛ ما تَعطف به القلوب النافرة، ويُؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العَريكَة الأبيَّة المستصعبة، ويُبْلَغ به الحاجة، وتقام به الحجّة، فتخلص نفسك من العيب، ويلزم صاحبك الذنب من غير أن تهيجه وتقلقه، وتستدعي غضبه، وتستثير حفيظته»[1]. والمقام هو الذي يفرض ذلك على الخطيب، ولهذا ارتبطت البلاغة لدى العسكري بـ «الإبلاغ المفهم المؤثّر إفهاما وتأثيرا، من شأنهما تحقيق الإقناع والاستمالة»[2].

بعد هذا العرض نكون قد لاحظنا أنّ بناء الاتّصال الشفاهي لدى العسكري يتطلّب صناعة من نوع خاص، ترتبط في أساسها بالمرسل الذي يجب أن تتوافر فيه الكفاية الاتّصالية التي لا تقف عند المعرفة باللغة المعيّنة؛ بل تقتضي الاطّلاع بالآليات التي يتطلّبها أي اتّصال تحت أي ظروف، فتجعل المتكلّم على دراية بمؤطّرات الاتّصال ككل؛ أي موضوع والمقام والمتلقّي والبناء اللغوي الذي يحتوي ذلك.

[1]- الصناعتين، ص57.
[2]- جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص129.

الفصل الثاني: أركان الاتّصال اللغوي عند أبي هلال العسكري:

1-المتكلّم وشروطه:

أ-رباطة الجأش:

ب-تخيّر اللفظ:

ج-حسن التصرّف :

د-مراعاة المتلقّي:

هـ-الدقة في المعاني:

و-الاعتدال في اللفظ:

ز-حسن الابتداء:

2-المتلقّي (السامع، القارئ) وشروطه:

أ-حسن الاستماع:

ب-القدرة على فهم محتوى الرسالة:

3-الرسالة وصفاتها:

4-المقام:

الفصل الثاني: أركان الاتّصال اللغوي عند أبي هلال العسكري:

تبيّن لنا من قبل أنّ العملية الاتّصالية تؤطّرها أركان معيّنة، وأقدم محاولة في توضيح ذلك تعود إلى أرسطو الذي لاحظ أنّها تقوم على ثلاثة عناصر أساسية؛ المتحدّث والمستمع والرسالة. فالاتّصال لديه «عملية تجري بين متحدّث يبتكر حجّة يقولها للسامعين، ويهدف إلى أن يعكس صورة إيجابية على نفسه، وأن يشجّع أفراد الجمهور على استقبال الرسالة»[1].

ولم يقف هذا الوصف عند هذه الأركان فحسب؛ بل تنوّعت الدراسات التي أثرتها قديما وحديثا فقدّمت آراء أخرى تفسّر وتوضّح أكثر ذلك. ويعدّ أبو هلال العسكري من بين العلماء الذين تناولوا هذه القضية، فقدّم تصوّرا دقيقا لما تقتضيه أركان العملية الاتّصالية، وتعود إلى المرسل (الخطيب، الشاعر، الكاتب، المتكلّم)، والسامع (المخاطب)، والرسالة (كلام، خطب، رسائل، شعر). وحاول أن يحدّد الشروط التي يجب أن تتوافر في هذه الأركان، ليربطها بالغايات التي تؤطّر ذلك. وهو يقترب في أفكاره بما طرحته النظريات الحديثة، ولكي نوضّح أكثر سنعتمد على النموذج الذي قدّمه "لازويل Lazwel" وجملته المشهورة "من؟ يقول ماذا؟ بأية قناة؟ لمن؟ وبأي تأثير؟"[2]. وانطلاقا من هذه الأسئلة يمكن أن نمثّل لعناصر الاتّصال لدى العسكري بالمخطط الآتي:

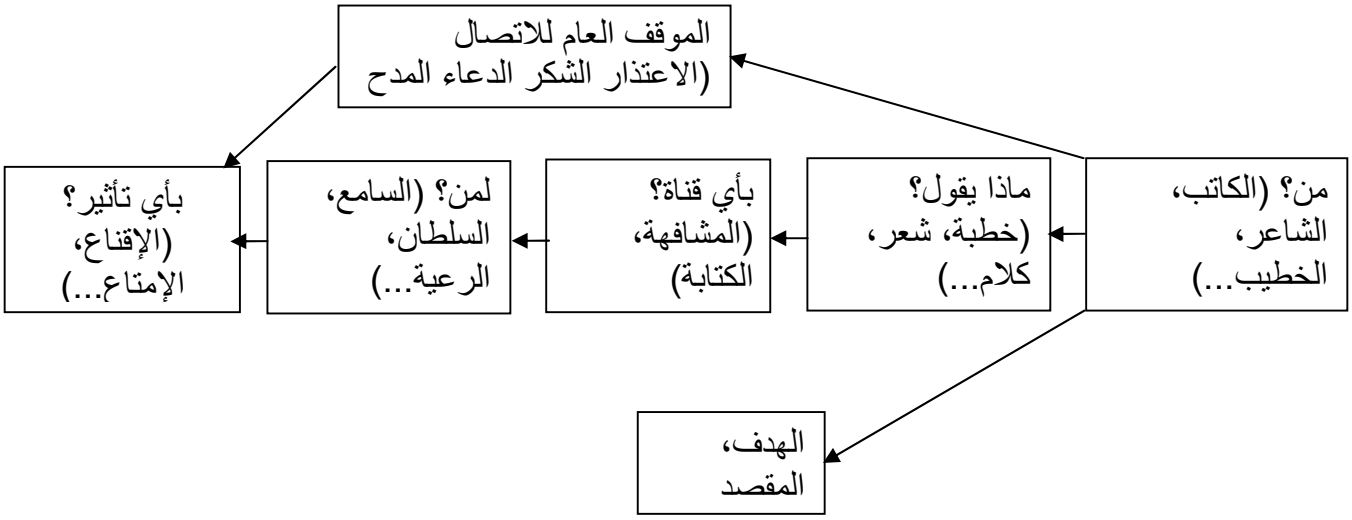

فالاتّصال عند العسكري عمليّة متكاملة، متّصلة الحلقات لا يمكن فصل حلقة عن أخرى، ومنه يتشكّل الاتّصال اللغوي سواء أكان عاديا، أو فنيّا باعتبار أنّ العمل الفنّي الحقيقي هو «ذلك الإنتاج الصادق الذي يمحو كل فاصل بين صاحبه من جهة، وبين الإنسان الذي يوجّه إليه من جهة أخرى، ثم هو أيضا ذلك الإنتاج العامر بالعاطفة الذي يكون من شأنه أن يوحِّد بين قلوب كل من يوجّه

[1]- ينظر أرسطو، فن الخطابة، ص7.

[2] Voir Judith lazar, la science de la communication, paris 1993, p :105.

إليه»[1]. فالعمل الأدبي يرتكز على هذه الوحدة، لذلك ينهار إذا ما اعترت هذه السلسلة نقطة ضعف معيّنة تتعلّق بحلقة من حلقاته[2].

فمبدأ عملية الاتّصال -كما يراها أبو هلال- أن يكون لدى المرسل فكرة أو معلومات يريد أن يرسلها إلى المستقبل في موقف محدّد ولهدف ما، ليكشف عنها بواسطة وسائل لغوية ينتقيها لتوضّح ذلك. ولكي يوضّح هذه الأمور أكثر قدّم الكثير من الآليات التي تضبط ذلك، وهي من اهتمامات التداولية التي «اهتمت بدراسة الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلّم في عملية التواصل، وعوامل المقام المؤثّرة في اختيار أدوات معيّنة دون أخرى للتعبير عن مقصده»[3]. ولكي نثري ذلك أكثر نذكر ما يلي:

1-المتكلّم وشروطه:

لقد اعتبر صاحب الصناعتين المرسل قطب الرحى في العملية التبليغية، فاستوجب فيه مجموعة من الشروط التي تعدّ من البلاغة، وجاءت مبثوثة في مواضع متنوّعة من كتابه؛ وقد تجلّت أكثر في قوله: «أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة: وذلك أن يكون الخطيب رابط الجاش، ساكن الجوارح، متخيّر اللفظ، لا يكلم سيّد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه التصرّف في كل طبقة. ولا يدقّق المعاني كل التدقيق، ولا ينقّح الألفاظ كل التنقيح، ويصفّيها كلّ التصفية، ويهذّبها كل التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما، وفيلسوفا عظيما»[4]. وقد حاول أن يشرح أبعاد الأفكار القيّمة التي وردت في هذا القول، ابتدأها بتصوير الموهبة اللغوية التي يهبها الله تعالى للإنسان حتى يكون بليغا، يقول: «أول آلات البلاغة جودة القريحة وطلاقة اللسان، وذلك من فعل الله تعالى لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه واجتلابه لها»[5]. فهذا القول يتعلّق باللغة واللسان؛ إذ هناك فرقا بينهما، ونضيف الكلام أيضا.

فاللسان هو النموذج الاجتماعي الذي استقرت عليه اللغة، وقد صرّح "دي سوسير De Saussure" أنّ الدراسة اللغوية تتضمّن قسمين مختلفين:

القسم الأول: وهو أساسي وموضوعه "اللسان Langage"، وهو ذو طبيعة اجتماعية مستقلّة عن الأفراد الذين يستعملونها، فهو «وسيلة الفكر ليس إلاّ، وله جانب فردي وجانب اجتماعي لا يمكن أن نتصوّر أحدهما بغير الآخر»[6]. وهو ههنا مفروض على الفرد، ولا يمكنه تغييره.

---

[1]- عبد العزيز شرف، نماذج الاتصال، ص129.
[2]- ينظر عبد العزيز شرف، المرجع نفسه، ص129
[3]- ج.ب. براون وج. بول، تحليل الخطاب، ص32.
[4]- أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص25-26.
[5]- أبو هلال العسكري، المصدر نفسه، ص26.
[6]- دي سوسير، محاضرات في اللسانيات العامة، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، مرجعة مالك يوسف المطلبي، العراق بيت الموصل، ط1988/2، ص26.

القسم الثاني: وهو قسم ثانوي، وموضوعه الجانب الفردي للغة، وفي هذا الصدد يقرّ "دي سوسير De Saussure" أنّه «لا ينبغي الخلط بين اللغة واللسان، فما اللغة إلا جزء منه، بل عنصر أساسي، وفي الوقت نفسه إنتاج اجتماعي لملكة اللسان»[1].

وبناءً على هذا فإنّ اللغة والكلام كليهما سابقان للسان من حيث النشوء؛ لأنّ «اللسان لا يستقر إلا بعد مضي أجيال، فاللسان يتأثّر بالكلام واللغة، ويؤثّر فيهما، فهو يتأثّر بهما لأنّه حصيلة كل ما يصدر عن الأفراد من أقوال ونتاج مجموعة السلوكات اللفظية»[2]. وبالفصل بين اللسان والكلام نكون قد ميّزنا بين ما هو اجتماعي خاص بالجماعة البشرية، وما هو فردي متعلّق بالفرد المعيّن، وما هو جوهري وأساسي عمّا هو عرضي وثانوي[3]. واللسان من هذا المنطلق جزء اجتماعي من اللغة، وهو خارجي بدون أدنى شك عن الفرد؛ إذ لا يستطيع أن يخلق اللسان، ولا أن يغيّره، وهذا ما قصده العسكري بقوله: «وذلك من فعل الله تعالى لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه واجتلابه»[4].

وبعد ذلك نصّ أبو هلال على ضرورة امتلاك المعرفة الواسعة بالعربية التي تمكّن المرسل من الاتّصال الناجح والفعّال، فذكر أنّ «من تمام آلات البلاغة التوسّع في معرفة العربية، ووجوه الاستعمال لها... ومعرفة المقامات، وما يصلح في كلّ واحد منها من الكلام»[5]. وهذا التمكّن من اللغة بمقتضياتها المختلفة من جهة، وطرق استعمالها في الاتّصال المعيّن من جهة أخرى، يقابل ما اصطلح عليه "تشومسكي Chomsky" بـ "الكفاية اللغوية Compétence"، والأداء الكلامي Performance"، فالكفاية اللغوية تتعلّق بقدرة المتكلّم المستمع المثالي من إنتاج الأصوات والمعاني بالاعتماد على قواعد لغتهما[6]. وبالتالي «فهي ملكة لسانية خاصة بمتكلّم اللغة الذي ترعرع بصورة طبيعة في البيئة التي يتكلّمها»[7]. والملكة اللسانية هي تلك القدرة التي تمكّن الفرد من إتقان اللغة في المواقف المختلفة، أو هي «قدرة اللسان على التحكّم في اللغة والتصرّف فيها، وهذا ما يتفق مع تفسير المعاجم للملكة، وهي تعني احتواء الشيء مع الاستبداد به»[8].

---

[1]- دي سوسير، المصدر نفسه، ص27.

[2]- حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، ط5، 2003، ص66.

[3]- ينظر أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية حقل تعليمية اللغات، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 2000، ص7.

[4]- الصناعتين، ص26.

[5]- المصدر نفسه، ص27.

[6] Voir La linguistique cartésienne, suivi de la nature formelle du langage, traduction de N. Delanob et D. sperber, paris ; éditions du seuil ;- p126.

[7]- أحمد عزوز، المدارس اللسانية أعلامها مبادئها ومناهج تحليلها للأداء التواصلي، ص180.

[8]- ميشال زكريا، الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة)، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1983، ص180.

ولكن ما يمكن الإشارة إليه في هذا المقام أنّ «الملكة تكون بالنظر إلى التراكيب اللغوية، وليس بمعرفة المفردات، وهذا ليحقّق المرسل الإفهام والإبلاغ عن المقصود»[1].

أما الأداء الكلامي فهو الاستعمال الفعلي للغة في المواقف الحقيقة[2]، إنّه توظيف لتلك الكفاية لغرض من الأغراض الخاصة بالمرسل، وهذا ما سمّاه ابن خلدون (ت808هـ) بالتصرّف[3]، ويعتبره انعكاسا للملكة اللسانية، ويظهر فيه قليل قليل من الانحراف عن قوانين اللغة[4]. وهذا التصرّف هو «الجدير بالتحليل؛ لأنّه يبيّن مدى قدرة المرسل على اكتسابه للغة ومعرفته لها واستعمالها في حياته والسيطرة على النموذج العام»[5]. فهو يوضّح كيف أنّ المرسل يستعمل تلك اللغة التي اكتسبها، ويتواصل بها مع الآخرين ضمن سياق معيّن، وقد يعكس هذا التصرّف أيضا انحرافه عن النموذج الشائع وخروجه عن نطاق تلك الكفاءة التي تنبني على أفكار المنتفعين باللسان كافة، وكيف أنّه بإمكان المرسل أن يخترق هذا النموذج العام[6].

فالمتكلّم يرجع في كل اتّصال لغوي إلى قواعد النظام اللغوي الذي اكتسبه سابقا، وفي إطاره يعبّر عمّا يريد التعبير عنه. وقد بيّن العسكري ههنا أنّ الناس يتفاوتون في درجات التعامل مع تجلّيات هذه الكفاية عبر أشكال الاتّصال المختلفة. فـ «الناس في صناعة الكلام على طبقات؛ منهم من إذا حاور وناظر أبلغ وأجاد, وإذا كتب وأملى أخلّ وتخلّف. ومنهم من إذا أملى برّز, وإذا حاور أو كتب قصّر. ومنهم من إذا كتب أحسن, وإذا حاور وأملى أساء. ومنهم من يحسن في جميع هذه الحالات, ومنهم من يسيء فيها كلّها»[7]. فالعسكري يؤكّد أنّ الناس في الأداء الكلامي يختلفون، ودرجة التفاوت تتحدّد بالقدرة الاتّصالية التي تخوّل له «العلم بفاخر الألفاظ وساقطها، ومتخيّرها ورديئها، ومعرفة المقامات، وما يصلح في كل واحد منها من الكلام»[8].

وما نلاحظه ههنا أنّ أبا هلال يبيّن أنّ التفاوت في صناعة الكلام لا يرجع إلى الكفاية اللغوية، وإنّما يعود إلى القدرة الاتّصالية التي يضبطها شكل الاتّصال وموضوعه من جهة أولى، والمقامات المختلفة من جهة ثانية، لذلك قال: "منهم من حاور وناظر أبلغ وأجاد، وإذا كتب وأملى أخلّ وتخلّف"؛ فالمرسل قد يجيد في الاتّصال الشفاهي، لكنّه يخفق في الاتّصال الكتابي، والعكس كذلك. لكن يبقى

---

[1]- أحمد عزوز، المدارس اللسانية أعلامها مبادئها ومناهج تحليلها للأداء التواصلي، ص180.
[2]- ينظر أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطوّر، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 2000، ص210.
[3]- ينظر مقدّمة ابن خلدون، بيروت دار الجيل (د.ت)، ص613.
[4]- ينظر أحمد عزوز، المدارس اللسانية أعلامها مبادئها ومناهج تحليلها للأداء التواصلي، ص182.
[5]- أحمد عزوز، المرجع نفسه، ص182.
[6]- ينظر ميشال زكريا، علم اللغة الحديث المبادئ والأعلام، ص261.
[7]- العسكري، الصناعتين، ص26-27.
[8]- العسكري، المصدر نفسه، ص27.

الأحسن من أجاد في كل أشكال الاتّصال؛ أي من توافرت له "القدرة الاتّصالية" التي تمكّنه من ذلك، وهي تعني «ذلك العنصر الذي نستطيع به أن ننقل الرسائل ونفسّرها، ونتفاوض مع الآخرين في سياقات محدّدة»[1]. وهذه القدرة تضم -كما يرى "مايكل كنال M.canale" و"ميريل سوين M.swain"- أربعة مكوّنات؛ يتّصل الأولان بالنظام اللغوي نفسه، والآخران بالجوانب الوظيفية الاتّصالية[2].

ثم انتقل العسكري بعدما أن حدّد آلات البلاغة التي يجب أن يمتلكها المتكلّم، إلى بيان الشروط التي لابدّ أن تتوافر فيه أيضا، نركّز على ما يلي:

أ-رباطة الجأش:

فمن لوازم المرسل أن تكون له القدرة على ضبط نفسه حتى تتولّد لديه الثّقة والثبات؛ لأنّ «الحيرة والدهش يورثان الحبسة والحسر، وهما سبب الإرتاج والأجبال»[3]. فمن صفات المتكلّم الناجح أن يكون ثبت الجنان، هادئ النفس حتى لا يصبه دهش من شأنه أن يعقّد لسانه[4]، وبالتالي يصعب عليه القول. والحبسة والحصر من عيوب الصوت، يعيقان العملية الاتّصالية؛ لأنّ الخطيب لا يبلّغ رسالته في معرض حسن، والسامع لا يقترب إليه معنى، ولا يجني فائدة. فسلامة اللسان وهدوء النفس يمكّنان الباث من النطق السليم، والمستوفي في الوقت نفسه للموضوع الرسالة.

فأساس الاتّصال اللسان السليم من العيوب المختلفة، والناطق الصحيح للأصوات. وهذه القضايا فسّرها من قبل الجاحظ، فقدّم الكثير من المصطلحات التي تدلّ على ذلك، منها قوله: «يقال في لسانه حبسة إذا كان الكلام يثقل عليه، ولم يبلغ حدّ الفأفاء والتمتام... فإذا قالوا في لسانه حكلة فإنّما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق وعجز أداة اللفظ»[5]. وذكر أيضا أنّ البلاغة قد تعني النطق السليم الخالي من العيوب؛ فقد سئل العتابي ما البلاغة؟ فقال بوضوح: من يستطيع أن يفهم مقصده إلى الآخر من غير أن يعتري صوته آفة أو عيب من العيوب[6].

ولكنّنا لاحظنا أنّ العسكري أراد أن يركّز على الحالة النفسية للمتّصل، لذلك قال: «وعلامة سكون الخطيب ورباطة جاشه هدوّه في كلامه، وتمهّله في منطقه»[7]. فلا بدّ للخطيب أن يتوافر له الارتياح النفسي الذي يمكّنه من التلفّظ السليم والواعي بالأفعال الكلامية. وما «أكثر ما يعين رباطة الجأش عند الخطيب

---

[1]- دوجلاس براون، أسس تعلّم اللغة وتعليمها، ترجمة عبده الراجحي وعلي أحمد شعبان، بيروت دار النهضة العربية، 1994، ص244.

[2]- دوجلاس براون، أسس تعلّم اللغة وتعليمها، ص245.

[3]- العسكري، الصناعتين، ص27.

[4]- ينظر شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، مصر دار المعارف، ط2، ص37.

[5]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص39-40.

[6]- الجاحظ، المصدر نفسه، ج1، 119.

[7]- العسكري، الصناعتين، ص28.

على التنبّه لما يدور حوله، وتفطّنه لما يجري بين السامعين، مما يجعله على أهبة الاستعداد لأن يلبس الأحوال لبوسها، وأن يأخذ لها عددها»[1].

فالعسكري بهذا التفسير يتّبع ما ذكره بشر بن المعتمر في صحيفته، حينما نصح المتّصل بأن لا يقدّم رسالته إلاّ وحالته النفسية مواتية لذلك؛ إذ قال: «خذ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها إياك، فإنّ قليل تلك الساعة أكرم جوهرا وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور»[2]، فالحالة النفسية الهادئة هي التي تحدّد منفعية الخطاب؛ أي التأثير في السامع، حتى تكون أحسن في الأسماع. وبشر بن المعتمر في هذا القول «يلتفت لفتة ذكية للشرط السيكولوجي عن طول الممارسة والدربة، حتى ارتفعت إلى اليقين العقلي العلمي، وأضحت آية ضرورية لكل إبداع يراد له أن يكون في ذرّة الاختراع»[3]. والمتّصل المقصود من كلام بشر هو ذلك المتمرّس القادر على أداء الاتّصالات المختلفة مهما تعدّدت المواقف، وهذا ما كان يعبّر عنه العسكري بصانع الكلام.

ولكن هذا النشاط الاتّصالي يقوى في بعض الأوقات دون أخرى، لذلك يستحسن تحديد زمن الإبداع، و«هو زمن نفسي أكثر منه زمنا كرونولوجيا؛ إذ يرتبط بالاستعداد الذي يتهيّأ للنفس عند رغبة الإنشاء، فإذا حضر النشاط وجب إجراء الإبداع»[4]. وما على المرسل إلا أن يشغل هذا الزمن ويبدع فيه؛ لأنّه يكون يكون فيه مؤهّلا أكثر من أي زمن آخر للإصابة في كل مقتضيات العملية الإبلاغية.

وذكر بعض الدارسين أنّ زمن الكتابة أو الخطابة لكل متّصل، وهو مهيّأ نفسيا، يعرف ثلاث مراحل؛ «مرحلة التهيّؤ، أي التهيّؤ النفسي والذهني، وتكون عن طريق التماس الوقت المناسب الذي تصفو فيه النفس، ويخلو الذهن مما يشغله، في ساعات النهار الأولى، أو هزيع الليل الأخير. والمرحلة الثانية هي مرحلة التكوين، أي تكوين المادة في صورها الأولى في الذهن مجموعة من المعاني المنثورة. والثالثة مرحلة التعبير والتنميق»[5].

وهذا ما قدّمه أيضا ابن المدبّر حينما تحدّث عن صفات الكاتب النفسية وحتى البدنية؛ إذ ذكر أنّه لابدّ «أن يكون الكاتب صحيح القريحة، حلو الشمائل، عذب الألفاظ، دقيق الفهم»[6]. فنجاح الاتّصال لا يقف عند اللغة فحسب؛ بل يرتبط يرتبط أيضا بالعوامل السيكولوجية التي تؤطّره.

---

[1]- محمد عبد الغني حسن، الخطب والمواعظ، مصر دار المعارف، (د.ت)، ص15.

[2]- الجاحظ, البيان والتبيين, ج1، ص135.

[3]- الحبيب مونسي، نظرية الكتابة في النقد العربي القديم، ص92.

[4]- الحبيب مونسي، المرجع نفسه، ص92.

[5]- محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، مصر منشأة المعارف، ط3، ص390-391.

[6]- الصالح خليل أبو أصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال المعاصر، ص223.

وقد قدّم عبد الحميد الكاتب للمرسل في الاتّصال الكتابي وصايا مختلفة تنوّعت بين الوصايا الأخلاقية والعملية، مقرّا بأنّ صناعة الكتابة هي أشرف الصناعات[1]، وهذا ما خلق عند العرب علما جديدا وبارزا، له ضوابطه التي تضبطه، وهو علم الكتابة، ويكفي «أنّها كانت سبيلا إلى الوزارة في كثير من الأحيان، أو سبيلا لنيل الحظوة والمنزلة العليا، لذلك كان التنافس شديدا في تحصيل العلوم المختلفة، والتزود من أنواع المعرفة، وكان عمل الكاتب الإلمام بكثير من العلوم المختلفة والاطلاع الواسع»[2].

وقد لاحظ عبد الحميد الكاتب أنّ الكتابة ليست بالأمر الهيّن لذلك قدّم مدوّنة يشرح فيها ذلك، أضحت «من أهم المراجع التي تتناول الصفات التي يجب أن يتمتّع بها الكاتب، حيث ذكر أهم القواعد السلوكية والقوانين الأخلاقية التي يجب أن يتّبعها الكاتب ليحلّ في مستوى مهنة الكتابة الشريفة التي يمارسها»[3]. ولذلك اكتسبت الكتابة أهمية كبرى في العصر العباسي، مما أدّى إلى تطوّر فنون النثر.

ولكن هذا لا يمنع من وجود بعض الأفكار الخاصّة بالشاعر، وهذا ما اهتم به ابن قتيبة حينما قدّم تفسيرا عَكَس من خلاله ضرورة مراعاة الحالة النفسية للمتلقّي أثناء بناء القصيدة وإلقائها، «ليُميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي إصغاء الأسماع»[4]. فالقصيدة لا تستميل العقول وتستهوي النفوس إلا إذا أخذ الناظم ذلك بعين الاعتبار.

ويجب أن نشير إلى أنّ الهدوء والتمهّل في المنطق يساعدان المتكلّم على «تجنّب عثرة اللسان التي قد تعرقل إيصال الرسالة إلى المتلقّي سليمة؛ لأنّ لحظة إرسال المتكلّم الكلمة هي في الوقت نفسه لحظة استقبال المتلقّي لها»[5]. وهما يولّدان الثّقة في النفس، والتي هي «صفة أساسية يجب أن تتوافر عند الخطيب حتى وإن لم تكن حكرا على الخطابة فحسب؛ بل تتعدّاها إلى جميع محاولات الإلقاء دون استثناء»[6]. وإذا ما اهتزّت هذه الثقة فحتما ستؤدّي بالمتكلّم إلى فقدان السيطرة على المواقف والتحكّم في زمام الأمور، وبالتالي ضياع المقصد.

وهذه المواصفات ذات الصلة بالمرسل مباشرة هي أساس الفعل التواصلي، تؤدّي عند مراعاتها إلى إيصال المعنى، والإحاطة بالمقصد، ولكن إذا ما اختلّت فإنّها «ستحدّ من قدرة الخطيب على إيصال أفكاره بشكل واضح إلى المتلقّين،

---

[1]- ينظر شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، مصر دار المعارف، ط1977/8، ص115.

[2]- عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباسي الأول اتّجاهاته وتطوّره، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص143.

[3]- عبد الحميد جيدة، صناعة الكتابة، ص93.

[4]- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، بيروت دار الثقافة (د.ت)، ص20.

[5]- فاروق سعد، فن الإلقاء العربي الخطابي والتمثيلي، بيروت دار الكتاب اللبناني، ط1987/1، ص206.

[6]- فاروق سعد، فن الإلقاء العربي الخطابي والتمثيلي، ص206.

وتشتيت انتباههم وتركيزهم، كما قد يؤدّي إلى عجزه عن الأداء الكلامي بشكل يناسب المعنى»[1].

والمواصفات التي قدّمناها تعتبر من الآليات التداولية التي تُسهم في تأطير الفعل الكلامي وتفسيره، ندرك ذلك مع "فوندرليش Vonderlish" الذي اشترط على كل متواصل أن يمتلك القدرات التي تمكّنه من إنجاز الأفعال اللغوية التي تحيط بمقصديته وتفيد السامع؛ منها:

-يجب أن ينشئ اتّصالا ويستطيع حصره؛ أي تكون له القدرة الاتّصالية مع الآخرين، والغوص في أي موضوع من المواضيع.

-يجب أن يحسن نطق الأبنية الصوتية التي تمكّنه من التعبير عن الفعل الكلامي المراد تبليغه للسامع، واضح المضمون، وفي صورة حسنة تعكس تلك القوة التواصلية وقدرته على الإبداع؛ لأنّ «كل منطوق لغوي من المنظور البراجماتي (تداولي) ليس منطوقا من مضامين فحسب؛ بل هو منطوق من المقاصد أيضا»[2]. فلابد للمتّصل من القدرة الذاتية التي تؤهّله لأن يتواصل مع غيره من غير ضياع للمعنى المقصود.

ب-تخيّر اللفظ:

ويعني "التخيّر" عند أبي هلال انتقاء لفظة دون أخرى للتعبير عن المعنى المراد، أو إبدال مفردة بغيرها حتى يتحقّق التئام الكلام؛ لأنّ «تخيّر الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام، وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته، فإن أمكن ذلك منظوما من حروف سهلة المخارج كان أحسن له وأدعى للقلوب إليه»[3]. والملاءمة تعني مناسبة الكلمة للمعنى المعبّر عنه من جهة، ولغيرها حينما تدخل في تركيب معيّن من جهة أخرى.

وقد أكّد العسكري في غير موضع تأكيدا واضحا على أن يدقّق المتكلّم في انتقاء الألفاظ المنوطة بالمعنى المقصود، لأنّها أساس البلاغة. لكنّ هذا الأمر ليس بالأمر الهيّن، يقول: «فمدار البلاغة على تخيّر اللفظ، وتخيّره أصعب من جمعه وتأليفه»[4]. وإنّما كان اختيار اللفظ المناسب من أصعب المراحل؛ لأنّ به يتحقّق التلاؤم والترابط بين أجزاء الكلام من جهة، وتتّضح دلالته المقصودة من جهة أخرى، يقول أبو هلال: «وتخيّر الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام، وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظوما من حروف سهلة المخارج كان أحسن له وأدعى للقلوب إليه... ومثاله ما أنشدنا عبيد الله بن طاهر لنفسه:

أَشَارَتْ بِأَطْرَافِ البَنَانِ المُخْضَبِ وَضَنَّتْ بِمَا تَحْتَ النِّقَابِ المكَتَّبِ

---

[1]- محمد عبد الرحيم عدس، فن الإلقاء، الأردن دار الفكر، ط1/1995، ص16.

[2]- زتسيلاف وورزنيال، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ترجمة: سعيد حسن بحيرى، ص87.

[3]- العسكري ، الصناعتين، ص147.

[4]- المصدر نفسه، ص29.

وَعَضَّتْ عَلَى تُفَّاحَةٍ فِي يَمِينِهَا بِذِي أُشُرٍ عَضْبٍ المَذَاقةِ أَشْنَبِ
وَأَوْمَتْ بِهَا نَحْوِي فَقُمْتُ مُبَادِراً إِلَيْهَا فقالَتْ هلْ سَمِعْتَ بِأَشْعَبِ

فهذا أجود شعر سبكا وأشدّه التئاما وأكثره طلاوة وماءً»[1]. وعلى هذا الأساس لاحظ العسكري أنّ من أكبر عيوب الكلام أن تتنافر الألفاظ وتتخالف الأطراف.

وبتقدير صاحب الصناعتين للفظ يذهب مذهب الجاحظ حينما غالى في الاهتمام به على حساب المعنى، وهذا ما أحدث تردّدا بين العلماء في قضية اللفظ والمعنى؛ إذ هناك من ألح على ضرورة إعطاء الأولوية للفظ قبل المعنى، وهناك من رأى العكس، ونجد من حاول الوقوف معها موقف التساوي في الأهمية؛ لأنّ مفهوم الصناعة يتوقّف على ذلك التوازي والتساوي[2]. وقد بيّن العسكري أنّ الشأن في البلاغة يرتبط باللفظ أكثر من المعنى؛ «لأنّ الكلام إذا كانت عباراته رثّة، ومعرضه خَلَقاً لم يسمّ بليغا, وإن كان مفهوم المعنى, مكشوف المغزى؛ ألا ترى إلى معنى الكاتب الذي كتب إلى بعض معامليه: قد تأخّر الأمر فيما وعدت حمله ضحوة النهار, والقوم غير مقيمين, وليس لهم صبري، وهم في الخروج آنفا، فإن رأيت في إزاحة العلّة مع الجهبذ فعلت إن شاء الله. فمعناه مفهوم ومغزاه معلوم, وليس كلامه ببليغ»[3].

وعلى هذا الأساس اهتم أبو هلال باللفظ، وخصّص له حيّزا واسعا، وجال وأفاض في ذكر صفاته المتنوّعة؛ كالجزالة والصحّة والسهولة والاستقامة والسلاسة وغيرها كثير. وهذا ما قد يجعل من «الصناعة ضربا من البناء الهندسي الذي يقوم على تخيّر الألفاظ تخيّرا دقيقا»[4]. فالمتكلّم عند تواصله مع الغير في سياق ما يتعيّن عليه حسن انتقاء الألفاظ ذات المزايا التي تجعلها مقبولة، وهذا الأمر لا يتحقّق إلا بالمعرفة الواعية باللغة باعتبار «أنّ اللغة هي رأس مال الكاتب وأسّ كلامه وكنز اتّفاقه من حيث قول رائع. إنّ الألفاظ قوالب للمعاني التي يقع التصرّف فيها بالكتابة، وحينئذ يحتاج إلى طول الباع فيها، وسعة الخطو، ومعرفة بسائطها من الأسماء والأفعال والحروف... إذ المعاني وإن كانت كامنة في النفس المعبّر فإنّما يقوى على إبرازها وإبانتها من توفر حظه من الألفاظ واقتداره على التصرّف فيها»[5].

وإنّما كان للفظ كل هذا الاهتمام لأنّ المظهر الأساس الذي تتجلّى به اللغة، إمّا نطقاً عبر اللسان الذي «أُعتبر الآلة التي يخرج الإنسان بها عن حدّ الاستبهام إلى حدّ الإنسانية، وعلى حسب قول هشام بن عبد الملك: إنّ الله رفع درجة اللسان

---

[1]- الصناعتين، ص147.
[2]- ينظر حبيب مونسي، نظرية الكتابة في النقد العربي القديم، ص47.
[3]- العسكري، الصناعتين، ص16.
[4]- حبيب مونسي، نظرية الكتابة في النقد العربي القديم، ص48.
[5]- القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص150.

فأنطقه من بين الجوارح بتوحيده»[1]. أو قراءةً إذا كان الاتّصال كتابيا، ويقتضي بالضرورة كتابة اللفظ بخطٍّ واضح؛ لأنّه «لسان اليد ورسول الضمير، ودليل الإرادة، والناطق عن الخواطر وسفير العقول، ووحي الفكر وسلاح المعرفة»[2]. ولا ننكر من قيمة الخط السليم في جعل المتلقّي يدرك بسهوله ما يريده الكاتب، فـ «الخط الجميل والواضح المقروء سيؤدّي وظيفته في نقل المعاني إلى الآخرين»[3].

فاللفظ يمكّن المتلقّي بعد سماعه أو قراءته من إدراك مقاصد المرسل، ومنه تبدأ عملية إنجاز الفعل الكلامي وإدراك مقاصده، والتي تتأسّس عليها بحوث التداولية. فالمعنى لا يتجلّى إلا بواسطته، لذلك ذكر ابن جني أنّه «لما كانت الألفاظ للمعاني أزِمَّة، وعليها أدلّة، وإليها موصِّلة، وعلى المراد منها محصِّلة، عُنيت العرب بها، فأولتها صدرا صالحا من تثقيفها وإصلاحها»[4]. والذي يعزّز هذه الوظيفة أنّ اللفظ هو الذي يجب أخذه بعين الاعتبار أثناء نظم الكلام وترتيبه؛ لكي تبين عن الأغراض التي يسعى إليها أي متكلّم, لذا «لما كانت الألفاظ عنوان المعاني وطريقها إلى إظهار أغراضها أصّلوها وزيّنوها وبالغوا في تحسينها، ليكون ذلك أرفع لها في النفس، وأذهب لها في الدلالة على القصد»[5].

ولما كانت للفظ هذه القيمة لاحظنا العسكري يركّز على "الاختيار" الذي يعني انتقاء المفردة المناسبة في المقام المناسب، وفق صفات حسنة تقتضيها الصناعة البليغة، باعتبار أنّ الشأن ليس في المعاني، و«إنّما هو في جودة اللفظ وصفائه وجزالته وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف. وليس يُطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفنا من نعوته التي تقدّمت»[6].

ومنه ندرك مع صاحب الصناعتين أنّ أساس الفعل الكلامي في أي اتّصال يعود للاختيار الذي يعد أساس نجاح الرسائل الإبلاغية مهما تنوّعت تجلياتها؛ ويعدّ هذا من الآليات التي تكشف عنها التداولية. يقول: «ومن الدليل على أنّ مدار البلاغة على تحسين اللفظ أنّ الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عُمِلت لإفهام المعاني فقط؛ لأنّ الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيّدة منها في الإفهام. وإنّما يدلّ حسن الكلام وأحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مبادئه، وغريب مبانيه على فضل قائله وفهم منشئه»[7]. ولكن كلّ

---

[1]- صالح خليل أبو أصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال المعاصر، ص242.
[2]- صالح خليل أبو أصبع، المرجع نفسه، ص243-244.
[3]- عبد الحميد جيدة، صناعة الكتابة عند العرب، ص123.
[4]- الخصائص، ج1، ص312.
[5]- القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص193.
[6]- ينظر العسكري، الصناعتين، ص63.
[7]- العسكري، الصناعتين، ص64.

هذه الصفات مرتبطة بصواب المعنى المعبّر عنه؛ لأنّ المتّصل مهما أجاد فلا بدّ أن يكون منطلقا من معنى مقبول في أي شكل من أشكال الاتّصال اللغوي، و«لهذا تأنّق الكاتب في الرسالة، والخطيب في الخطبة، والشاعر في القصيدة، يبالغون في تجويدها، ويغلون في ترتيبها، ليدلّوا على براعتهم، وحذقهم بصناعتهم. ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كدّا كثيرا، وأسقطوا عن أنفسهم تعبا طويلا»[1].

ومن القول السابق نلاحظ أنّ العسكري على أساس الاختيار يفرّق بين الكلام الفنّي الذي يجهد له الأديب ويكدّ، والكلام العادي الذي لا يحتاج إلى التأمّل أكثر. فالأديب تظهر براعته في انتقاء الألفاظ التي قد لا يتنبّه إليها المتكلّم العادي، وهي التي تضمن باصطلاح أرسطو الفنيّة التي «قد نجدها في نفس أي مبتكر باستطاعته أن يبتدع وسيلة من الوسائل التي تجعله يضفي جمالا على من ليس جميلا في ذاته، ولا موضعا للجمال»[2]. وما يريده العسكري أنّ الأدب ليس غايته الإفهام؛ فالمقصود هو «العمل الفنّي الذي يدلّ على ذاتية الأديب، وتبرز فيه شخصيته ومقدرته على التصرّف في الصورة، وإلباس الفكر ثوبا من الخيال تسمو به عن الواقع المألوف»[3].

ولكن هذا لا يعني التعقيد أو الغلو في الاختيار، فـ «الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا، وسلسا سهلا، ومعناه وسطا، دخل في جملة الجيّد، وجرى مع الرايع النادر، كقول الشاعر:

وَلَمّا قَضَيْنَا منْ مُنَى كلَّ حاجَةٍ وَمَسَّحَ بالأرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ المهارى رِحَالُنَا وَلَمْ يَنْظُرْ الغَادي الذي هو رايحُ
أَخَذْنَا بأَطْرَافِ الأَحَاديثِ بَيْنَنا وَسَالَتْ بأَعْنَاق المَطِيِّ الأَبَاطِحُ

فليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى، وهي رايقة معجبة. وإنّما هي "ولمّا قضينا الحج ومسحنا الأركان، وشدّت رحالنا مهازيل الإبل، ولم ينتظر بعضنا بعضا جعلنا نتحدّث وتسير الإبل في بطون الأودية"»[4]. فمن خلال الألفاظ السهلة التي ابتدعها الشاعر في السياق المذكور كشف الشاعر عن المعنى المقصود في معرض حسن أصاب به المراد، مما أضفى على المقطوعة جمالا فنيّا مقبولا. وهو على حسب تعبير "أوستين Austin" نشاط تلفظي ينقسم إلى ثلاثة أفعال صغرى، وهي كالتالي:

1-الفعل الصوتي Acte phonétique: وهو مجرّد إنتاج صوتي.

2-الفعل الانتباهي Acte phatique: وهو إنتاج الكلمات، يكون لها رصيد في المعجم، وتكون خاضعة لقواعد النحو والتركيب.

---

[1]- العسكري، المصدر نفسه، ص64-65.
[2]- أرسطو، فن الخطابة، ص27.
[3]- بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص169.
[4]- العسكري، الصناعتين، ص65.

3-الفعل الإحالي Acte rhétique: وهو استعمال هذه الكلمات في معنى معيّن مع تحديد مراجعها، باعتبار أنّ الدلالة هي المعنى والمرجع[1].

وحسب"أوستين Austin" هذه الأفعال الصغرى يكون لها فعلا تلفظيّا يحمل معنى معيّنا، وذلك بربط بعضها ببعض؛ فالفعل الصوتي يرتبط بالفعل الانتباهي؛ لأنّه «في العملية الكلامية لا بدّ أن تصدر متوالية من الأصوات تنتمي إلى لغة معيّنة. ويجب في هذه الأصوات أن تكون خاضعة ومطابقة للقواعد النحوية والتركيبية لهذه اللغة، وبذلك نضفي على هذه المتوالية معنى معيّنا»[2]. فالفعل الصوتي يقتضي بالضرورة ذلك الفعل الانتباهي والذي يستدعي هو الآخر الفعل الإحالي، فـ «إذا كان الفعل الانتباهي هو الكلام الوارد بعد فعل القول؛ أي ما نسميه بالخطاب المباشر، فإنّ الفعل الإحالي هو الخطاب غير المباشر»[3].

فالشاعر من خلال أبياته وظّف أفعالا قولية، أراد بها «إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء لغوي سليم، وذات دلالة»[4]. فتخيّر بذلك ألفاظا سهلة المخارج، تساعده أثناء عملية إلقاء الشعر. ولها دلالة إحالية؛ أي هي متضمّنة في الفعل الانتباهي، وعلى المتلقّي أن يدركها. ومعناه كان واضحا إلا أنّه باللفظ كان قويا؛ لأنّه حمل في مضمونه غاية تتعلّق بالتأثير. وهذا ما يُعدّ من خصائص الفعل الكلامي عند "أوستين Austin"، نوضّحها أكثر كالآتي:

-إنّه فعل دال.

-إنّه فعل إنجازي؛ أي ينجز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات, فالشاعر من ألفاظه أنجز فعلا لغويا له علاقة بمرجعيته، وهي أداء مناسك الحج في منى، وكيف تكون أوقاته.

-إنّه فعل تأثيري؛ أي يترك آثارا معيّنة في الواقع، خصوصا إذا كان فعلا ناجحا.

ويمكن القول تأسيسا على هذا الشرح إنّ هذه الألفاظ التي تخيّرها الشاعر قالها في زمن معيّن هو (الحج)، والمكان (منى). وهذا تقريبا ما اهتمت به التداولية من الدرجة الأولى، وضمنها كما يذكر "هانسون Hansson" يعمل الدارسون على «دراسة البصمات التي تسير إلى عنصر الذاتية في الخطاب، فهم يدرسون الأقوال والصيغ التي تتجلّى مرجعيّتها ودلالتها في سياق الحديث, وهي تعتبر أقوالا مبهمة إذا درسناها خارج السياق»[5]،كما تركّز اهتمامها أيضا على المتخاطبين والزمان والمكان.

---

[1]- ينظر علي أيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، ص68.

[2]- علي أيت أوشان، المرجع نفسه، ص68.

[3]- علي أيت أوشان، المرجع نفسه، ص68.

[4]- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، بيروت دار الطليعة للنشر والتوزيع، ط2005/1، ص41.

[5]- عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، الجزائر منشورات الاختلاف، ط2003/1، ص12.

ونظرا لهذه الطبيعة المضبوطة والدقيقة التي تقتضيها التداولية، والمتعلّقة أساسا بانتقاء اللفظ الملائم للموقف المعيّن، واستعماله استعمالا صحيحا ذي المقصد المضبوط، لاحظنا إصرار العسكري على هذه المعطيات، لذا تنوّعت أحكامه في معالجة هذه القضايا، فقال: «الكلام إذا كان لفظه غثّا، ومعرضه رثّا، كان مردودا ولو احتوى على أجلّ معنى وأنبله، وأرفعه وأفضله، كقوله:

لَمَّا أَطْعَنَاكُمْ فِي سُخْطِ خَالِقِنَا لاَ شكَّ سَلَّ عَلَيْنَا سَيْفَ نِقْمَتِهِ»[1].

فالآليات التداولية تتنافى مع اللفظ الغثّ غير المناسب، والمعرض المردود، لذلك ركّز على ما يحقّق القبولية لدى المتلقّي، ويدفع عنه المستكره غير المقبول. يقول العسكري: «والشعر كلام منسوج ولفظ منظوم، وأحسنه ملا تلاءم نسخه ولم يسخف، وحسن لفظه ولم يهجن، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفا بغيضا، ولا السوقي من الألفاظ فيكون مهلهلا دونا»[2].

ومعظم هذه النعوت المتعلّقة بتخيّر اللفظ أشار إليها العلماء قبل أبي هلال وبعده، ونخصّ بالذكر ما ورد في صحيفة بشر بن المعتمر الذي كان يركّز على ضرورة «أن يكون لفظك رشيقا عذبا، فخما سهلا»[3]. ويمكن أن نوضّح ذلك في الشكل الآتي:

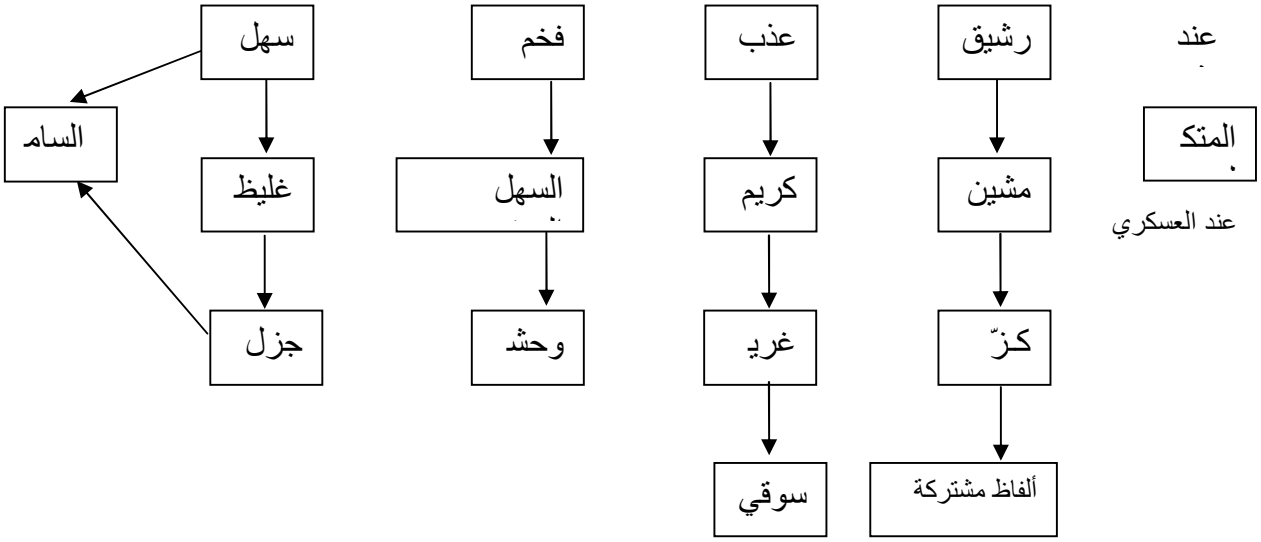

إنّ المبدأ العام والإطار النظري الذي طرح فيه العسكري آراءه التي تخصّ اللفظ المتخيّر كان ماثلا عند الجاحظ أيضا، والذي قدّم الكثير من الآراء التي تخدم ذلك، وما كان يقصده هو العلاقات التي ينظّمها المحور الإفرادي؛ أي «إفهام المتكلّم, وذلك باختيار الألفاظ وهو محور البيان؛ أي إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة»[4].

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص73.
[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص66.
[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص135-136.
[4]- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ص255.

ولكنّ هذا المحور ليس محصورا في الإفهام فقط؛ بل يتعدّى ذلك في الاتّصال الفنّي، فالكتابة الفنيّة «هي الكتابة التي تصدر على السليقة لا يقصد فيها صاحبها مجرّد الإفهام، وإنّما أردت الكتابة التي تروي صاحبها في تجويد المعنى، وتأنّى في اختيار اللفظ قبل إبرازها، لتخرج مخيّرة مجوّدة؛ لأنّه لا يقصد منها الإفهام وحده، وإنّما يقصد أيضا إثارة اللذّة عند القارئ والإحساس بالجمال»[1].

ومن بين العلماء الذين أشاروا أيضا إلى قضية التدقيق في اللفظ بمراعاة الصفات التي تضمن له الحسن والقبول ابن رشيق القيرواني، يقول: «فاللفظ أغلى من المعنى ثمنا، وأعظم قيمة، وأعزّ مطلبا. فإنّ المعاني موجودة في طباع الناس سوى الجاهل فيها، ولكن الجمل على جودة الألفاظ وحسن السبك، وصحة التأليف»[2]. فهو بذلك يركّز على اللفظ، وقدّره أكثر من المعاني؛ لأنّها ماثلة في طباع الناس ومتداولة بينهم، ويستطيع أي فرد أن يعرفها، ولكنّ الشأن ههنا يكون في كيفية انتقاء الألفاظ التي تعبّر عن المعنى المعيّن، وهو مطلب أساسي في العمل الأدبي الذي يقتضي جودة اللفظ، وحسن سبكه وتأليفه.

أما ابن سنان الخفاجي فانطلق من اللفظ لكي يحدّد سرّ الفصاحة في الكلام، يقول: «إنّ الفصاحة على ما قدّمنا نعت الألفاظ إذا وُجدت على شروط عدّة؛ ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ. وبحسب الموجود منها نأخذ القسط من الوصف، وبوجود أضدادها تستحق الإطراح والذم»[3]. ونشير ههنا إلى أنّه بيّن المقاييس المقبولة، والتي تضمن لها ما يسمى بالفصاحة، وقد حدّدها في ثمانية أشياء نجمعها في المخطط التالي[4]:

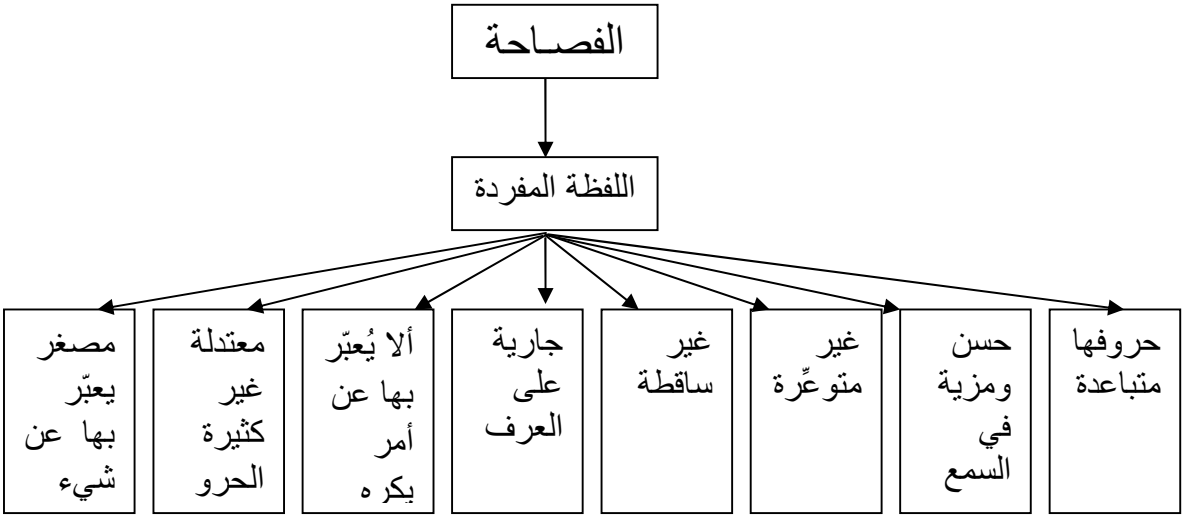

[1]- حسين نصار، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي القديم، بيروت مكتبة الثقافة الدينية، (د.ت)، ص9.
[2]- العمدة، ص93-94.
[3]- سر الفصاحة، ص53,
[4]- الخفاجي، المصدر نفسه، ص54-79.

وقد ذكر بعض الدارسين أنّ هذه المقاييس فضفاضة تجاوزت المعهود من شروط الفصاحة في المفرد، وكانت موضع انتقاد قديما وحديثا، فإذا كان بعض هذه الشروط متّفقا عليه، ويقوم على ضوابط لغوية دقيقة، فإنّ بعضها الآخر نسبي يمكن أن يختلف في تقدير الناس[1].

وركّز أيضا على هذه القضية ابن الأثير (ت637هـ)، يقول: «اعلم أنّه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء؛ الأوّل منها: اختيار الألفاظ المفردة، وحكم ذلك حكم اللآلئ المبدّدة، فإنّها تُتخيّر وتُنتقى قبل النظم. الثاني: نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها؛ لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منها بأختها المشاكلة لها. الثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه، وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم»[2]. فالعقد يستمدّ جماله الأوّلي من اللؤلؤة حينما تنتقى بدقّة لتنتظم مع غيرها انطلاقا من علاقات معيّنة، وكذلك الشأن في اللفظة المختارة بدقّة؛ فهي أيضا تدخل في التأليف بحسب ما يقتضيه التناسب بين المفردات في التركيب من جهة، وما يقتضيه المقام من جهة أخرى، فـ «حكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم، فتارة يجعل إكليلا على الرأس، وتارة يجعل قلادة في العنق، وتارة يجعل شنقا في الأذن. ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصّه»[3]. وأي إخلال في موضع من المواضع التي يقتضيها كلّ عقد سيؤدّي إلى افتقاد خاصية الجمالية، والأمر نفسه في الكلام الذي لابدّ أن يلائم المعنى المقصود.

وقد عبّر القلقشندي صراحة على قيمة الألفاظ في إظهار المعاني؛ إذ يقول: «ولما كانت الألفاظ عنوان المعاني وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحوها وزيّنوها، وبالغوا في تحسينها لتكون أوقع لها في النفس، وأذهب بها في الدلالة على القصد»[4]. فقد اعتبر الألفاظ بمثابة الكاشف عن المعنى، وهي الكفيلة بإبراز الغرض الذي يطمح المتكلّم إلى تحقيقه.

ج-حسن التصرّف:

إذ حثّ العسكري المتكلّم على أن يكون متمكّنا من جميع ضروب الكلام، فإذا كان كاتبا يجب أن يتقن فنون الكتابة؛ لأنّ الكلام يبرز قدرات المتكلّم العقلية وسننه الفكرية[5]. وقد علّل ذلك بقوله: «وهو أن يكون صانع الكلام قادرا على

---

[1]- ينظر الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، ص15، وحمادي صمود، التفكير البلاغي أسسه وتطوّره إلى القرن السادس، ص444.

[2]- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1939، ص142.

[3]- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص142.

[4]- صبح الأعشى، ج2، ص193.

[5]- محمد الكشاش، علل اللسان وأمراض اللغة رؤية لغوية إكلينكية وانعكاساتها الاجتماعية، بيروت المكتبة العصرية، ط1، 1998، ص122.

جميع ضروبه، متمكّنا من جميع فنونه، لا يعتاص عليه قسم من جميع أقسامه، فإن كان شاعرا تصرّف في وجوه الشعر مديحه وهجائه ومراثيه، وصفاته ومفاخره وغير ذلك من أصنافه... وكذلك الكاتب ربّما تقدّم في ضرب من الكتابة، وتأخّر في غيره، وسهل عليه نوع منها وعسر نوع آخر»[1]. ولكي يشرح ذلك ذكر أمثلة لذلك؛ إذ بيّن أنّه «لاختلاف قوى الناس في الشعر وفنونه ما قيل؛ كان امرؤ القيس أشعر الناس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب»[2]. فأبو هلال يثبت أنّ الشعراء تفاوتوا في نظمهم كلّ حسب موضعه، ليبقى لديه «المقدّم في صنعة الكلام هو المستولى عليه من جميع جهاته، المتمكّن من جميع أنواعه»[3].

فالمرسل المتمكّن هو المتقن لأشكال الاتّصال مهما تنوّعت، والأبلغ من هذه المنزلة «أن يكون في قوة صانع الكلام أن يأتي مرّة بالجزل، وأخرى بالسهل، فيلين إذا شاء، ويشتدّ إذا أراد. ومن هذا الوجه فضّلوا جريرا على الفرزدق، وأبا نواس على مسلم، قال جرير:

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ القُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا ... وَقْتَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلاَمِ
تُجْرِي السِّوَاكَ على أَغَرَّ كأنّهُ ... بَرَدٌ تَحدَّرَ من مُتُونِ غَمَامِ

فانظر إلى رقّة هذا الكلام»[4]. فصانع الكلام البليغ هو الذي يستطيع أن ينوّع في لغة رسالته، فيأتي في الموضوع الواحد بالجزل أو السهل أو المعقّد أو غير ذلك.

وكل هذه المعطيات لا تتم إلاّ بالتجربة والمعرفة الواعية باللغة ومقتضياتها عبر أشكال الاتّصال، يقول أبو هلال: «قال الحسن بن سهل لكاتبه الحرّاني: ما منزلة الكاتب في قوله وفعله؟ فقال: أن يكون مطبوعا محتنكا بالتجربة، عالما بحلال الكتاب والسنّة وحرامهما، وبالدهور في تداولها وتصرّفها، وبالملوك في سيرها وأيامها، مع براعة اللفظ وحسن التنسيق، وتأليف الأوصال، بمشاكلة الاستعارة، وشرح المعنى؛ حتى ينصب صورَها؛ وبمقاطع الكلام، ومعرفة الفصل من الوصل؛ فإذا كان ذلك كذلك فهو كاتب مجيد»[5]. فالمتّصل البليغ من تمتّع بالكفاءة التي تمكّنه من التحكّم في بناء أفعاله الكلامية، بحسب ما يقتضيه الموضوع من جهة، والموقف الاتّصالي من جهة أخرى.

د-مراعاة المتلقّي:

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص29.
[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص29.
[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص29-30.
[4]- العسكري، المصدر نفسه، ص30.
[5]- المصدر نفسه، ص461.

ويقصد به العسكري المشاركون في عملية الاتّصال؛ إذ يطلب من المتكلّم أن يراعي الطبقة التي يلقي إليها خطابه، فلا «يكلّم سيّد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة؛ لأنّ ذلك جهل بالمقامات، وأحسن الذي قال لكل مقام مقال»[1]. فالكلام لا يُنتَج إلا في إطار مقام معيّن، وفق طبقة المتلقّين؛ إذ ليسوا على درجة واحدة من حيث المعرفة والثقافة والهيبة وغير ذلك.

والمقام كما حدّده "كوست G.Coste" هو «مجموعة شروط إنتاج القول، والشروط الخارجة عن القول ذاته، فالقول يُجعل في وسط (مكان) واللحظة (زمن) الذي يحصل فيه»[2]. لذا تبقى القبولية لأي اتّصال مرتبطة بذلك، يقول بشر بن المعتمر: «وإنّما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال»[3]. ولا يتحقّق هذا أيضا إلا بكفاءة المتكلّم التي تمكّنه من هذه الموافقة، لذا كان من الضروري على المرسل «أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسّم أقدار الكلمات على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»[4]. فالمتكلّم والمتلقّي والمقام من المؤطّرات الأساسية للعملية الإنتاجية للغة التي لا تقتضي التكامل والتفاعل حتى يُكتب لها النجاح.

ومفهوم العامة والخاصة التي قصدها البلاغيون بصفة عامة، والعسكري بصفة خاصة «ينصرف إلى زاويتين؛ السياسية والاجتماعية، وهما زاويتان واجب مراعاتهما في فن الخطابة، والمخاطبات العادية في الاستعمال اليومي، وتراعى الزاوية الأولى من حيث المعاني والألفاظ»[5]، وهذا ما قصده أبو هلال بقوله "لا يكلّم سيّد الأمة بكلام الأمة". أما الزاوية الاجتماعية فإنّها تراعى من حيث الألفاظ، بحيث لا تستخدم المفردات الغريبة أو غير المفهومة[6]، وصاحب الصناعتين حذّر الخطيب من أن يستعمل الكلمات الغريبة؛ لأنّ «الغريب لم يكثر في الكلام إلاّ أفسده، وفيه دلالة الاستكراه والتكلّف»[7].

والغاية من مراعاة المقام في نظر العسكري ترتكز في أساسها على تحقيق الإبلاغ وإحراز المنفعة من الخطاب اللغوي، لذلك كان من «الواجب أن تقسّم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيُخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما يعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص33.

[2]- جيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 1992، ص41.

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص136.

[4]- الجاحظ، المصدر نفسه، ج1، ص138-139.

[5]- جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص22.

[6]- جميل عبد المجيد، المرجع نفسه، ص22.

[7]- الصناعتين، ص9.

الخطاب»[1]. وهذا ما أشار إليه قدامة بن جعفر أيضا؛ إذ يقول: «وإنّما مثل من كلّم إنسانا بما لا يفهمه وبما يحتاج إلى تفسير له كمثل من كلّم عربيا بالفارسية؛ لأنّ الكلام إنّما وُضع ليعرف به السامع مراد القائل، فإذا كلّمه بما لا يعرفه فسواء عليه ذلك بالعربية أم بغيرها»[2]. فقدامة يحذّر المرسل من أن يوظّف ألفاظا مبهمة غير متداولة، فمثله كمن يكلّم بغير تلك اللغة، وهذا ما قد يحدث الفوضى في التواصل، وقد يتسبّب في قطعه قطعا باتا، فلا يحصل الفهم والإفهام، وبالتالي لا يحقّق مقصده من الرسالة، والمرسل إليه لا يجني أي فائدة.

وحسب العسكري صاحب الصنعة هو الذي بمقدوره أن يحقّق هذا التوافق، فينتقي الألفاظ التي تتناسب مع الأوضاع المختلفة في أي زمان أو مكان. وطالما «أنّ الحياة تتغيّر والمقامات تتطوّر فيجب على المتكلّم مراعاة الزمان؛ لأنّ لكل زمان كلاما، وبهذا يكتسب الحيوية والدينامكية ويرتفع شأنه»[3]. فالكفاية الاتّصالية الاتّصالية هي التي تمكّن المتكلّم من التحكّم في أشكال الاتّصال مهما تنوّعت، وفي أي زمان أو مكان.

هـ-الدقة في المعاني:

وعلى الرغم من اهتمام العسكري باللفظ والصنعة اللفظية ككل، فإنّ هذا لا يعني أن لم يول المعنى العناية المنوطة به، فذكر أنّ «من شرط البلاغة أن يكون المعنى مفهوما واللفظ مقبولا»[4]. فالمعنى هو أساس الاتّصال فلا يمكن أن نتصوّر نتصوّر لفظا من دونه، فالألفاظ أجساد والمعاني أرواح.

لكنّ أبا هلال حذّر المرسل في بعض الأحيان من التدقيق في المعنى؛ لأنّه قد يؤدّي إلى فشل عملية الاتّصال، فلا تحصل الفائدة، يقول: «ولا يدقّق المعاني كل التدقيق؛ لأنّ الغاية في تدقيق المعاني سبيل إلى تعميته، وتعمية المعنى لُكنة»[5]. فلا بدّ من الإبانة عن المعنى المقصود من دون مغالاة في تخيّر اللفظ؛ لأنّ ذلك قد يؤدّي إلى الإبهام الذي يتنافى مع الإفصاح التي يقتضيها الاتّصال. ولكن «إذا أريد به الألغاز، وكان في تعميته فائدة؛ مثل أبيات المعاني، وما يجري معها من اللحون التي استعملوها، وكنّوا بها عن المراد لبعض الغرض»[6]. فالتدقيق أو التكنية جائزان في الحالات التي تتطلّب ذلك حيث يكون ذلك من البلاغة، فـ «البليغ من يحوك الكلام على حسب الأماني، ويخيط الألفاظ على قدود المعاني»[7].

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص35.
[2]- نقد النثر، ص105.
[3]- محمد كشاش، علل اللسان وأمراض اللغة رؤية لغوية إكلينيكية وانعكاساتها الاجتماعية، ص115.
[4]- العسكري، الصناعتين، ص16.
[5]- العسكري، الصناعتين، ص35.
[6]- العسكري، المصدر نفسه، ص35.
[7]- طراد الكبيسي، في الشعرية العربية قراءة جديدة في نظرية قديمة، ص47.

ولكن تبقى معظم أشكال الاتّصال مرتبطة بالإيضاح، ولذا «من أراد الإبانة في مديح أو غزل أو صفة شيء فأتى بإغلاق دلّ ذلك على عجزه عن الإبانة، وقصوره عن الإفصاح»[1].

ونظرا لأهمية المعنى في الإبلاغ خصّص العسكري فصلا نبّه فيه إلى ضرورة المعرفة الدقيقة بكيفية استعماله حتى لا يقع المتكلّم في الخطأ، وقد سمّاه "في التنبيه على خطأ المعاني وصوابها، ليتبع من يريد العمل برسمنا مواقع الصواب فيرتسمها، ويقف على مواقع الخطأ فيتجنّبها"، مبيّنا في مبدأ الأمر أنّ «الكلام ألفاظ تشتمل على معانٍ تدلّ عليها، ويعبّر عنها فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة كحاجته إلى تحسين اللفظ؛ لأنّ المدار بعد على إصابة المعنى، ولأنّ المعاني تحلّ من الكلام محلّ الأبدان والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة»[2]. فهو يؤكّد صراحة أنّ الاتّصال لا يمكن أن يتم من دون ارتباطه بمعنى معين يتعلّق بالمقصد الذي يريده المتكلّم، ومستحيل أن نجد فعلا صوتيا من دون فعل انتباهي يحيلنا لا محالة إلى فعل إيحائي على حدّ تعبير "أوستين Austin"، فـ «الفعل الكلامي نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداولية، وفحواه أنّه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري»[3]. فأفعال الكلام تتحقّق أثناء التلفظ بجملة ما، تمثّل في حدّ ذاتها الوظيفة الدلالية لهذه الجملة[4].

وبالرغم من أنّ العسكري قد ركّز على اللفظ، كما كان شائعا عند سابقيه مثل الجاحظ، إلا أنّه قد اهتم بالمعنى أيضا، غير «أنّ مسار بحث العنصرين عنده لا يأخذ هاجس التقصّي عن أوجه ائتلافهما أو تشاكلهما بقدر ما ينبسط في تحديد كل طرف يتبدّى فيه المعنى خصوصا في وضع المادة المرتّبة بالمعرض الحسن»[5]. والسرّ يعود إلى الغاية التي أُلّف على أساسها هذا الكتاب وهو بيان كيفية صناعة الكلام التي لا تقف عند حدود اللفظ؛ إذ «لا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه، ولا في غرابة المعنى إلا إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى، وظهور المقصد»[6]. فلا بدّ من الإجادة في اللفظ والمعنى معا بحسب المواصفات الحسنة التي تسهم في تحقيق البلاغة. و«يبقى موقفه الذي يتأكّد جمعه المعنى واللفظ قائما بحسب المواصفات التي حدّدت، وهو رأيه في صنعة الكلام؛ إذ

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص36.

[2]- العسكري المصدر نفسه، ص75.

[3]- مسعود صحراوي، التداولية عند العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ص40.

[4] Voir John Searle, les actes de langage, p :52 « l'acte de langage ou les actes de langage réalise dans l'énonciation d'une phrase, sont fonction de la signification de la phrase en question ».

[5]- الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، ص99.

[6]- العسكري، الصناعتين، ص66.

بالرغم من أنّه يعتمد على نصوص أوردها الجاحظ لبعض البلاغيين, وعلى رأي ابن طباطبا خصوصا فإنّ ما أورده منها ينسجم مع أطروحاته»[1]. لذا وجدنا العسكري في معظم حلقات مصنّفه لا يذكر اللفظ أو صفاته إلاّ ويربطه بالمعنى.

فصناعة الكلام تقتضي وضوح المعنى أولا في نفس المتكلّم، ثم تخيّر الألفاظ التي تعبّر عنه. وقد لاحظنا العسكري في هذا الأساس يطلب من المتكلّم تحرّي اللفظ والمعنى الشريفين، والابتعاد عمّا يدنّسهما، يقول: «ومن أراع معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإنّ حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقّهما أن يصونهما عمّا يدنّسهما ويفسدهما ويهجنهما، فتصير بهما إلى حدّ تكون فيه أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس منازل البلاغة»[2].

وضمن هذه القضية حاول أن ينصح المرسل بما يساعده على عدم الوقوع في الزلل والخطأ؛ إذ قال: «كن في ثلاث منازل ؛ فأول الثلاث أن يكون لفظك شريفا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا، فإن كانت هذه لا تواتيك ولا تسنح لك عند أول خاطر، وتجد اللفظة لم تقع موقعها، ولم تصل إلى مركزها... فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها، فإنّك إن لم تتعاط قريض الشعر المنظوم، ولم تتكلّف اختيار الكلام المنثور،لم يعبك بذلك أحد، وإن تكلّفته ولم تكن حاذقا مطبوعا، ولا محكما لشأنك بصيرا، عابك من أنت أقل عيبا منه، وزرى عليك من هو دونك»[3]. فالعسكري ضمن هذه المنزلة يطلب من المتكلّم إن لم تكن له الكفاءة المتنوّعة والكافية التي تمكّنه من صناعة الكلام في سهولة ويسر أن لا يتكلّف في إنجاز رسالته الكلامية حتى لا يعيبه من هو أقل شأن منه.

أما المنزلة الثانية فيوصيه بالتريّث حتى تسمح له نفسه بصناعة الكلام؛ «فإن ابتليت بتكلفة القول، وتعاطي الصناعة، ولم تسمح لك الطبيعة في أول وهلة، وتعصى عليك بعد إجالة الفكرة، فلا تعجل، ودعه سحابة يومك ولا تضجر، وأمهله سواد ليلتك، وعاوده عند نشاطك، فإنّك لا تعدم الإجابة والمواتاة»[4]. فنشاط الإنسان ليس في درجة واحدة فقد يحضره بقوة في فترة ما، وقد يغيب عنه في أخرى، والإقبال على إنتاج الكلام يكون أكثر مع الرغبة، لذلك نصّ أبو هلال في «المنزلة الثالثة أن تتحوّل من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفّها عليك، فإنّك لم تشتهها إلا وبينكما نسب. والشيء لا يحن إلا إلى ما شاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات فإنّ النفوس لا تجود بمكنونها، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود مع الرغبة والمحبّة»[5].

---

[1]- الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، ص101.
[2]- الصناعتين، ص141.
[3]- المصدر نفسه، ص141.
[4]- العسكري، الصناعتين، ص142.
[5]- المصدر نفسه، ص142.

ومنه نلاحظ أنّ أبا هلال قد اهتم باللفظ والمعنى معاً، فبهما يتحقّق الكلام الجيّد والمقبول، لذا ألفناه يطلب الصواب والوضوح فيهما في إنجاز أي رسالة إبلاغية، وهذا ما يعكس شمولية البلاغة لديه، وهذا ما كان بمثابة خيط خفي «يلحم أطروحات العسكري المختلفة، يتبدّى بوضوح في القناعة الواحدة التي تحكم بحثه "اللفظ والمعنى"، ومدخله التأسيسي الضابط لعلائق الفصاحة والبلاغة»[1].

وليدقّق أكثر في قضية المعنى بيّن أنّ «المعاني على ضربين؛ ضربه يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدي به فيه، أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها، وهذا الضرب ربّما يقع عليه عند الخطوب الحادثة، وينتبه له عند الأمور النازلة الطارئة. والآخر ما يحتذيه على مثال تقدّم ورَسْمٍ فَرَطٍ»[2]. وهو بذلك يطرح شكلين من الاتّصال؛ العادي الذي يكون فيه المتكلّم مرتبط بما هو متداول في البيئة اللغوية المعيّنة، والإبداعي الذي يحاول فيه صاحب الصناعة أن يتجاوز ما هو معروف، ولا يتم إلا عند الخطوب الحادثة، ويتنبّه له عند الأمور النازلة. وهو بذلك ينتبه إلى العامل النفسي، وأثر الانفعال في ابتكار المتكلّم للمعاني، وهو في حالة فرح أو حزن أو ما شابه ذلك[3].

ولكن مهما تعدّدت أشكال الابتداع أو الإتباع فإنّها تبقى مرتبطة بما هو مقبول في اللغة المعيّنة، لذا ينبغي الإصابة في جميع ذلك، ويتوخّى فيه الصورة المقبولة والعبارة الحسنة والجيّدة.

و-الاعتدال في اللفظ:

ونلمس هذا من قوله: "ولا ينقّح الألفاظ كل التنقيح، ويصفيها كل التصفية، وهذّبها كل التهذيب"، فالتكلّف في ذلك قد يوقع المرسل في التعقيد والتعمية. و«تنقيح اللفظ أن يبنى منه بناءً لا يكثر في الاستعمال. كما قال بعضهم لبعض الوزراء "أحسن الله إبانتك"، فقال له الوزير "عجّل الله إماتتك". ويدخل في تنقيح اللفظ استعمال وحشيه، وترك سلسه وسهله. وقد أخذ الرواة على زهير قوله:

نَقيّ تَقِيّ لم يُكثِّر غنيمة بنُكْهَةِ ذي القُرْبى ولا بحَقَلّد

فاستشبعوا الحقلد، وهو السيئ الخلق، وقالوا ليس في لفظ زهير أنكر منه»[4]. فالعدول عن سلس الألفاظ وسهلها إلى استعمال المفردات الوحشية والغريبة قد تؤدّي إلى الغموض والإبهام، وعدم فهم المعنى المقصود، وبالتالي عدم يعجز المتلقّي عن جني الإفادة من الكلام. لذا «قد يحلو لبعض الناس استعمال الوحشي والغريب، ظنّا منهم أنّهما رمزا ثقافة وعنوانا دراية، ولكنّ الجنوح عن المأنوس

---

[1]- الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، ص98.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص75.
[3]- ينظر بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص151.
[4]- العسكري، الصناعتين، ص39.

إلى الغريب الوحشي يعتبر عيبا في السلوك اللغوي»[1]. وكلّ هذا يدعو إلى ضرورة استعمال الكلام الواضح والابتعاد عن التوعّر.

وهذا ما أقرّه أبو هلال استنادا إلى صحيفة بشر بن المعتمر الذي حذّر من التكلّف والتعقيد؛ إذ يقول: «وإيّاك والتوعّر؛ فإنّ التوعّر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك، ومن أراع معنى كريما فليلتمس له معنى كريما، فإنّ حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقّهما أن يصونهما عمّا يدنّسهما ويفسدهما ويهجّنهما»[2].

والتأمّل في هذا التوضيح يدعونا إلى التسليم «بأنّ الفكر العربي قام على الوضوح والبيان والتبيين، وأنّ سبل الكلام إنّما مهّدت خدمة لهذه الغاية، وكل شيء يعترض سيرها الحسن، ويعيق عطاءها الوافر فهو مردود منبوذ»[3]. فالوضوح كان المقياس الذي تقاس به أشكال القول، وبالتالي فـ «ما مطلب السهولة في الألفاظ إلا لينهي الوضوح إلى المعنى، ويشبع فيه حتى يأخذ التبليغ قسطه من الفاعلية»[4]؛ لأنّ المتكلّم يسعى عبر كلامه إلى الإفصاح عن فكرة معيّنة، فيختار لها من اللغة ما يراه لبوسا وافيا يؤدّي حقّها[5]. ولكّنه إذا استعمل الوحشي من الألفاظ قد لا يتسنّى له الإفصاح عن معناه إلى السامع؛ لأنّها لا تؤدّي وظيفتها على الوجه الحسن، وقد «تصرفها عن قصدها بسبب التشويش الحاصل من الثرثرة والحشو، ذلك هو قصد المنظّر حين يشير إلى المعنى المقصود " Sens intenté"»[6]. فالمتلقّي قد ينفر من الجمل التي تحمل الألفاظ الوحشية، وهذا وهذا ما يجب أن يراعيه البليغ حتى يبلغ مقصده، ويجعل السامعين يفهمون بيسر ما يقوله.

والحرص على الوضوح في التعبير كان ثابتا لدى البلاغيين منذ القدم؛ إذ كان ابن المقفع يستحسن الألفاظ العذبة، وينفر نفورا شديدا من الغرابة في اللفظ والتوعّر فيه، لذلك كان ينصح من حوله بتجنّب هذا فيقول: «إيّاك والتتبّع لوحشي الكلام طمعا في نيل البلاغة، فإنّ ذلك هو العيُّ الأكبر»[7]. فنيل البلاغة لا لا تكون بالتعقيد في المفردات وتركيبها، فذلك هو العيب في أساسه، لكن إذا أردت أن تكون بليغا فـ «عليك بما سَهُل من الألفاظ، مع التجنّب لألفاظ السفلة»[8]. السفلة»[8]. وهو بهذا يقدّم مقياسا نفيسا يرتكز عليه المرسل في تخيّر مفرداته؛ إذ يدعوه إلى استعمال السهل من جهة، وعدم النزول إلى الأسفل من جهة أخرى.

---

[1]- محمد كشاش، علل اللسان وأمراض اللغة، ص111.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص140.
[3]- حبيب مونسي، نظرية الكتابة في النقد العربي القديم، ص84.
[4]- حبيب مونسي، المرجع نفسه، ص86.
[5]- ينظر حبيب مونسي، النص الأدبي بين الترجمة والتعريب، الجزائر دار الغرب للتوزيع، 2005، ص60.
[6]- حبيب مونسي، المرجع نفسه، ص60.
[7]- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، مصر دار المعارف، ط1971/6، ص143.
[8]- شوقي ضيف، المرجع نفسه، ص143.

إنّه يطرح فكرة التوسّط، وهذا ما دفعه إلى أن يدرس الألفاظ، ويختبرها ويقارن بينها ويفاضل، حتّى يظفر منها بما يستوفي معانيه من جهة أولى، وما يتيح لها ضربا من البلاغة من جهة ثانية[1].

فالبلاغة تتنافى مع الإبهام والتكلّف؛ لأنّ استعمال الوحشي قد لا يؤدّي إلى إبلاغ المعنى، سواء أكان ذلك في الشعر أم النثر. فبلاغة الشعر تقتضي «أن يكون نحوه مقبولا، والمعنى من كل ناحية مكشوفا، واللفظ من الغريب بريئا»[2]. والأمر نفسه يحضر في النثر الذي يقتضي «أن يكون اللفظ في متناولا والمعنى مشهورا، والتهذيب مستعملا»[3]. فأشكال الاتّصال مهما تنوّعت تبقى مرتبطة بالإيضاح والابتعاد عن الغرابة والتوعّر.

ولتحقيق ذلك لاحظنا العسكري يدعو البليغ، ويحثّه على تصفية ألفاظه كل التصفية من النعوت التي لا تضمن له الإفصاح عن المراد، وذلك بقوله: «فتصفيته تعريته من الوحشي، ونفي الشواغل عنه، وتهذيبه تبرئته من الرديء المرذول، والسوقي المردود»[4]. فالتصفية تساعده على تبليغ معناه في أحسن صورة، ومثاله «قول بعض الكتاب: مثلُكَ أوجبَ حقّا لا يجب عليه، وسمح بحقٍّ وجب له، وقَبِل واضِحَ العُذْر، واستكثر قليل الشكر، لا زالت أياديك فوق شُكْر أوليائك. ونعمةُ الله عليك فوق آمالهم فيك. ومثله قول آخر: ما انتهى إلى غاية من شكرك إلاّ وجدت وراءها حادثا من بَرِّك، فلا زالت أياديك ممدودة بين آملٍ فيك تُبَلِّغه، وأمل فيك تحقّقه، حتى تَتَمَلَّى من الأعمار أطوَلها، وتنال من الدرجات أفضلها»[5]. فقد اعتبر هذا الكلام صافيا ومهذّبا، لوجود ألفاظ مستعملة (أوجب، سمح، آمل، أمل)، وهي كلّها مناسبة للغرض الذي وُظّفت فيه.

وبعد تحديد العسكري للشروط التي يجب أن تكون في المتكلّم في الاتّصال العادي، والخطوات التي يتّخذها ليبلّغ رسالته في صورة مقبولة ومعرض حسن؛ من "تخيّر اللفظ وإصابة المعنى، والاعتدال فيها" انتقل إلى فكرة أخرى ترقى بالمتّصل إلى اتّصال من نوع خاص، يجيز له استعمال النادر وحذف فضول الكلام وغير ذلك، ويكون هذا مع طبقة معيّنة من المستقبلين؛ إذ يقول: «ولا يفعل ذلك حتى يلقى حكيما، وفيلسوفا عليما، ومن تعوّد حذفَ فضول الكلام، ومشتركات الألفاظ، ونظر في المنطق على جهة الصناعة فيها، لا على جهة الاستطراف والتطرّف لها»[6]. فالمتكلّم إذا قابل فيلسوفا أو عالما متمرّسا في اللغة جاز له ما لم يجز مع البسطاء من المستقبلين؛ إذ «ينبغي أن يتكلّم بفاخر الكلام،

---

[1]- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص143.
[2]- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج2، ص141.
[3]- أبو حيان التوحيدي، المصدر نفسه، ج2، ص141.
[4]- الصناعتين، ص37.
[5]- العسكري، المصدر نفسه، ص37.
[6]- العسكري، الصناعتين، ص37-38.

ونادره ورصينه ومحكمه، عند من يفهمه ويقبله منه ممن عرف المعاني والألفاظ علما شافيا، لنظره في اللغة والإعراب والمعاني على جهة الصناعة»[1]. فهذه الفئة يجب على المرسل أن يعرف كيف يتواصل معها بقدرته على تجاوز حدود الإفهام إلى الإمتاع بالبناء اللغوي الفنّي، باعتبار أنّ البلاغة تكون ههنا «زائدة على الإفهام الجيّد بالوزن والبناء، والسجع والتقفية، والحلية الرائعة، وتخيّر اللفظ، واختصار الزّينة بالرقّة والجزالة والمتانة، وهذا الفن لخاصة النفس؛ لأنّ القصد فيه الإطراب بعد الإفهام والتواصل إلى غاية ما في القلوب لذي الفضل بتقويم البيان»[2].

ومما تقدّم نرى أنّ العسكري قد فرّق بين صنفين من المرسلين، كلّ صنف يقتضي طريقة معيّنة في الاتّصال، ونهى من أن يخاطِب المتكلّم بما لا يتناسب مع المتلقّين، يقول: «لا كمن استطرف شيئا منها، فنظر فيه نظرا غير كامل، أو أخذ من أطرافه، وتناول من أطراره، فتحلّى باسمه، وخلا من وَسْمِه، فإذا سمع لم يَفْقَه، وإذا سئل لم يَنْقَه»[3]. ففي هذه الحالة ستكون الرسالة فاشلة, ولا تحقّق مقصدها؛ لأنّ المعنى لن يبلغ إلى السامع, لأنّه ليست له القدرة على أن يفكّ رموز تلك الرسالة, وهذا ما عبّر عنه بقوله: «وإذا تكلّم عند من هذه صفته، ذهبت فائدة كلامه، وضاعت منفعة منطقه، لأنّ العامي إذا كلّمته بكلام العِلْيَة سَخِر منك، وزَرَى عليك، كما رُوِي عن بعضهم أنّه قال لبعض العامّة: بم كنتم تنتقلون البارحة؟ يعني على النبيذ، فقال: بالحمَّالين، ولو قال له أي شيء كان نقلكم لسلم من سخريته»[4]. فالكلام المذكور في هذا القول منغلق المعنى, مستبهم المغزى, ولم يحقّق المنفعة، لذا فـ «أجود الكلام ما يكون جزلا سهلا, لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدودا مستكرها، ومتوعّرا معقّرا»[5]. فالعسكري يلحّ على الكلام المفهوم، والموافق للطبقة المعنية به.

وضمن مقولة "لكل مقام مقال" أدرج البلاغيون العرب ملاحظات قيّمة تتعلّق بالجوانب النفسية والأخلاقية للمرسل والمتلقّي أيضا[6]. وهذا ما ندركه مع العسكري أيضا حينما قال: «فينبغي أن يخاطب كل فريق بما يعرفون، ويتجنّب ما يجهلون»[7]. فالعِلْيَة من الناس يخاطبون بفاخر الكلمات ونادرها؛ لأنّهم يفهمون يفهمون بدقّة المقاصد والغايات. أمّا الطبقة العادية فتُكلّم بلغتها التي تفهمها، فـ «الإفهام بالبلاغة يقوم على مصادرة يتقابل فيها الكلام العادي بالكلام الأدبي؛ إذ إنّ تحقيق الإفهام ليس إلا خلاصة للأول، في حين ينتج عن الثاني وظيفة

---

[1]- العسكري، المصدر نفسه، ص38.
[2]- الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، ص132.
[3]- العسكري، الصناعتين، ص38.
[4]- العسكري، المصدر نفسه، ص38.
[5]- العسكري، المصدر نفسه، ص73.
[6]- جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص16.
[7]- الصناعتين، ص38.

الإطراب»[1]. فالمتكلّم حينما يخاطب متلقيّا عاديا يكلّمه بكلام عادي؛ لأنّ الغاية لا تتعدّى الإفهام، لكن إذا كان مع غيره من العلماء أو الفلاسفة أو الحكماء فإنّه سيبدع في اختيار الألفاظ الرائعة والنادرة التي قد لا يسبقه فيها أحد؛ لأنّ المتلقّي بمقدوره أن يفكّ رموز الرسالة. فـ «العرض الأول في الكلام الإفادة، وجلّ الأمم على هذا، والثاني تحسين الإفادة»[2]؛ لأنّ المتكلّم يجب أن يخاطب كل طبقة بما يناسبها. فلما «كان الغرض من الكلام الإفصاح والإظهار يجب أن يكون المتكلّم مع المخاطب كالطبيب مع المريض، يشخّص حالته ويعطيه ما يناسبها»[3].

وهذا ما يمكن تسميته تداوليا "الفعل الكلامي الكامل"[4]؛ لأنّ المتكلّم في مقام مقام إنجاز فعل اجتماعي ضمن قول شيء ما يوجه للمستمع، وقد تنتج عن ذلك آثار قد تؤثّر في السامع، وهذا ما أقرّه "أوستين Austin" الذي ذكر أنّه يتفاوت بدرجة تأثيره؛ إذا ما كان اتّصالا عاديا، أو إبداعيا. ويمكن توضيح ذلك أكثر في الرسم الآتي:

[1]- الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، ص132.
[2]- الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، ص132.
[3]- السيد الهاشمي، جواهر البلاغة، بيروت دار إحياء التراث العربي (د.ت)، ص53.
[4]- ينظر مسعود صحراوي، الأفعال المتضمّنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، ص78.

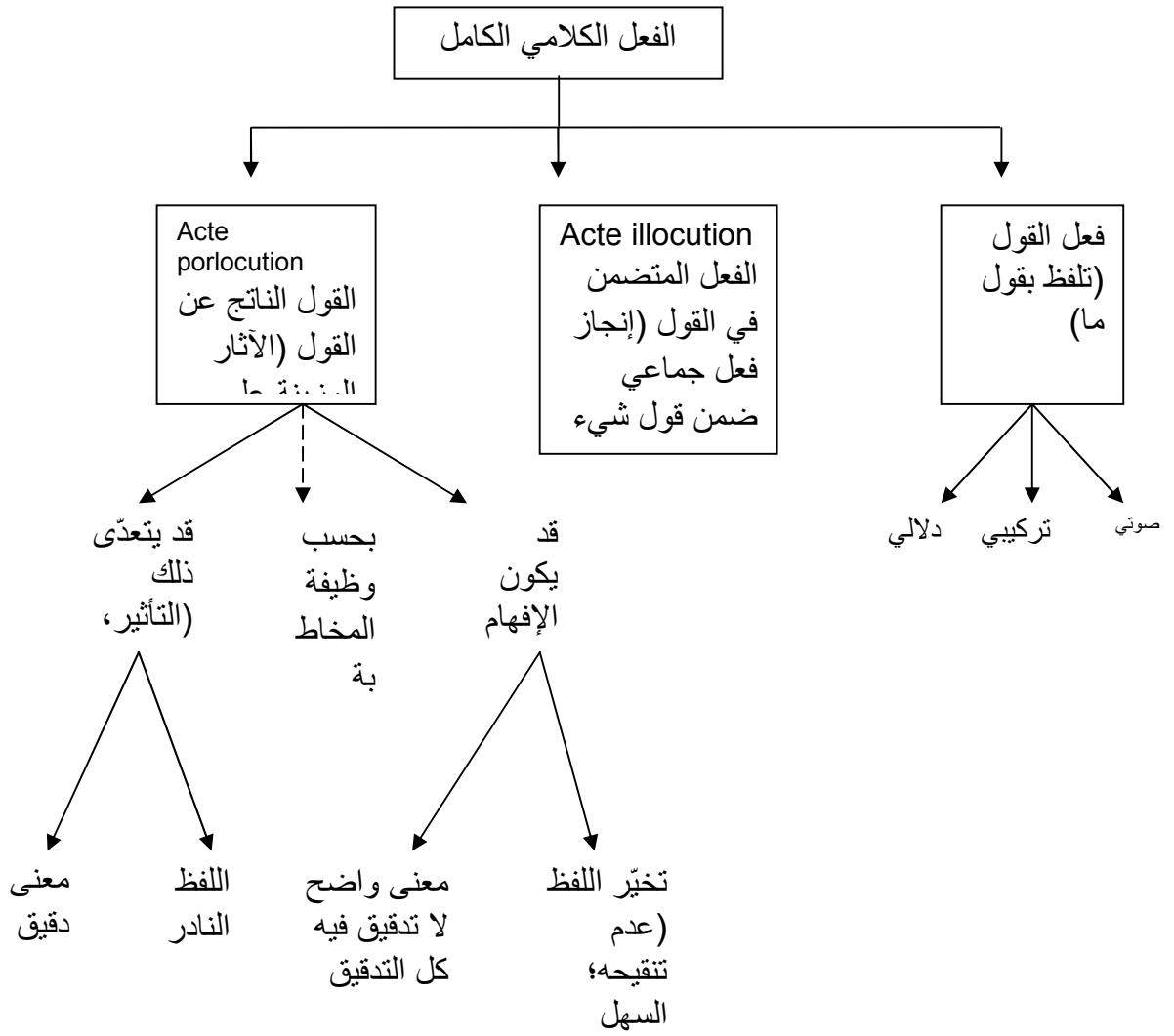

ثم ينتقل العسكري إلى فكرة جوهرية لها فعّاليتها في العملية الاتّصالية، ذكر فيها أنّه على المتكلّم أن يراعي في كلامه كل ما يحقّق له مقصده الذي ينبغي إيصاله إلى قلب السامع، وهي "المشترك اللفظي"، أو كما عبّر عنه "مشتركات الألفاظ". وهو صورة من تعدّد المعنى، وقد عرّفه السيوطي (ت911هـ) بقوله: «وقد حدّه الأصول بأنّه اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين»[1]. فالمشترك اللفظي قد يعيق السامع في فهم معنى الرسالة. ويحدث عندما يريد المتكلّم «الإبانة عن معنى فيأتي بألفاظ لا تدلّ عليه خاصة؛ بل تشترك معه فيها معانٍ أخر، فلا يعرف السامع أيّها أراد، وربّما استبهم الكلام في نوع من هذا الجنس حتى لا يوقف على معناه إلا بالتوهم»[2].

ومن الأمثلة التي ساقها أبو هلال قول جرير:

لَوْ كنْتُ أعْلَمُ أنّ آخِرَ عَهْدِكُمْ يَوْمَ الرَّحيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أفْعَلِ

[1]- المزهر في علوم اللغة، تح: محمد أحمد جاد المولى وعلى محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، بيروت دار الجيل، (د.ت)، ج1، ص363.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص38-39.

فوجه الاشتراك ههنا أنّ السامع لا يدري إلى أي شيء أشار من أفعاله في قوله "فعلت ما لم أفعل"؛ إذ أراد أن يبكي إذا رحلوا، أو يهيم على وجهه من الغم الذي لحقه، أو يتبعهم إذا ساروا، أو يمنعهم من المضي على عزمة الرحيل، أو يأخذ منهم شيئا يتذكّرهم به، أو غير ذلك مما يجوز أن يفعله العاشق عند فراق أحبته. ولكن لم يبن عن غرضه، وأحوج السامع إلى أن يسأله عما أراد فعله عند رحيلهم، فمن يسمعه وإن لم يكن من أهل البلاغة يستبرده ويستغثّه[1]. فألفاظ الشاعر لم تبن عن المعنى الذي يريد أن يعرفه المتلقّي، وبذلك اختلّ شرط مهم من شروط الاتّصال تعلّق بالوظيفة المرجعيّة التي يجب أن تكون مشتركة بين المرسل والمرسل إليه؛ فقد تتسبّب في عدم تحقيق الفهم؛ لأنّ السياق اللغوي غائبا أو غامضا، بحكم أنّه يرتبط «بنظام اللغة وكلماتها وترتيباتها المختلفة، ودعاه "ميكائيل هاليداي M.Halliday"[2] بـ "الرصف أو التساوق Collocation"، وهو يؤكّد معنى الكلمة الدقيق الذي يتحدّد من خلال معطيات الاستعمال الفعلي، وورودها مع مجموعة من الكلمات والعناصر التي تقع معها في سياق يقبله أبناء اللغة، وبذلك فإنّ السياق اللغوي يوضّح كثيرا من العلاقات الدلالية بين الكلمات، وهو مقياس لبيان الترادف والمشترك»[3]. لذا إذا كان السياق واضحا فالمشترك اللفظي سيسهم في نجاح العملية التواصلية؛ لأنّ السياق «يضع له قيودا واضحة ويعيّنه ويخصّصه بسمات غير قابلة للتعدّد والاشتراك والتعميم»[4].

وهذه التعدّدية التي ينبني عليها المشترك اللفظي في العملية الاتّصالية يوضّحه العسكري أكثر مع بيت أبي تمام الذي يقول:

جَهْمِيَّةَ الأَوْصَافِ إلاَّ أنَّهُمْ قدْ لَقَّبُوهَا جَوْهَرَ الأَشْيَاءِ

فـ «وجه الاشتراك في هذا أنّ لجهم مذاهب كثيرة، وآراء مختلفة متشعّبة، لم يدل فحوى كلام أبي تمام على شيء منها يصلح أن يشبّه به الخمر وينسب إليه، إلا أن يتوهّم المتوهِّم فيقول: إنّما أراد كذا وكذا من مذاهب جهم، من غير أن يدلّ الكلام منه على شيء بعينه. ولا يعرف معنى قوله " قَدْ لَقَّبُوهَا جَوْهَرَ الأَشْيَاءِ" إلا بالتوهّم أيضا»[5]. فإذا استعمل المرسل المشترك في كلامه فلا بدّ من توضيحه وإزالته بما يبيّن عن مقصود الخطاب.

ز-حسن الابتداء:

لقد دعا صاحب الصناعتين في بابه العاشر الذي وسمه بـ "في ذكر مبادئ الكلام ومقاطعه، والقول في حسن الخروج والفصل والوصل وما يجري مجرى ذلك" الباثّ إلى أن يحسن الابتداء في اتّصاله، وذلك بحسب المناسبة التي

---

[1]- ينظر العسكري، الصناعتين، ص39.
[2]- هاليداي مولود في 1925، وهو أستاذ اللسانيات العامة في جامعة لندن، وهو من علماء المدرسة الاجتماعية.
[3]- أحمد عزوز، المدارس اللسانية أعلامها مبادئها ومناهج دراستها للأداء التواصلي، ص161.
[4]- أحمد عزوز، المرجع نفسه، ص161.
[5]- العسكري، الصناعتين، ص40.

تقتضيها الرسالة الإبلاغية، يقول: «قال بعض الكتّاب: أحسنوا معاشر الكتّاب الابتداءات فإنّهنّ دلائل البيان. وقالوا: ينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره، ومفتتح أقواله مما يتطيّر منه، ويستجفي من الكلام كالمخاطبة بالبكاء، ووصف إقفار الديّار، وتشتيت الأُلاَّف، ونعي الشباب، وذمّ الزمان، لاسيّما في القصائد التي تتضمّن المدائح والتهاني. ويستعمل ذلك في المراثي، ووصف الخطوب الحادثة، فإنّ الكلام إذا كان مؤسّسا على هذا المثال تطيّر منه سامعه»[1]. فمصدر جلب المتلقّي لكل مرسل هو حسن الابتداء الذي يقتضي الملاءمة مع الموضوع في الرسالة الإبلاغية. فهو يوصي الكتّاب والخطباء والشعراء كذلك بأن يبدؤوا كلامهم بما لا ينفّر المتلقين؛ لأنّ «ارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدم مطابقته له»[2].

وقد آثر أبو هلال على نفسه التدليل على صحة رأيه بمجموعة من الأمثلة، تنوّعت بين النثر والشعر، تبرز حسن الابتداءات وفضلها، وكذا قبحها في الإبلاغ. فمن أجود ابتداءات العرب مطلع معلّقة امرئ القيس؛ فـ «قد بكى امرؤ القيس واستبكى، ووقف واستوقف، وذكر الحبيب والمنزل في نصف بيت، وهو قوله: "قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبيبِ وَمَنْزِلِ"، فهو من أجود الابتداءات»[3]. فالشاعر أحسن المطلع؛ إذ عبّر عن حالته النفسية من الفراق، واستطاع أن يوصل هذا الشعور من دون أن يبكي حاله، أو يتسبّب في تطيّر السامع له. لذا كان أحسن من ينشئ الكلام ذاك الذي يتدبّر ويراجع مبدأ كلامه؛ فقد «سئل بعضهم عن أحذق الشعراء، فقال: من يتفقد الابتداء والمقطع»[4].

فأوّل ما يقع في السمع وحتى في القراءة مبدأ الكلام، لذا يقتضي توظيف الألفاظ والمعاني التي تجذب المرسل إليه للتلقّي أكثر، فـ «إذا كان الابتداء حسنا بديعا، ومليحا رشيقا، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام. ولهذا المعنى يقول الله عزّ وجلّ: ألم، وحم، وطس، وطسم، وكهيعص، فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما بعده... ولهذا جعل أكثر الابتداءات بـ "الحمد لله"؛ لأنّ النفوس تتشوّق للثناء على الله فهو داعية إلى الاستماع»[5].

هذه مجمل الشروط والتقنيات التي استوجبها أبو هلال في صانع الكلام (المرسل) الذي يبغي إبلاغ المعاني إلى قلب السامع بصورة مقبولة ومعرض حسن، فـ «يمكن بذلك من توصيل مرسلته عبر متتالية قد أضفى عليها معنى

---

[1]- العسكري، المصدر نفسه، ص451.
[2]- القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، بيروت دار الكتاب اللبناني، ط5/1980،ج1، ص115.
[3]- العسكري، الصناعتين، ص453.
[4]- العسكري، المصدر نفسه، ص454.
[5]- العسكري، الصناعتين، ص457.

يقصده»[1]. فمتى توافرت لديه يكون قد استمسك بالآليات التي تمكّنه من التأثير في الأخر وجعله يتابع ويطّلع على رسالته الإبلاغية.

2-المتلقّي (السامع، القارئ) وشروطه:

وهو الهدف بالنسبة للمرسل باعتبار أنّ الاتّصال لا يقوم إلا في اتّجاه متلقي تقتضيه العملية الإبلاغية. وقد ركّزت البلاغة العربية عليه، ويتّضح ذلك أكثر من خلال البحوث التي دارت حول مقتضى الحال، وهذا ما وجدناه عند العسكري؛ فصانع الكلام عنده لا يؤلّف رسالته سواء أكانت خطبة أو رسالة أو شعرا إلاّ ويراعي الطبقة التي تتوجّه إليها. وقد دارت حول المتلقّي بحوث كثيرة بالخصوص في العصر الحديث حيث عُقدت ندوات عديدة حوله، وظهرت الكثير من الجمعيات التي تبحث في أهميته وقدراته في إنجاح عملية التواصل في شتّى المستويات، كان من أهمّها ما قدّمته جمعية الاتّصال الخطابي الأمريكي سنة 1984م، عارضة مجموعة من المقوِّمات والقدرات الأساسية؛ كان من أهمها:

-القدرة على فهم اللغة الشفوية للحديث وتمييز الأفكار الأساسية.

-القدرة على الاستماع المتفهّم للاستفادة[2].

والمرسل إليه هو المعني بالعملية الاتّصالية، تخوّل له فك الرسالة التي تنقل إليه من طرف المتّصل. ويجب أن تكون له المهارات التي تمكّنه من معرفة أسرار كل الاتصالات اللغوية في البيئة اللغوية المعيّنة، والتي ترتبط أساسا «بالتحديد الدقيق والنوايا الخاصة بالمصدر من الموقف الاتّصالي»[3]. وقد اهتم العسكري به، ويكفي أنّه اعتبره المقياس الذي يقيس به المتكلّم كلامه، فالاتّصال لديه مرهون بمن ستلقى إليه الرسالة، هل سيستوعبها؟ كيف يبلغ مقصدها؟ هل سيقتنع بها؟ وهي كلّها أسئلة اهتمت بها الدراسات الحديثة، يكفي أن نذكر "لازويل Lazwel" حينما خصص جانبا لمن ترسل الرسالة، وكيف يستقبلها؟ ونموذج "بلوم شرام Blum Shramm" عندما بحث في الهدف الذي يتحقّق بين المرسل والمتلقّي، مبرزا فيه "التفاعل Interoction" بين المصدر والهدف والمستقبل، ويمكن التنبيه إلى ذلك بالمخطط التالي[4]:

---

[1]- أحمد يوسف، سميائيات التواصل وفعّالية الحوار المفاهيم والآليات، الجزائر منشورات مختبر السميائيات وتحليل الخطاب، ط1/2004، ص143.

[2]- محمد منير حجاب، مهارات الاتصال للإعلاميين والتربويين والدعاة، مصر دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1/1999، ص38.

[3]- محمد عبد الحميد، نظريات الإعلام واتجاهات التأثير، ص67.

[4]- جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص70.

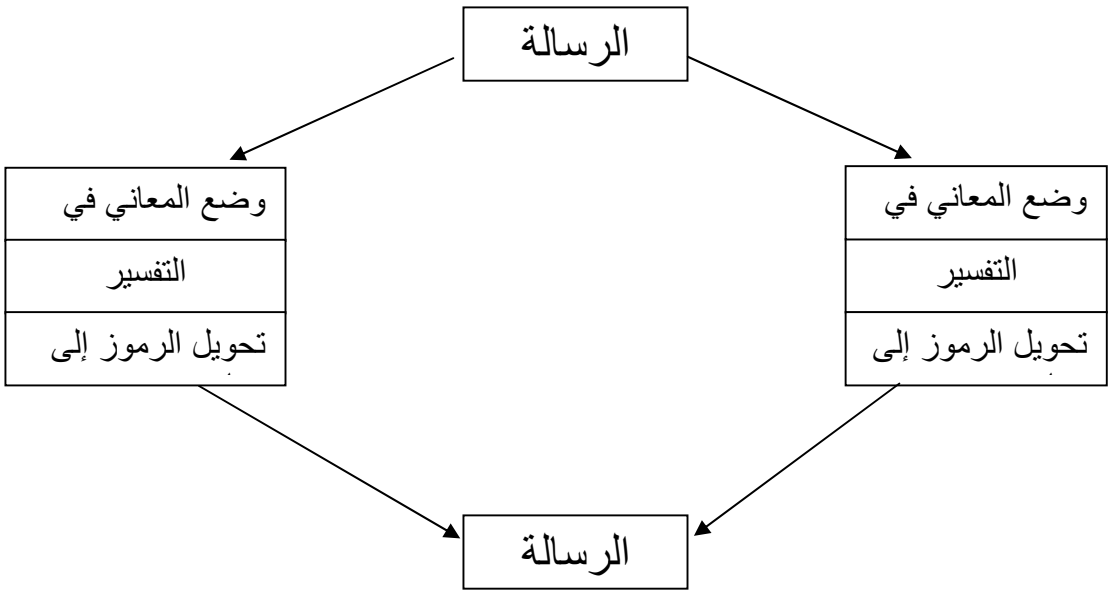

فمن خلال هذا المخطط ندرك ذلك التفاعل بين المرسل والمتلقّي، وكيف أنّهما يتبادلان الأدوار، وهذا ما دعت إليه البلاغة الجديدة، بالمقارنة مع الخطابة العربية القديمة العربية بالخصوص، فالمتلقّي «هو المحور لكل من الخطابة القديمة والخطابة الجديدة؛ إذ يصب الخطاب على قدره أو مقامه مادام هو المراد إقناعه»[1]. وهذا ما كان ماثلا لدى العسكري الذي ذكر أنّ دور السامع ينحصر في تلقّي الرسالة الإعلامية فقط؛ أي تكون علاقته بالمتكلّم علاقة رأسية في الخطبة (الخطيب يلقي خطبته لدرجة عليا أو أدنى)، أو الشعر أو الرسالة، ويمكن أن نوضّح العلاقة في المخطط الآتي:

[1]- جميل عبد المجيد، المرجع نفسه، ص116.

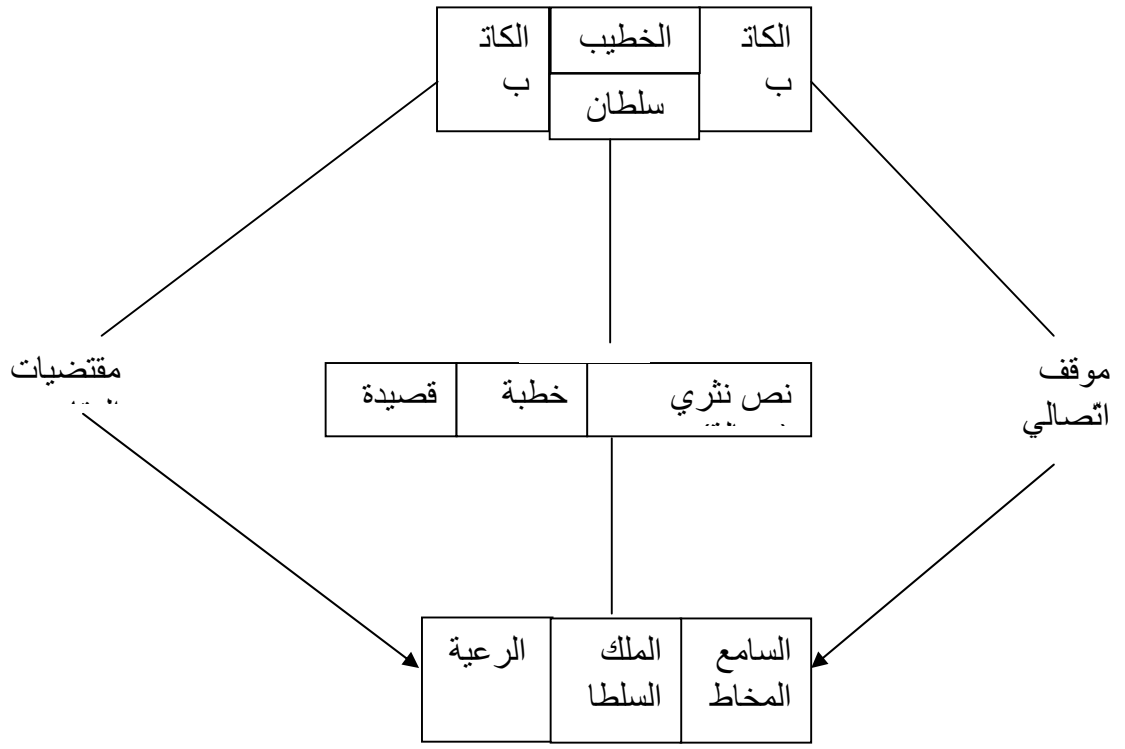

ولكن قد يكون هناك تفاعل بسيط إذا -مثلا- لم تتم عملية الفهم، حينما يستعمل المتكلّم لفظة لا يفهمها السامع، أو تدخله في متاهات قد يحاول السامع أن يسأل عليها، أو العكس، مثلا قد يكون السامع فطنا جدّا ما إن يسمع صدر البيت حتّى يلقي بعجزه.

وقد اشترط العسكري في المتلّقي شروطا تمكّنه من إدراك أبعاد كل رسالة إعلامية مهما كان صنفها؛ منها:

أ-حسن الاستماع:

أي توافر حسن السمع، أو آلية السمع فهي الكفيلة بإدراك المعنى الدقيق الذي يقتضيه الاتّصال اللغوي. وحسن الاستماع يعدّ من مؤطّرات البلاغة، يقول ابن المقفع: «البلاغة اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة، منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع»[1]. فحاسة السمع تلعب دورا جوهريا في فهم المعنى والوقوف على مقاصده، لذلك وجدنا أبا هلال يحلّل القول السابق، ويبيّن أنّ «المخاطب إذا لم يحسن الاستماع لم يقف على المعنى المؤدّي إليه الخطاب. والاستماع الحسن عون للبليغ على إفهام المعنى»[2]. فالاستماع الحسن كفيل للمخاطب بأن يقف على الإفادة التي يريدها المتكلّم، وهنا يقول: «حسبك من حظّ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع»[3].فهذا القول يعكس تلك العلاقة بين ركني العملية الاتّصالية باعتبار أنّ نشاطهما معا من ركائز البلاغة، فهي تتجسّد إذا ما أحسن الناطق إنشاء

[1]- العسكري، الصناعتين، ص20.
[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص22.
[3]- العسكري، الصناعتين، ص22.

رسالته وإلقائها عبر "آلة البيان" من جهة، وأن لا يُفاجئ المخاطب أو الناطق بسوء فهم السامع الذي قد يتم بسبب عدم الاستماع الحسن من جهة أخرى.

وهذا ما أخذه الدارسون بعين الاعتبار، فنصحوا بضرورة حسن الاستماع حتى تنجح العملية الاتّصالية، يقول ابن المقفع: «تعلّم حسن الاستماع، كما تتعلّم حسن الكلام»[1]. فإذا أجاد المتكلّم الكلام فإنّه سيجيد حتما الاستماع، وإنجاز الرسالة الإبلاغية وفهمها يتأسّس على ذلك.

ويجب أن نشير ههنا إلى أنّ أبا هلال كان دقيقا في كلماته فقال "الاستماع"، ولم يقل "السمع"، فالسمع قوّة في الأذن تتحرّك بها الأصوات، وسمع لفلان أو إليه أو إلى صديقه سمعا وسماعا أصغى وأنصت. والاستماع من أسمعته أي أصغى إليه، وأصغى بمعنى أحسن الاستماع[2]. وعلى هذا الأساس فرّق العلماء بين المفردتين، باعتبار أنّ "السمع" يرتبط ارتباطا جوهريا بالعضو؛ أي بالأذن ووظيفتها في تلقي المثيرات الصوتية في حدود القدرة السمعية للمتلقّي، فهو بذلك يمثّل «حلقة من حلقات الاتّصال اللغوي، وتنحصر وظيفة الأذن في استقبال الاهتزازات الأكوستيكية وتحويلها إلى إشارات تنتقل عبر عصب السمع»[3]. فحاسّة السمع تخوّل لنا استقبال تلك الأصوات وتمييزها، وذلك إثر «دخول الأمواج الصوتية المختلفة إلى الأذن فتهتز طبلة الأذن فيقوم العصب السمعي بتحويل هذه الاهتزازات إلى رسائل اتّصالية ويرسلها إلى الدماغ، فيقوم الدماغ بدوره باستقبالها وإصدار أمره لأعضاء الجسم بالتصرّف حسب طبيعة الرسالة الاتّصالية»[4].

أمّا "الاستماع" فهو مهارة أساسية للفرد «يتعلّمها في مراحل نموّه الأولى، فالطفل يبدأ في استجابته للعالم الخارجي من خلال السماع»[5]. ويقول العسكري أيضا «ولولا القائل يؤدّي ما سمع لما كان في طاقة أن يقول، وإنّما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين»[6]. فالطفل يتعلّم مهارة الاستماع قبل أن يتعلّم مهارة النطق والكتابة وغيرها من المهارات.

ومنه نلاحظ أنّ الاستماع يتعلّق في أساسه بالفهم؛ أي بـ «فهم رسالة المتحدّث وإدراك ما يرمي إليه من مقاصد، ويختلف مستوى هذا الفهم من شخص إلى آخر، وذلك تبعا لمستوى الاستماع، حيث يوجد أربعة مستويات للاستماع: مستوى الاهتزاز والذبذبة، الاستماع، الفهم، الإدراك والفهم المميز»[7]. لذا كان

---

[1]- ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير ورسالة الصحافة، يوسف أبو حلفة، بيروت منشورات مكتبة البيان، ط3/1964، ص180.

[2]- ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (صنع).

[3]- محمد منير حجاب، مهارات الاتصال للإعلاميين والتربويين والدعاة، ص18.

[4]- عيسى شاهين، حاسة السمع، عمان المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1986، ص8.

[5]- محمد منير حجاب، مهارات الاتّصال للإعلاميين والتربويين والدعاة، ص11.

[6]- الصناعتين، ص202.

[7]- محمد منير حجاب، مهارات الاتصال للإعلاميين والتربويين والدعاة، ص18.

هذا الأساس المنطلق الذي ارتكز عليه العسكري في تمييزه بين السمع والاستماع، باعتبار أنّ الأول (السمع) «وظيفة فسيولوجية، وتشمل استقبال الرسالة»[1]. أما "الاستماع" فيتعلّق بفهم تلك الرسالة بعد تفكيك رموزها. ويختلف هذا الفهم من شخص إلى آخر أو بحسب الطبقة، فإذا كانت هذه الأخيرة على درجة كبيرة من المعرفة فإنّها ستبلغ مستوى الإدراك والفهم المميزين، أما الطبقة العادية فتفهم عند حدود معرفتها.

فالاستماع يتعدّى حدود الاستقبال السلبي، فهو «وظيفة عقلية، وتعني فهم الرسالة بعد أن تتم عملية السماع بواسطة آلة السمع». والمهارة ترتبط بهذا الفهم؛ لأنّها تضمن الفعّالية بين المتكلّم والسامع في الإدراك والوقوف على أبعاد الإبلاغ بينهما، ولذا فهي «لا تتم من طرف واحد، وإنّما من قبل المتحدّث أيضا، فكلاهما يجب أن يعملا سويا، وبطريقة صحيحة، فكل منهما يجب أن يتعهّد الطرف الأخر عقليا بتحسين الرسالة والمشاركة في تشكيلها والتعاون في بناء الفكر والمعنى، وإذا أُفْتُقد هذا التعاون من قبل المستمع فلا يكون هناك تفاعل أو اتّصال»[2]. ومنه ندرك تلك العلاقة الوطيدة بين المرسل والمتلقّي، والتي تعزّزها أكثر مهارة الاستماع التي تعتبر القاعدة الأساسية في الاتّصال اللغوي مهما تنوّعت أشكاله.

ومن هذه الملكة تتبيّن قيمة الرسالة اللغوية باعتبار أنّ «القارئ لم يعد مجرّد مستقبل أو متلقٍّ، وإنّما تتمثّل القيمة في العمل الإبداعي من خلال المشاركة بين المبدع والمتلقّي في لحظة توحّد وجودي»[3].

والاستماع الحسن المبني على الفهم الدقيق الذي استنبطناه عند العسكري كان حاضرا بقوّة عند الباحثين المحدثين الذين أبرزوا أهمية ذلك في العملية التواصلية، فالاستماع كما عرّفه "سبريت Sprit" هو «العملية النشطة التي تتضمّن ربط المعنى بالصوت»[4]؛ أي بعد سماع تلك الأصوات يجري تحليلها وإدراكها، أو بتفسير تداولي هو الفعل الانتباهي الذي يترتّب عن الفعل الصوتي. أمّا عند "رانكين Rankine" فهو القدرة على فهم اللغة المستخدمة في الحديث[5]؛ فالاستماع مرهون بالقدرة التي يمتلكها المتلقّي في إدراك رموز الرسالة اللغوية، أي بمفهوم تداولي الوصول إلى الفعل الإحالي على حدّ تعبير "أوستين Austin". أما "جونسون Johnson" فقد ربطه هو الآخر بـ «القدرة على الفهم والاستجابة بفاعلية الاتّصال الشفهي»[6].

---

[1]- محمد منير حجاب، المرجع نفسه، ص18.
[2]- محمد منير حجاب، المرجع نفسه، ص19.
[3]- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ص173.
[4]- محمد منير حجاب، مهارات الاتصال للإعلاميين والتربويين والدعاة، ص20.
[5]- محمد منير حجاب، المرجع نفسه، ص20.
[6]- محمد منير حجاب، المرجع نفسه، ص20.

وهذه الفعّالية تتّسع أبعادها حينما يصبح المتلقّي بعد فهم الرسالة وإدراكها مرسلا، فهو لا «يكتفي بمجرّد الفهم؛ بل ينتقل إلى محاولة التعرّف العقلية والوجدانية من خلال معايشة تجربة النص الأدبي بما فيه من أحاسيس وأفكار ومواقف واتّجاهات»[1]. وبهذا لا ينحصر دور المتلقّي في السماع فحسب؛ بل يتأسّس أكثر على الاستماع الذي يجعله مرسلا إليه في الوقت نفسه.

وآلية الاستماع تسهم أساسا في تحقيق التفاعل بين طرفي الاتّصال فتجعلهما يتبادلان الأدوار، وهذا ما ركّزت عليه البلاغة الجديدة، وبالخصوص في الخطابة حيث «أصبح المتلقّي متلقيا إيجابيا يتلقّى ما يتلقاه ويفكّر فيه، ثم يردّ ويناقش ويفنّد ويدعّم، لينتقل من موقع التلقي إلى موقع الإرسال، وينتقل المرسل بالتالي من موقع الإرسال إلى موقع التلقّي»[2]. ويكون التواصل بذلك فعّالا، وتتحوّل العلاقة من علاقة رأسية إلى علاقة أفقية؛ «لأنّ المتلقي في الخطابة الجديدة بحكم إيجابيته يقف في درجة موازية لدرجة المرسل من ثمّ يتلقى الخطبة من مقابل موازٍ، فالعلاقة بينهما أفقية»[3]. ونوضّح ذلك أكثر بالمخطط التالي:

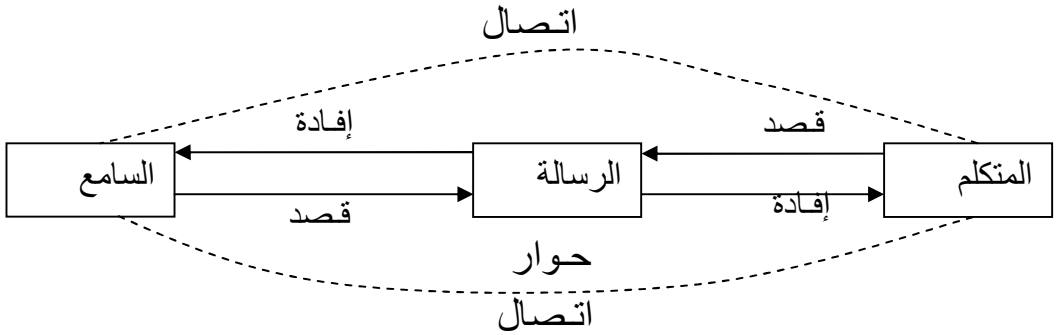

فالمستمع على إثر سماعه واستماعه تتحقّق تلك الاستجابة التي تجني "الإفادة" بمصطلح تداولي، وهذه العملية قد تتكرّر مع المرسل أيضا، وبالتالي قد «تصبح الرسالة الإبداعية شائعة، وتعني استجابة المستقبل للأثر الأدبي ومدى تأثّره به وتقبّله له، وهذا كلّه يتوقّف على مدى التناغم والتوافق بين المرسل والمستقبل»[4]. وهذا ما اعتبره "شرام Schramm" مشاركة؛ أي أنّ «الاتّصال هو هو فعل مشاركة، وعلاقة مشتركة أكثر من كونه شيئا يقوم به شخص لشخص آخر؛ إذ أنّ الخبرات المشتركة أساسية في نجاح الاتّصال»[5].

ب-القدرة على فهم محتوى الرسالة:

ويتعلّق هذا الشرط بضرورة امتلاك المتلقّي القدرة التي تمكّنه من الوقوف على المعنى الذي يريده المتكلّم، وتبقى مؤسسة على ما هو متداول في البيئة

[1]- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ليبيا الدار العربية للكتاب، ص70.
[2]- جميل عبد المجيد، البلاغة والاتّصال، ص117.
[3]- جميل عبد المجيد، المرجع نفسه، ص117.
[4]- عبد العزيز شرف، نماذج الاتصال في الفنون والإعلام، ص140.
[5]- صالح خليل أبو أصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال المعاصر، ص97.

اللغوية المعيّنة، فـ «السمع يتشوّف للصواب الرايع... والفهم يأنس من الكلام بالمعروف، ويسكن إلى المألوف، ويصغي إلى الصواب، ويهرب من المحال، وينقبض من الوخم، ويتأخّر عن الجافي الغليظ، ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب، والروية الفاسدة»[1].

وقد ربط أبو هلال هذه المعرفة بأمور البيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها المستمع، لذا لاحظناه يقدّم بعض الأمثلة التي تدلّ على ما سمّاه بـ "البديهة الحسنة"؛ إذ يقول: «فمن البديهة الحسنة ما أخبرنا به أبو أحمد... قال دخل المأمون ديوان الخراج فمرّ بغلام جميل على أذنه قلم فأعجبه ما رأى من حسنه، فقال من أنت يا غلام؟ فقال: يا أمير المؤمنين الناشئ في ديوانك، وخريج أدبك، والمتقلّب في نعمتك، الحسن بن رجا، فقال المأمون: بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول، ثم أمر أن يُرفع عن مرتبة الديوان ويعطى مائة ألف دينار»[2]. وهي على صلة كما نرى بالكفاءة التي تجعل المتلقّي يحسن الردّ انطلاقا من الحال الذي يكون فيه، وهي من الآليات التداولية باعتبار أنّ الفعل الكلامي في المثال المذكور ينجرّ عن فعل تأثيري تقتضيه العملية الاتّصالية ككل.

3- الرسالة وصفاتها:

تتعلّق بالسؤال الذي ذكره "لازويل Lazwell" "يقول ماذا؟" وهي المتوالية اللغوية التي ينشئها صانع الكلام، و«ما تنطوي عليه من مضمون، وكيفية التعبير عن هذا المضمون، وتحريره في رموز»[3]. وقد أخذت هي الأخرى حيّزا كبيرا من الاهتمام لدي بلاغيينا العرب، وظهرت عنايتهم أكثر في تركيزهم على كيفية بنائها، وعناصر تكوينها، وعوامل نجاحها، وصولا إلى ما قد تتركه هذه الرسالة من أثر في نفوس المتلقّين.

وقد أشار العسكري أنّها تتنوّع بحسب الأحوال والمواضيع والأجناس أيضا، ولذلك وضع مجموعة من الخصائص العامّة والخاصة بكل جنس، وقد لاحظناه يذكر الوضوح وعدم التوعّر أحيانا، ويستحسن الغموض أحيانا أخرى، لكّنه ظلّ يؤكّد دائما على حسن التأليف، وجودة التركيب، وحسن الرصف أيضا.

فـ «أجود الكلام ما يكون جزلا سهلا، لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدودا مستكرها، ومتوعّرا متقعّرا، ويكون بريئا من الغثاثة، عاريا من الرثاثة. والكلام إذا كان لفظه غثّا، ومعرضه رثّا كان مردودا، ولو احتوى على أجلّ معنى وأنبله، وأرفعه وأفضله»[4]. وفي الوقت نفسه بيّن أنّه مما يتأسّس عليه الكلام البليغ «أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلي عن مغزاك، وتخرجه من الشركة، ولا تستعين عليه بطول الفكرة، ويكون سليما من التكلّف، بعيدا عن سوء

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص63.
[2]- الصناعتين، ص46.
[3]- عبد العزيز شرف، نماذج الاتصال في الفنون والإعلام، ص131.
[4]- العسكري، الصناعتين، ص73.

الصنعة، بريا من التعقيد، غنيا من التأمّل»[1]. وحذّر من التكلّف؛ وهو «طلب الشيء بصعوبة للجهل بطرائق طلبه بالسهولة، فالكلام إذا جمع وطلب بتعب وجهد، وتُنولت ألفاظه من بعد فهو متكلّف، مثاله قول بعضهم في دعائه: "اللّهم ربّنا وإلـهنا، صلِّ على محمد نبيّنا، ومن أراد بنا سوءً فأحِط ذلك السوء به، وأرسخه فيه كرسوخ السِّجيل، على أصحاب الفيل، وانصرنا على كل باغٍ وحسود، كما انتصرت لناقة ثمود"»[2].

فمن الأقوال السابقة يتّضح أنّ الرسالة لا تبنى إلاّ بالاعتماد على صفات تدخلها ضمن الكلام المقبول والبليغ، أي تقصير في إحداها يؤثّر سلبا فيها، فمثلا لا يستعين المرسل «بطول الفكرة؛ هذا لأنّ الكلام إذا انقطعت أجزاؤه، ولم تتّصل فصوله، ذهب رونقه وغاض ماؤه؛ وإنّما يروق الكلام إذا جرى جريان السيل، وانصبّ انصباب القطر»[3]. فهو يركّز ههنا على الجودة في تركيب أجزاء الرسالة؛ لأنّ «تركيب الكلام لا يقلّ شأنا عن الشكل، فهو في حقيقة أمره المخبر لذاك المظهر، وعليهما يتكامل البناء نصا وروحا وقليا وقالبا»[4]. ولهذا لا يكون الكلام بليغا «حتّى يعرى من العيب، ويتضمّن الجزالة والسهولة، وجودة الصنعة... ومثال ذلك ما كتب بعضهم إلى أخ له: أما بعد فإنّ المرء ليسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك فيما قدّمت من خير، وأسفك على ما فاتك من بر»[5].

وتظهر الصفات التي تخصّ الرسالة في الباب الثاني الذي عنونه أبو هلال بـ "في تمييز الكلام جيّده من رديّه، ونادره من بارده، والكلام في المعاني"[6]، يقول: «الكلام أيّدك الله يحسن بسلاسته، وسهولته ونصاعته وتخيّر لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه، وتعادل أطرافه، وتشبه إعجازه بهواديه، وموافقة مآخيره لمباديه، مع قلّة ضروراته؛ بل عدمها أصلا، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر، فتجد المنظوم مثل المنثور، في سهولة مطلعه، وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه»[7]. ففي هذا القول يدعو المرسل إلى ما يجب أن تكون عليه رسالته، وهي كلّها صفات تقتضي امتلاك القدرة التي تجعله يستطيع أخذها في الحسبان في كل الاتّصالات؛ لأنّها تضمن كل الغايات التي ينشأ على أساسها الكلام.

فبسلاسة الكلام وسهولته ووضوحه وإصابة معناه، وحسن ترتيب أجزائه وتواليها المحكوم في بناء حلقاته، وبراعة تركيبه، تتحقّق الوظيفة الإخبارية

---

[1]- العسكري، المصدر نفسه، ص49.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص50.
[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص49.
[4]- محمد كشاش، علل اللسان وأمراض الكلام، ص111.
[5]- العسكري، الصناعتين، ص48.
[6]- المصدر نفسه، ص61.
[7]- المصدر نفسه، ص61.

والإفهامية في العملية الاتّصالية. وهذه الصفات التي تقوم عليها الرسالة هي في صميمها من اهتمامات الشعرية، يقول "جاكبسون Jakobson": «إنّ استهداف الرسالة بوصفها رسالة، والتركيز عليها لحسابها الخاص، هو ما يطبع الوظيفة الشعرية للغة»[1]. ونذكر ههنا أنّ «هذه الوظيفة لا تقتصر على الشعر؛ وإنّما ينبغي دراستها في أشكال الرسائل اللفظية الأخرى، وكذلك غير اللفظية، وتعمل هذه الوظيفة على إبراز قيمة الكلمات والأصوات والتراكيب في ذاتها»[2]. وهذا ما كان يقصده العسكري حينما قال الكلام بصفة عامة.

ولكن بناءً على التخيّر سنلاحظ مع أبي هلال أنّ الكلام ستتفاوت درجة بنائه، وهذا ما ركّزت عليه البلاغة الفنية التي تبحث في علاقة هدا الأساس بالتنسيق. وقد ذكر "جاكبسون Jakobson" أنّهما عمليتان رئيسيتان في سيرورة الكلام:

-الانتقاء: " Sélection" ⟵ التخيّر عند العسكري.

-التنسيق: " Combinaison" ⟵ جودة التركيب وحسن التأليف والسبك.

فالمتكلّم في كل رسالة «يختار بعض العناصر المجرّدة الموجودة في مخزونه اللغوي ثم يأتي دور العنصر الثاني المتمم، وهو التنسيق بين هذه الوحدات المجرّدة والعناصر المختارة لتكوّن وحدات لسانية معقّدة»[3]. فإنجاز الكلام يتطلّب تضافر عمليتين أساسيتين لا يمكن الفصل بينهما "الاختيار والتنسيق"، وتتحقّق الصناعة بقدر التحكّم في هاتين العمليتين، والتي تقتضي في أساسها قوة التحكّم في مقتضيات الشكل والمضمون (اللفظ والمعنى). نوضّح ذلك من الرسم التالي:

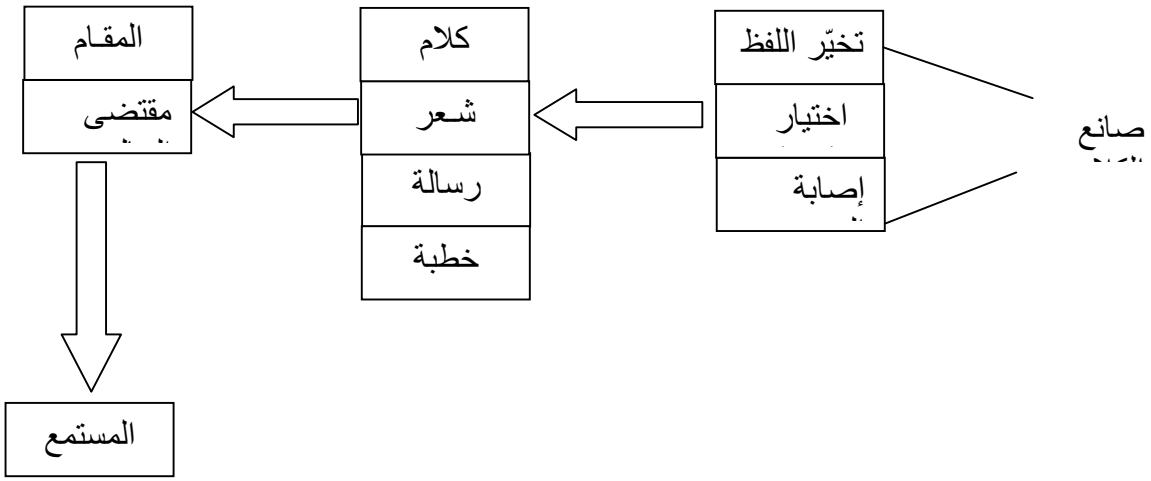

[1]- قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، المغرب دار توبقال، ط1/1988، ص31.
[2]- عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل، سوريا دار الحوار، ط1، 2003، ص50.
[3]- فاطمة طبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص38.

والعلاقة بينهما تتجلّى من خلال محورين أساسيين هما: "المحور الاستبدالي Paradigmatique"، و"المحور النظمي Syntagmatique"، فالمحور الأوّل يتعلّق بالاختيار، أما الثاني فيختص بالتأليف والتنسيق، لذا «فإنّ اختيار وتأليف الوحدات اللسانية عمليتان متوازيتان تمارسان في اللغة فعاليات متعدّدة، وفي مستويات متنوّعة ومتداخلة، سواء على الصعيد الفونولوجي أو المعجمي أو التركيبي»[1]. فالعمليتان ههنا تتعلّقان بالكيفية التي تمكّن المنتمي للغة من أن يؤلّف بين عناصرها في علاقات تركيبية مضبوطة.

ويمكن أن نميّز أربعة أنماط خاصة بعمليتي الاختيار والتأليف في الفعل الكلامي:

-النمط الأول: اختيار وتأليف العناصر المميزة لتشكيل الفونيمات.
-النمط الثاني: اختيار وتأليف الفونيمات لتشكيل الكلمات.
-النمط الثالث: اختيار وتأليف الكلمات لتشكيل الجمل.
-النمط الرابع: اختيار وتأليف الجمل لتشكيل النص[2].

وصانع الكلام في كل اتّصال مرتبط بهذه الأنماط ككل، فكان الأول خاص بتشكيل الفونيمات أو الفعل الصوتي على حدّ تعبير "أوستين Austin"، ويستوجب حسن الانتقاء أين يراعى فيه تباعد المخارج وتقاربها، فلكي يكون «اللفظ حسنا ينبغي أن تكون الحروف المكوّنة له متآلفة، متباعدة المخارج، فتخرج الكلمة مريحة لجهاز النطق ومقبولة مستساغة لجهاز السمع»[3]. فالصوت مقوم أساسي في تشكيل الكلام البليغ، إذ بـ «تخيّر الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام، وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظوما من حروف سهلة المخارج كان أحسن له وأدعى للقلوب إليه»[4].

أما النمط الثاني فيتعلّق بتأليف الفونيمات التي تشكّل الكلمات، وقد تتنوّع أشكالها وتتعدّد، ولا بدّ ههنا من انتهاج النهج المسلوك الذي تقتضيه اللغة، يقول أبو هلال: «ومن الألفاظ ما يستعمل رباعيُّه وخماسيُّه دون ثلاثيّه، ومنها ما هو بخلاف ذلك، فينبغي أن لا تعدل عن جهة الاستعمال فيها، ولا يغرّك أنّ أصولها مستعملة، فالخروج عن الطريقة المشهورة والنهج المسلوك رديء على كل حال؛ ألا ترى أنّ الناس يستعملون "التعاطي" فيكون منهم مقبولا، ولو استعملوا "العَطْو" وهو أصل هذه الكلمة، وهو ثلاثي؛ والثلاثي أكثر استعمالا، لما كان مقبولا، ولا حسنا مرضيا فقس على هذا»[5]. وحينما تتشكّل الكلمات تستوجب أمورا عديدة؛ إذ يذهب «بعض الألسنيين إلى اعتبار معاني الكلمات جزءاً لا

---

[1]- عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل، ص54.
[2]- عبد القادر الغزالي، المرجع نفسه، ص54-55.
[3]- أحمد محمد فارس، الكتابة والتعبير، بيروت دار الفكر اللبناني، ط3، 1989، ص55.
[4]- العسكري، الصناعتين، ص147.
[5]- العسكري، المصدر نفسه، ص155.

يتجزّأ من السياق الذي ترد فيه، والمقام أو الظروف المحيطة بزمان هذه الكلمات ومكانها»[1]. فبناء الكلمة لا يتم إلا في مقام معيّن، ضمن سياق ترد فيه، والذي يتعلّق بـ «مجموعة من العناصر اللغوية التي تحيط بالكلمة (فعل، اسم، حرف)، ويساعد على توضيحه»[2]. وهذا ما يؤخذ بعين الاعتبار أثناء عملية الاختيار والتأليف.

وفي النمط الثالث يتم اختيار الكلمات وتأليفها لتشكيل الجمل التي تنهض بالإفادة المعيّنة، وقد تتنوّع بين الجمل الإنشائية والجمل الخبرية. ويراعى فيها كذلك ما تستوجبه قواعد اللغة؛ إذ ذكر أبو هلال أنّ منها «ما هو مستقيم حسن، نحو قولك "قد رأيت زيدا"، ومنها ما هو مستقيم قبيح، نحو قولك "قد زيدا رأيت"؛ وإنّما قبح أنّك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير. ومنها ما هو مستقيم النظم وهو كذب، مثل قولك "حملت الجبل" و"شربت ماء البحر"، ومنها ما هو محال كقولك "آتيك أمس" و"أتيتك غدا"»[3]. فسلامة تأليف الكلمات لا تتأتّى من مراعاة قواعد التركيب فقط؛ بل تتعلّق بضوابط الدلالة المقصودة أيضا.

كما أنّ هذه الجمل قد تحتمل الصدق أو الكذب أو لا تحتملهما، وقد اهتم "أوستين Austin" بدراستها، قد نوضّح ذلك في المخطط التالي[4]:

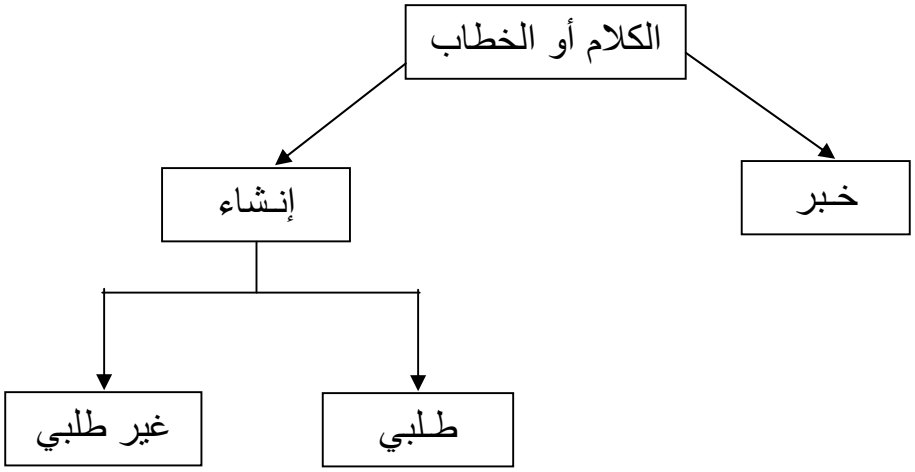

أما النمط الرابع فهو أرقى؛ إذ يكون المتكلّم فيه حرّا غير مقيّد، وذلك لضعف إلزامية القواعد؛ لأنّ المتكلّم قد يبدع ويتفنّن. وهذا ما أكّده "جاكبسون Jakobson" بقوله: «ونتوقّف أخيرا في تأليف الجمل إلى ملفوظات، حركة القواعد إجبارية للتركيب، وتتنامى جوهريا، بالخصوص حرية المتكلّم»[5]. والأساس في البناء اللغوي ههنا يعود أولا إلى الجملة؛ فلكي تكون مبنية بشكل جيّد لا يكفي أن تُضم كلمات تنتمي إلى اللغة، وتتشكّل وفقا لقواعد علم التراكيب،

---

[1]- موريس أبو ناصر، إشارة اللغة ودلالة الكلام، بيروت منشورات مختارات، ط1، 1990، ص57.
[2]- موريس أبو ناصر، المرجع نفسه، ص57.
[3]- الصناعتين، ص76، وينظر كتاب سيبويه، باب "الاستقامة من الكلام والإحالة"، ج1/ص25-26.
[4]- ينظر مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص91.
[5]- عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل، ص55.

لكن ينبغي أن تكون بينها درجة معيّنة من الدلالية[1]، ثم إنّ توالي الجمل في حدّ ذاته لا يكون جزافيا؛ بل يظلّ هو الآخر مرتبطا بما تقتضيه الوظيفة الإخبارية المقصودة.

والكلام يختلف ويتفاوت انطلاقا من الحرية التي تمكّن المرسل من التعامل مع هذه الأنماط في شتى الاتّصالات اللغوية، لكن تبقى «درجات حرية المتكلّم في اختيار وتأليف الوحدات اللسانية تفسّر بطبيعة اللغة ذاتها»[2]. وكلّ ذلك يبقى مؤسّسا على الاستعمال، باعتباره الأساس الذي نقيس عليه صحّة الإبداعات اللغوية، ولذا «لا يكمل لصناعة الكلام إلاّ من يكمل لإصابة المعنى، وتصحيح اللفظ، والمعرفة بوجوه الاستعمال»[3]. وتتعلّق "وجوه الاستعمال" هذه بما يقتضيه النظام اللغوي وقواعده، فأي اتّصال لا يخرج عنه.

فاللغة هي التي تحفظ وتضمن سيرورة التواصل بين المرسل والمرسل إليه، كما أنّها تحدّد أبعاد الاختيار والتأليف سواء أكان الاتّصال شفاهيا أم كتابيا. ويضرب "جاكبسون Jakobson" لذلك مثالا فيقول: «مهندس الاتّصالات يقترب من جوهر فعل الكلام عندما يؤكّد بأنّه في التبدّل الأمثل للأخبار، يكون في متناول الذات المتكلّمة والمستمع تقريبا، نفس مذكّرة التنفيذ الجاهزة: يختار مرسل الرسالة اللفظية واحدة من بين الإمكانيات المرتقبة والمعدّة سلفا، وهكذا فإنّ فعل الكلام يستلزم استعمالا لسنن مشترك بالنسبة للمتكلّم كي يكون فعّالا»[4]. فلكي نضمن الفعّالية للرسالة اللغوية لابدّ من مراعاة السنن التي يقتضيها نظام اللغة؛ كونه المصدر الذي يؤطّر الإنتاج الكلامي، ويجعله يتصّف بالقبولية، ويبتعد منتجه عن سوء الصنعة، والتي تتنافى في أساسها مع الصفات الحسنة المؤطّرة لكل الاتّصالات اللغوية.

وقد بيّن العسكري أنّ سوء الصنعة «يتصرّف على وجوه منها؛ سوء التقسيم وفساد التفسير، وقبح الاستعارة والتطبيق، وفساد النسج والسبك»[5]. فمتى سُجِّلت على الكلام هذه المآخذ ضاعت بلاغته المبنية على الوضوح والإفادة.

ويجب أن نشير إلى أنّ أبا هلال قد ميّز بين الكلام العادي والكلام غير العادي، أو بالأحرى "الكلام المختار"، وذكر أنّ «المختار من الكلام ما كان سهلا جزلا لا يشوبه شيء من كلام العامة وألفاظ الحشوية، وما لم يخالف فيه وجه الاستعمال؛ ألا ترى إلى قول المتنبي:

أيْنَ البَطَاريقُ والحِلْفُ الذي حَلَفوا بمَفْرَقِ الملكِ والزَّعْمِ الذي زَعَموا

---

[1]- ينظر جان سيرفوني، الملفوظية، ترجمة قاسم المقداد، دمشق اتحاد الكتاب العرب، 1998، ص16.
[2]- عبد القادر الغزالي، اللسانيات والتواصل، ص55.
[3]- العسكري، الصناعتين، ص75.
[4]- عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل، ص56.
[5]- الصناعتين، ص48.

هذا قبيح جدّا؛ وإنّما سمع قول العامة حلف برأسه فأراد أن يقول مثله فلم يستو له، فقال بمفرق الملك، ولو جاز هذا لجاز أن يقول: حلف بيافوخ أبيه، وبقَمَحْدُوة سيِّده. وقُبْحُ هذا يدلّ على أنّ أمثاله غير جائز في جميع المواضع»[1]. فكلّ صنف من الكلام يقتضي نوعا من الاستعمال تقتضيه الطبقة التي يتوجّه إليها من جهة، ويحدّده مقتضى الحال من جهة أخرى.

4-المقام:

لا يمكن تجاهل المقام في العملية الاتّصالية، فهو «أحد المبادئ العامة في إنشاء الرسالة الناجحة القادرة على التوفيق بين مستواها ومحتواها ومضمون المتلقّي»[2]. وأبو هلال لم يتغاض عنه؛ بل أولاه أهمية كبرى، فاعتبره من المكوّنات التي تسهم في صنعة الكلام، فعلى المتكلّم مراعاته في كل توظيف للغة، هذا إذا ما اعتبرنا هذه الأخيرة نظاما «من العلاقات أو الدلائل اللغوية، كما تعمل الآلة التي بواسطتها يتناقل الناس الخبر عن الأشياء»[3]. وهذه اللغة تتطلّب في حدّ ذاتها أمرين معا:

أوّلهما: توكيد أهمية "الموقف الكلامي"، أو "المقام"، أو "السياق" الذي تباشر فيه اللغة عملها.

ثانيهما: النظر إلى العوامل الرئيسية التي ينتظمها الموقف؛ وهي المتكلّم أو الباث، والمستمع أو المستقبل[4].

وقد انطلق العسكري في تأكيده على المقام من أفكار بشر بن المعتمر الذي يقول: «ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاما، ولكلّ حالة من ذلك مقاما، حتى يقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات»[5]. فأدنى تأمّل لهذا القول يقودنا إلى التركيز على الأمور التالية:

الأمر الأول يتعلّق بالرسالة ومستواها (اللفظ والمعنى)، ومستوى متلقّيها (المستمع وطبقته).

الأمر الثاني يرتبط بالظروف الذي تُنشأ فيه الرسالة، أو السيّاق الذي يؤطّرها؛ ويتضمّن «مجمل الشروط الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي واستعمال اللغة... وهي المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقّي والوضعية الثقافية والنفسية والتجارب والمعلومات الشائعة»[6].

---

[1]- العسكري، المصدر نفسه، ص155.

[2]- خليل أبو أصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتّصال المعاصر، ص115.

[3]- هادي نهر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، بيروت دار الأمل للنشر والتوزيع، (د.ت)، ص161.

[4]- هادي نهر، المرجع نفسه، ص161.

[5]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص138-139، وينظر: العسكري، الصناعتين، ص141.

[6] عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص9.

والأمر الثالث يجمع بين الرسالة ومستواها، والمستمعين والسيّاق الذي تصدر فيه، يقول أبو هلال: «وينبغي أن تعرف أقدار المعاني، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين، وبين أقدار الحالات، فتجعل لكلّ طبقة كلاما، ولكلّ حال مقاما، حتى تقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات»[1]. وهذا ما يعكس لنا أمرين أساسين يجب مراعاتهما أثناء إنشاء الرسالة اللغوية[2]:

أ-ضرورة التكييف بين أقدار المعاني وأقدار المستمعين؛ أي لا بدّ من انتقاء المضمون الذي يلائم المرسل إليه بحسب ما تقتضيه قدراته، ولا يتأتّى هذا إلا إذا أحسن المتكلّم تخيّر الألفاظ، وأصاب معانيها. يقول بشر بن المعتمر: «أن يكون لفظك شريفا عذبا وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت»[3].

ب-ضرورة التكييف بين الرسالة اللغوية وما يستدعيه الحال، فللسياق دور هام في ضبط خصوصيات الرسالة الإبلاغية، يقول أبو هلال: «واعلم أنّ المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال، فإن كنت متكلّما، أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب، أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد، فتخطّ ألفاظ المتكلّمين؛ مثل الجسم والعَرَض والكَوْن والتأليف والجوهر، فإنّ ذلك هجنة»[4].

فعلى كل مرسل أن يراعي الطبقة التي يوجّه إليها رسالته، وذلك بالتنسيق بين التخيير والتنسيق، بيد أنّ هذا التنسيق «لا يستعمل في نمط مقامي واحد؛ بل في أنماط مقامية متباينة، استجابة لمقتضيات الحال. فالتباين في الأنماط المقامية، يستلزم التباين في التراكيب»[5]. ولذا فإنّ هذا التناسق أو الاحتواء «مشروط ومقيّد ومقيّد بمحدّدات مقامية، لابدّ من مراعاتها حفاظا على ميثاق التواصل بين المتكلمين والمعنيين»[6]. وهذا ما أشار إليه العسكري أيضا؛ إذ يقول: «فأوّل ما ينبغي أن تستعمله في كتابتك؛ مكاتبةُ كلِّ فريق منهم على مقدار طبقتهم وقوتهم في المنطق»[7]. ولكي يوضِّح هذه القضية قدّم أمثلة متنوّعة ضمن موضوعات كثيرة منها الدعاء النهي الأمر وغيرها.

ويمكن أن نبيّن فكرة المقام بشكل أوضح في المخطط التالي[8]:

---

[1]- الصناعتين، ص141.

[2]- عبد الحليم بن عيسى، الاتّصال اللغوي بين الدقة والغموض، مجلة اللغة والاتصال، وهران دار الأديب، مختبر اللغة العربية والاتصال، العدد الأول، أكتوبر 2003، ص22.

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص136، وينظر: العسكري، الصناعتين، ص140.

[4]- الصناعتين، ص141.

[5]- مسعود صحراوي، الأفعال المتضمّنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، ص26.

[6]- محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوّره في البلاغة المعاصرة، ص77.

[7]- الصناعتين، ص160.

[8]- ينظر جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص131.

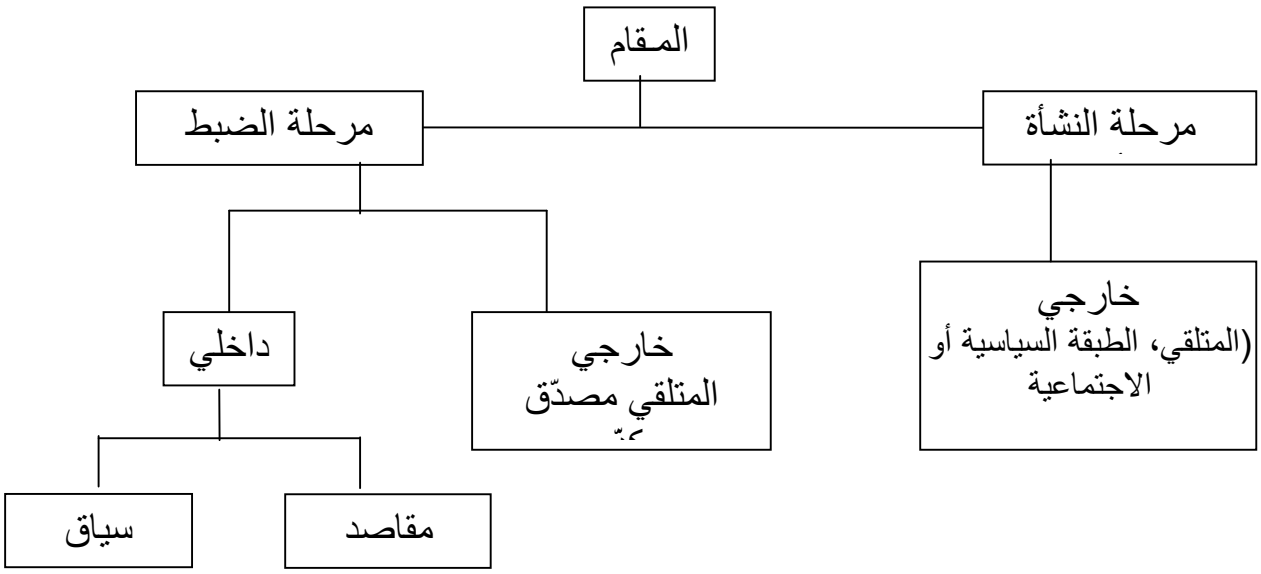

فالمخطط يبرز أنّ المقام مرّ بمرحلتين متباينتين في تصوّر البلاغيين العرب؛ المرحلة الأولى هي مرحلة النشأة والتأصيل، وكانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمتلقّي ووظيفته؛ أي «هي انعكاس وتوطيد بواقع الفارق الطبقي الحاد بين السيّد الحاكم والعبد المحكوم في المجمع العربي القديم، وهو واقع وجب مراعاته بغية استرضاء الطبقة العالية لجلب خيرها ودفع شرها»[1].

وفي ظل هذا التصوّر يبقى المتكلّم ملزما بأن «يعرف مقدار المكتوب إليه من الرؤساء والنظراء والغلمان والوكلاء، فتفرّق بين من يُكتب إليه بصفة الحال وذكر السلامة، وبين من يُكتب إليه بتركها إجلالا وإعظاما»[2]. لذلك يوظّف المتكلّم تقنيات تحقّق له هذا المعطى؛ وهي من الآليات التداولية؛ منها استخدام اللفظ القريب المفهوم، أو الإيجاز أو الإطناب بحسب مقصدية المرسل. قد نوضّح ذلك بموضوع "الاعتذار"، فهو ملزم في نظر العسكري بأن «يتجنّب فيه الإطنابَ والإسهاب إلى إيراد النكت التي يتوهّم أنّها مُقْنِعَة في إزالة الـمَوْجِدَة، ولا يمعن في تبرئة ساحتِه في الإساءة والتقصير، فإنّ ذلك مما يكرهه الرؤساء، والذي جرت به عادتهم الاعتراف من خدمهم، وخَوَلهم بالتقصير والتفريط في أداء حقوقهم، وتأدية فروضهم»[3]. فالمقام ههنا مقيّد بطريقة معيّنة يأتي على أساسها إنتاج الكلام؛ أي تحوير عنها يؤدّي إلى ضياع الغاية التي تتأسّس عليها الرسالة الإبلاغية.

وهذا ما نلاحظه أيضا مع العسكري في مختلف الموضوعات؛ كباب الشكر مثلا الذي يقتضي من المرسل «أن لا يقع فيه إسهاب؛ فإنّ إسهاب التابع في الشكر، إذا رجع إلى خصوصية، نوعٌ من الإبرام والتثقيل، ولا يَحْسن منه أن

[1]- جميل عبد المجيد، البلاغة والاتّصال، ص131.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص164-165.
[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص164.

يستعمل الإكثار من الثناء والدعاء أيضا، فإنّ ذلك فعلُ الأباعد الذين لم تتقدّم لهم وسائل من الخدمة ومقدّمات في الحرمة»[1].

فالآلية ههنا تتجلّى لنا من خلال ما يمكننا أن نسميه بـ "التكييف الاتصالي"، أي إنتاج الرسالة اللغوية بطريقة دقيقة ومضبوطة؛ مقيّدة بالموضوع الذي تدور حوله من جهة، والمرسل إليه الذي تتوجّه إليه من جهة أخرى.

أما مرحلة التقعيد فكانت واسعة؛ لأنّها اهتمّت بالمتلقّي (مصدّق مكذّب)، والسعي إلى إقناعه، والتأثير فيه، وبيان المقصديّة، مما يجعل «غاية البلاغة إيقاع التصديق؛ وهي غاية تستوجب –فيما رأوا- الحسم والمصادرة من قبل المرسل، وذلك باستخدام "إن" وما شابهها من أدوات التوكيد وأساليبه»[2]. فالمقام يستوجب استعمال ما يتوافق مع الموضوع المطروح، في إطار ما يقتضيه إقناع المتلقّي. فالمتكلّم «مثلا عندما يستخدم مقدّماته العقلية في بداية طرحه، فهو يسعى إلى بناء أول جسور التواصل المقنع بينه وبين مخاطبيه الذين يرغب في انخراطهم معه في التسليم بتلك المقدّمات، لكن عدم الحذق في طرحها مع ما ينسجم مع الموضوع والمقام معا، قد يتسبّب في رفض المخاطبين لذلك الميثاق»[3].

لذا فإنتاج الرسالة يكون مقيّدا بمقتضيات المقام، فتستعمل –مثلا- أدوات التوكيد في مقامها، بحسب الموضوع المعالج، وقد لاحظ العسكري «أنّ المعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمر والنهي، سبيلها أن تؤكّد غاية التوكيد بجهة كيفية نظم الكلام، لا بجهة كثرة اللّفظ؛ لأنّ حكم ما ينفذ عن السلطان في كتبه شبيهٌ بحكم توقيعاته؛ من اختصار اللفظ، وتأكيد المعنى»[4]. والآلية التداولية نفسّرها ههنا من طبيعة العلاقة الواردة بين المقام والموضوع من جهة أولى، والمقام والمتلقي من جهة ثانية. وفي إطار هذه العلاقة يظهر دور المتكلّم الذي يراعي هذه المعطيات.

ومن هذا التصوّر ككل تتجلّى خصائص المقام وعلاقته ببقية الأركان التي تسهم في الفعل الكلامي، وقد اتّضحت أكثر من الفكرة الدقيقة والمركّزة التي صاغها بلاغيونا؛ وهي "لكل مقام مقال"، والتي تبنّاها العسكري، وقد طُرحت في البلاغة الجديدة.

ويمكننا صياغة تصوّر مبدئي للمقام على النحو التالي[5]:

---

[1]- العسكري، المصدر نفسه، ص163.

[2]- جميل عبد المجيد، البلاغة والاتّصال، ص132.

[3]- محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوّره في البلاغة المعاصرة، ص83.

[4]- الصناعتين، ص162.

[5]- ينظر جميل عبد المجيد، البلاغة والاتّصال، ص133.

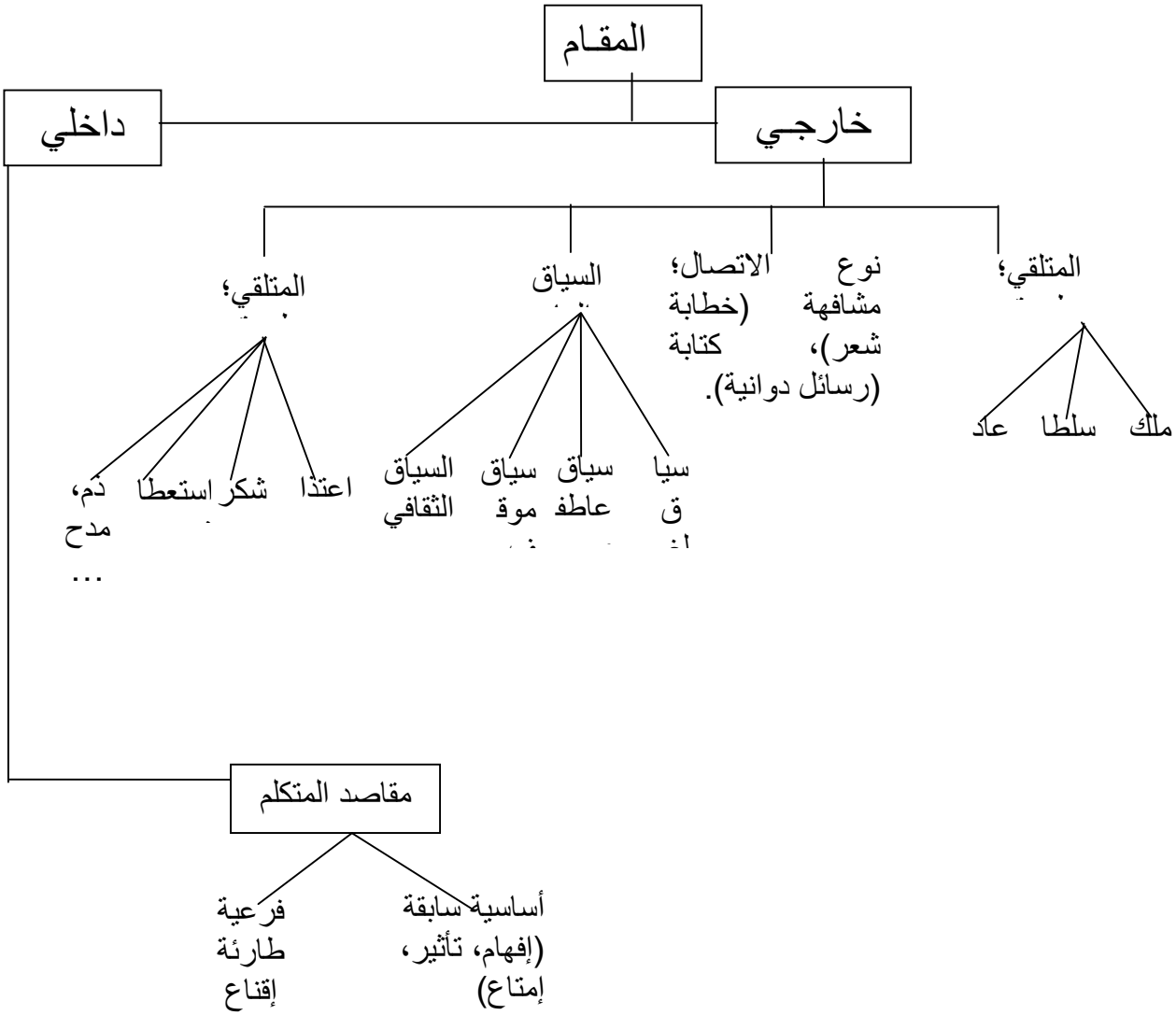

وما يمكن قوله من هذا المخطط إنّ المقام قد يتوسّع بحيث قد «يكون له مردود قوي في صياغة الخطاب وتقنياته، من حيث كونه رسالة تستهدف استمالة المتلقّي والتأثير فيه، وإنّ هذا المقام منه ما هو خارجي، وما هو داخلي»[1]. فالمقام الخارجي يتعلّق بالمتلقي وكلّ ما يميّزه، والآثار التي قد تتركها الرسالة سواء أكانت شعرا أو خطبة. وقد نضيف تلك الحالة النفسية التي تعقب فهم الرسالة؛ إذ ثمّة «زاوية أخرى متغيّرة من جهة أولى، ومصاحبة لعملية الاتّصال ولاحقة بها

[1]- جميل عبد المجيد، البلاغة والاتّصال، ص133.

من جهة ثانية، وهي حالته النفسية، وما يصدر عنه من إقبال أو إدبار، وتأييد أو اعتراض، واستفسار أو جواب... إلخ»[1]. فالنفس تميل دائما لما قد يستميلها، وتبتعد عمّا تستكرهه وينفّرها.

وقد عبّر العسكري عن ذلك؛ فالكلام المقبول لدى المتلقّي ما «جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة، مع السلاسة والنصاعة، واشتمل على الرونق والطلاوة، وسلم من حَيْفِ التأليف، وبَعُد عن سماجة التركيب، وورد على الفهم الثاقب، قَبِلَه ولم يردّه، وعلى السَّمع المصيب، استوعبه ولم يمجّه، والنفس تقبل اللطيف، وتنبو عن الغليظ، وتقلق من الجاسي البشع، وجميع جوارح البدن وحواسِّه تسكن إلى ما يوافقه، وتنفر عما يضادّه، ويخالفه، والعين تألف الحسن، وتقذى بالقبيح... والسمع يتشوّف للصواب الرائع، وينزوي عن الجهير الهائل»[2]. فإذا اتّصف الكلام بكلّ هذه الصفات يستأنس له المتلقّي، ويُقْبِل عليه، وتطرب له أذنه، مهما كانت طبقته.

أما نوع الاتّصال فهو محدّد مشافهة (النطق)، أو كتابة (الخط)، وكل منهما يستدعي شروطا مقامية. أما السياق فيتضمّن –بحسب تقسيم بعض الباحثين- كل ما له صلة باستعمال الكلمة والعلاقات التي قد تنجم عن هذه العلاقات اللغوية، وفي أي ظروف اجتماعية، ومجمل السمات الثقافية والنفسية وغيرها[3].

أما طبيعة الموضوع فهي التي تفرض على المرسل أن يحدث ذلك الاتّساق والتشاكل بين الألفاظ والمعاني، سواء أكانت الرسالة سياسية موجّهة للسلطان في أمور الحكم، أو دينية أو قانونية للقاضي مثلا. أما المقام الداخلي فهو مرتبط جوهريا بالمرسل وما يستخدمه من تقنيات، تخوّل له إبلاغ مقاصده للمتلقّي لكي يجني الفائدة، وهو ما تركّز عليه التداولية.

---

[1]- جميل عبد المجيد، المرجع نفسه، ص133-134.

[2]- الصناعتين، ص63.

[3]- ينظر أحمد عزوز، المدارس اللسانية أعلامها مبادئها ومناهج تحليلها للأداء التواصلي، ص161.

الفصل الثالث: خصائص الرسالة اللغوية وأغراضها عند العسكري.

1-خصائص الرسالة اللغوية لدى العسكري:

أ-الإيجاز:

ب-الإطناب:

ج-الفصل والوصل:

2-الاتّصال اللغوي بين الظاهر والعدول:

أ-المستوى المثالي في الأداء العادي:

ب-مستوى الكلام الإبداعي:

3-أغراض الرسالة اللغوية:

أ-غرض الإفهام:

ب-غرض الإقناع:

ج-غرض التأثير والإمتاع:

الفصل الثالث: خصائص الرسالة اللغوية وأغراضها عند العسكري.

حاول أبو هلال أن يحدّد خصائص جوهرية للرسالة اللغوية وما تقتضيه من شروط لتكون حسنة التأليف وذات جودة في التركيب من جهة، ولتحقّق الأغراض المنوطة بها من جهة أخرى، فـ «أجناس الكلام المنظوم ثلاثة: الرسائل والخطب والشعر، وجميعها تحتاج إلى حسن تأليف وجودة تركيب»[1]. وقد ارتكز في ذلك على مفاهيم البلاغة وشروطها، وكان قد استمدّها من بعض الحكماء والبلغاء مبرزا فيها جملة من الخصائص، والمبَيَّنة من خلال مجموعة من الأمثلة.

وكانت البلاغة الأساس في ذلك؛ لأنّها تضمّ العلوم الثلاثة التي تبرز جميع الخصائص التي تؤطّر الرسالة اللغوية، غير أنّ مباحث هذه العلوم قد وردت متفرِّقة في الصناعتين، ولكن بقيت مرتبطة ببيان الخصوصيات التي تسهم في توصيل المعنى إلى قلب السامع في صورة مقبولة ومعرض حسن.

ومن الخصائص التي استنبطناها تلك المرتبطة بعلم المعاني الذي يهتم بأساليب التعبير، ويوضّح الضوابط التي تقي من الوقوع في الخطأ في تأدية المعنى المراد. ويعرّفه السكاكي بقوله: «اعلم أنّ علم المعاني هو تتبّع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتّصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»[2].

وهذا ما يعلّل لنا «كيف عنى البلاغيون بدراسة أساليب التعبير للرسالة التي بها تتنوّع الأساليب وتختلف مع اختلاف الحال؛ إذ أنّ مهمتها دراسة كيفية مطابقة الكلام الحالات»[3].

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص37.
[2]- السكاكي، مفتاح العلوم، مصر مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ط2، 1990، ص91.
[3]- أبو الأصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال المعاصر، ص120.

ولذلك حرص الدارسون على إبراز العناصر البلاغية التي تؤطّر الأساليب اللغوية التي تضمن فعّالية تحقيق الاتّصال الناجح. وهذا ما وجدناه ماثلا عند العسكري الذي تناول «أساليب التعبير المختلفة للرسالة التي عالجها علم المعاني على سبيل المثال الخبر، وكيفية إلقاء المتكلّم الخبر، والإيجاز والإطناب»[1].

ولكن ما يجدر الإشارة إليه في هذا المقام هو أنّه إذا كان «علم المعاني يتّصل بدراسة الأسلوب من حيث ما يعرض للجملة، فإنّ علم البيان يتّصل بها من حيث ما يعرض للمفرد، فالمبدع في مجال البيان تواتيه المقدرة الفنيّة على إيراد المعنى الواحد في صياغات متعدّدة أو طرق مختلفة، وهي طرق تتميّز بالتغاير في الوضوح والخفاء والتمام والنقصان، كما تتميّز أيضا بارتباطها بفكرة الإرادة أو الإفادة المتمثّلة في الصياغة من خلال تبادل العلاقات بين الدال والمدلول»[2].

فالمبدع أو صانع الكلام على حسب أبي هلال يتفنّن في اختيار الصياغة المناسبة للموقف الكلامي بكل ظروفه، مما يفرض عليه الانتقاء اللفظي الحسن المستوفي للمقصود. وهذا ما اهتمّت به التداولية باعتبارها تبحث في «كيفية فهم الناس وإنتاجهم لفعل تواصلي أو فعل كلامي في إطار موقف كلامي ملموس ومحدّد. وتميّز التداولية بين معنيين في كل ملفوظ أو فعل تواصلي لفظي، الأول هو القصد الإخباري أو معنى الجملة، والثاني القصد التواصلي أو معنى المتكلّم»[3].

فلابدّ للمتكلّم أن ينتج كلامه بحسب ما يقتضيه النظام اللغوي من جهة، وما يعبّر عن مقصوده من جهة أخرى، ومن ذلك تتجلّى الكفاءة التواصلية التي تمكّنه من إدراك أبعاد الرسالة اللغوية في التواصل اللغوي المعيّن. و«القدرة على فهم

---

[1]- أبو الأصبع، المرجع نفسه، ص120.
[2]- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص194,
[3]- عادل الثامري، التداولية واللسانيات، الثلاثاء 2006/4/2،
www.elaph.com/elaphweb/elaphwriter/2006/5/145630.htm

وإنتاج فعل تواصلي يطلق عليها "الكفاءة التداولية"، والتي تتضمّن معرفة المرء بالمسافة الاجتماعية والمرتبة الاجتماعية بين المشاركين في الموقف، وكذلك المعرفة الثقافية والمعرفة الظاهرة والضمنية»[1].

وتناول أبعاد هذه الفكرة البلاغيون حين حديثهم عن ضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ فأكّدوا أنّ «مقتضاه يختلف بحسب اختلاف مقامات الكلام، فإنّ مقام التنكير يخالف مقام التعريف، ومقام الذكر يخالف مقام الحذف، ومقام الفصل يخالف مقام الوصل، ومقام الإيجاز يخالف مقام الإطناب والمساواة»[2]. وكلّ ذلك بحسب الأغراض التي يريد المرسل تحقيقها؛ فالغايات تختلف وطبيعي أن تتنوّع معها أنماط الأفعال اللغوية.

1-خصائص الرسالة اللغوية لدى العسكري:

لم يخصّص العسكري مبحثا لبيان خصائص الرسالة اللغوية؛ بل وردت متفرّقة ضمن مباحث كتابه، وقد ارتبطت في أساسها بمجموعة من التقنيات التي يرتكز عليها المتكلّم لإيصال المعنى المقصود إلى المتلقّي، ويجب أن نشير قبل الوقوف عليها إلى أنّها قد ظلّت مرتبطة بموضوع الكلام من جهة، والغايات التي يُراد تحقيقها من جهة أخرى.

أ-الإيجاز:

وهو من أهم الخصائص التي ارتكز عليها العسكري، واعتمد في شرحه على مجموعة من الأقوال منها؛ «الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل في باب الهذر والخطل، وهما من أعظم أدواء الكلام، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة»[3]. فالإيجاز يعدّ المعيار

---

[1]- عادل الثامري، نفسه.

[2]- السيوطي، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، القاهرة مطبعة إحياء الكتب العربية عيسى البابي وشركاه، ص6.

[3]- العسكري، الصناعتين، ص179.

الرئيسي الذي نستطيع على إثره أن نميّز صاحب الصنعة المحمودة من غيرها، وإنّما كان له هذا الشأن لأنّه يدلّ على القدرة التي تظهر كفاءة المتكلّم من التعبير عن المراد بالكلام القليل.

وقد عرّفه الرماني «بأنّه تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبّر عنه بألفاظ كثيرة، ويمكن أن يعبّر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز»[1]. فالإيجاز مؤسّس على تقليل الكلام، مع استيفاء المعنى المراد وعدم الإخلال به. وهو من محمود الكلام، لذلك قال أبو هلال: «إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا»[2]. وإنّما قد أوصى العسكري بالإيجاز؛ لأنّ له محاسن لا تتحقّق مع غيره.

واهتم صاحب الصناعتين بالإيجاز، وعالجه بطريقة دقيقة، وقد قدّم التقسيم الاصطلاحي «الذي لا يزال حتى اليوم وأكبر الظن أنّه لم يعالجه أحد قبله ممن تكلّم في النقد، وإن كان النحاة قد تكلّموا في إيجاز الحذف، وذكروا أنواع المحذوف في أبواب متفرّقة من النحو»[3].

وبيّن أبو هلال أنّ بالإيجاز يتحقّق الإفهام المطلوب في الكلام، مستشهدا بقول أحد الحكماء «عليكم بالإيجاز فإنّ له إفهاما، والإطالة استبهاما»[4]. فهو مرتبط بفهم السامع واستيعابه للفكرة المرادة، لذا بقيت «مسألة الإيجاز تأخذ المتّصل/المرسل في اعتباره أن للمتلقّي قدرته على الاستيعاب من ناحية، ومن ناحية أخرى أنّ له قدرة محدودة زمنيا للمتابعة»[5]. وهذه الأخيرة هي التي تجعل المتكلّم يجنح أكثر إلى ما قلّ من الكلام، وأبان عن المقصود.

---

[1]- النكت في إعجاز القرآن، ص76.
[2]- الصناعتين، ص179.
[3]- بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص207.
[4]- الصناعتين، ص179.
[5]- أبو الأصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال المعاصر، ص122.

وأشار إلى هذه القضية من قبل الجاحظ الذي قال: «قال الحسن لا بأس فيك عيب إلا كثرة الكلام، قال فتسمعون صوابا أم خطأ، قال: الكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك الفاضل هو الهذر وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه»[1]. وهذا ما أثاره أيضا أحد الحكماء بقوله: «إذا كفاك الإيجاز فالإكثار عيّ، وإنّما يحسن الإيجاز إذا كان هو البيان، ولبعضهم خير الكلام قليل على كثير دليل، والعيّ معنى قصير يحويه لفظ طويل»[2].

فمن سمات الرسالة اللغوية أن تتمتّع بالإيجاز المفيد، وهو من البلاغة لذلك لاحظ العسكري اقتران تعريفها به، ففي حدّها يكاد «يرادف عند بعضهم لفظ الإيجاز، ولا يعدوه، وهذه الموهبة التي عرف بها العرب الخلّص، والتي هي قوام بلاغتهم»[3]. وليدعّم أبو هلال ذلك استشهد بنظم بعض الشعراء كالنابغة الذبياني والفرزدق والحطيئة؛ فذكر أنّ الفرزدق حين سُئل «ما صيّرك إلى القصائد القصار بعد الطوال؟ فقال: لأنّي رأيتها في الصدور أوقع، وفي المحافل أجول»[4]. فهذا الشاعر فضّل القصائد القصار على الطوال بحكم الأثر الذي ستتركه في قلب السامع أو المتلقّي من جهة، والبلاغة التي يقتضيها الإيجاز في المحافل أو في مكانها المناسب من جهة أخرى. وكما أورد أنّ الحطيئة حينما سألته ابنته عن قصار قصائده أكثر من طوالها ردّ عليها قائلا: «لأنّها في الآذان أولج، وبالأفواه أعلق»[5]. فالقصائد الموجزة تكون ذات وقع أكثر في النفوس، فتمكّن العقول من استيعابها، والأفواه من ترديدها.

---

[1]- البيان والتبيين، ج1، ص122.
[2]- ابن عبد ربّه، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وإبراهيم الأبياري، القاهرة مطبعة لجنة التأليف، 1956، ص273.
[3]- إحسان النص، الخطابة العربية في عصرها الذهبي، مصر دار المعارف، ط2، 1963، ص196.
[4]- العسكري، الصناعتين، ص180.
[5]- العسكري، المصدر نفسه، ص180.

ويجب أن نشير إلى أنّ بلاغة الإيجاز تظهر في مقدرة المرسل على التعبير عن مجمل أفكاره تعبيرا موجزا وشاملا، من شأنه أن يصبغه بالصبغة التي يكون إثرها أبلغ الوقع، وأقوى الأثر، في نفس السامع[1]. وهذا ما استحسنه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بقوله: «ما رأيت بليغا قطّ إلاّ وله في القول إيجاز، وفي المعاني إطالة»[2].

وقد أخذ الإيجاز حيّزا واسعا لدي اللسانيين، بحكم أنّه «يتحقّق في كلّ مرحلة من التطوّر، توازن بين حاجات التبليغ التي تتطلّب وحدات أكثر عددا، وأكثر خصوصية، تظهر كلّ واحدة منها بدرجة أقل تواترا في الأقوال بين حمول الإنسان الذي يدفعه إلى استعمال عدد محدود من الوحدات ذات قيمة أكثر عمومية، واستعمال أكثر تواترا»[3].

وقد تحدّث "أندري مارتني André martinet" عنه ضمن مصطلح "الاقتصاد اللغوي Economie linguistique"[4]، وبيّن أنّه «لا يمكن أن نحصر معنى "الاقتصاد" في معنى "التقتير Parcimonie" كما فعل " Passy" حين قابل كلمة الاقتصاد بكلمة "التبذير Emphase"؛ بل إنّ الاقتصاد يشمل كلّ شيء: تقليص كل تمييز غير مفيد، وإظهار تمييزات جديدة والإبقاء على الوضع الراهن(Statu quo)، فالاقتصاد هو التآلف بين كل القوى المتواجدة»[5].

وقد وضّح أبو هلال أنواع الإيجاز فحلّلها مستشهدا بآي القرآن الكريم والأحاديث النبوية وبعض أقوال الحكماء والمشاهير. وبيّن أنّ الإيجاز يكون بالقصر وبالحذف، فالأوّل يكون بـ «تقليل الألفاظ وتكثير المعاني»[6]. ويتعلّق هذا

---

[1]- ينظر إحسان النص، الخطابة العربية في عصرها الذهبي، ص196.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص180.
[3]- أندري مارتني، مبادئ في اللسانيات العامة، ترجمة سعدي الزبير، الجزائر دار الأفاق، ص153.
[4] André martinet économie des changements phonétiques, berne franik édition, 1955, p 97.
[5]- أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطوّر، ص155.
[6]- العسكري، الصناعتين، ص181.

الصنف بذكر الكلمات القليلة التي تومئ إلى المعاني الكثيرة من غير حذف[1]. وقد قيل: «من أبلغ الناس؟ قال: من حلّى المعنى المزيز باللفظ الوجيز، وطبّق المفصّل قبل التحزيز -المزيز الفاضل، والمزّ الفضل»[2].

ومن أمثلته قوله عزّ وجلّ: **(وَلَكُم فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ)**[3]؛ إذ يتّضح فضل هذا الإيجاز «إذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه، وهو قولهم "القولُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ"، فصار لفظ القرآن فوق هذا القول لزيادته عليه في الفائدة، وهو إبانة العدل بذكر القصاص وإظهار الغرض المرغوب عنه فيه لذكر الحياة، واستدعاء الرغبة والرهبة لحكم الله به ولإيجازه في العبارة. فإنّ الذي هو نظير قولهم "القتل أنفى للقتل" إنّما هو "القصاص حياة"، وهذا أقلّ حروفا من ذاك، ولبعده من الكلفة بالتكرير، وهو قولهم "القتل أنفى للقتل". ولفظ القرآن بريء من ذلك، وبحسن التأليف وشدّة التلاؤم المدرك بالحس؛ لأنّ الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة»[4].

وذكر الرماني أنّ بين قول العرب "القتل أنفى للقتل" و«بين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز، وذلك يظهر من أربعة أوجه: أنّه أكثر في الفائدة، وأوجز في العبارة، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة، وأحسن تأليفا بالحروف المتلائمة»[5]. ومن هذا التفاوت يتجلّى الإعجاز القرآني الذي يتعدّى في تأليف آياته كلام البشر.

فالقصر يتعلّق بذكر الألفاظ القليلة ذات الدلالات الكثيرة، والتي تغني عن ذكرها مع كلمات أخرى، ويتّضح ذلك أكثر في قوله تعالى: **(أولَئِكَ لَهُم الأمْنُ)**[6]؛

---

[1]- الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص76.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص181.
[3]- البقرة (189).
[4]- العسكري، الصناعتين، ص181.
[5]- الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص77.
[6]- الأنعام (27).

إذ «دخل تحت الأمن جميع المحبوبات لأنّه نفى به أن يخافوا شيئا أصلا من الفقر والموت وزوال النعمة والجور، وغير ذلك من أصناف المكاره، فلا ترى كلمة أجمع من هذه»[1].

فالقصر يقوم على استيفاء الكلمة المذكورة للمعاني الكثيرة التي قد يتطلّب ذكرها المفردات الكثيرة، قال تعالى: **(خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ)**[2]، فقد جمع الله تعالى «جميع مكارم الأخلاق؛ لأنّ في العفو صلة القاطعين والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين، وفي الأمر بالعرف تقوى الله وصلة الرحم وصون اللسان عن الكذب، وغضّ الطرف عن الحرمات والتبرؤ من كل قبيح»[3]. وبلاغة الفعل الكلامي ضمن هذا النوع من الإيجاز ترتبط بهذا التقليل الذي يجعل المتلقّي يدرك المقصود في كلام موجز، ومستوف للإفادة المرجوّة.

ومن توضيحات العسكري نلاحظ آثار المذهب الكلامي، وبالخصوص في إعجاز القرآن الكريم، ولعلّ ما عرضه «في هذا الباب من النصوص القرآنية وعلاجه ما فيها من الإيجاز، وبيان بلاغتها في العبارة والدلالة كان أهم النواحي التي عالج بها إعجاز القرآن في كلام مستقيم مفصّل في كتاب الصناعتين على أنّه مع ذلك لم يقتصر الكلام في هذا الموضوع على آي الكتاب الكريم؛ بل إنّه أورد إلى جانبها كثيرا من موجز القول في الحديث الشريف، وكلام العرب منظومه ومنثوره»[4].

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص182.
[2]- الأعراف (199).
[3]- العسكري، الصناعتين، ص183.
[4]- بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص207-208.

ومن القصر الواقع في الحديث الشريف قوله صلّى الله عليه وسلّم: (إيَّاكم وخضراء الدِّمن)[1]، و(إنّ من البيان لسحرا)[2] ، فـ «معاني هذا الكلام أكثر من ألفاظه، وإذا أردت أن تعرف صحة ذلك فحلّها وابنها بناء آخر فإنّك تجدها تجيء في أضعاف هذه الألفاظ»[3].

أما الصنف الثاني (الإيجاز بالحذف) فيتعلّق بعدم ذكر بعض الألفاظ لأنّها مدركة لدى المتلقّي، يقول قدامة بن جعفر: «وأما الحذف فإنّ العرب تستعمله للإيجاز والاختصار والاكتفاء بيسير القول إذا كان المخاطب عالما بمرادها فيه، كقوله تعالى: **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اِتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)**[4]، وقد فسّرها بقوله "وسكت عن تمام الكلام لعلم المخاطب به، فكأنّ تقدير ذلك "وإذا قيل لهم انفقوا ما بين أيديهم وما خلفهم استكبروا وتمادوا وعتّوا»[5].

وقد جعله العسكري على وجوه كثيرة؛ منها:

1-حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مكانه: وهو أن يُحذف المضاف ويجعل الفعل له، كقوله تعالى: **(وَاسْأَلْ القَرْيَةَ التي كُنَّا فِيهَا)**[6]، بذكر المضاف إليه وإحلاله محلّ المضاف، و«إنّما سوَّغ ذلك الثقة بعلم المخاطب؛ إذ الغرض من اللفظ الدلالة على المعنى، فإذا حصل المعنى بقرينة حال أو لفظ آخر أُستغني عن اللفظ الموضوع بإزائه اختصارا، وإذا حذف المضاف أُقيم المضاف إليه مقامه، وأُعرب إعرابه... فالقرية من حيث هي مدر وحجر لا تُسأل؛ لأنّ الغرض

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص184.
[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص184.
[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص184.
[4]- يس (45).
[5]- نقد النثر، ص69.
[6]- يوسف (82).

من السؤال ردّ الجواب وليس الحجر والمدر ممّا يجيب واحد منهما»[1]. ومنه كذلك قول المنتخّل الهذلي[2]:

يُمَشِّي بَيْنَنَا حَانُوتُ خَمْرٍ مِنَ الخُرْسِ الصَّرَاصِرَةِ القِطَاطِ

فالمراد ههنا صاحب الحانوت، لكن الشاعر أوجز؛ لأنّه يعي أنّ المتلقي قد تسنّى له الوقوف على هذا المقصد، فمن غير المعقول أن يمشي الحانوت.

2-وقوع الفعل على شيئين وهو لأحدهما ويضمر للآخر فعله: ومنه قوله تعالى: **(فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُم وشُرَكاءَكُم)**[3]؛ فالمقصود بذلك "وادعوا شركاءكم"، فالفعل "أجمعوا" قام مقام الفعل المضمر.

3-أن يأتي الكلام على أنّه جواب فيُحذف الجواب اختصارا: فقد يحذف المتكلّم الجواب اختصارا إذا علم أنّ المخاطب سيقف على المقصود منه. وقد وضّح ذلك العسكري بقوله عزّ وجلّ: **(وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرت به الجبال أو قُطّعت بهِ الأَرْضُ أو كُلِّم به الموتى بل لله الأمر جميعا)**[4]، بالسكوت عن الجواب؛ لأنّ المقصود منه مفهوم لدى المتلقّي.

ومنه كذلك حذف كلمة أو كلمتين، وحذف القسم بلا، وإسقاط "لا" وغير ذلك. وفي كلّ هذه الأنواع إيجاز، يبرّر ذلك قدرة المتلقّي على فهم المراد، من دون حاجة المتكلّم إلى ذكر الألفاظ التي تدلّ عليه.

ولكن يجب أن نشير إلى أنّ العسكري ظلّ يؤكّد على الحذف الذي لا يخلّ بالمقصود، ولهذا تحدّث عن الحذف الرديء الذي يؤثّر على المعنى، ومنه قول الحارث بن حلّزة[5]:

وَالعَيْشُ خَيْرٌ في ظِـلاَ لِ النُّوكِ ممن عَاشَ كَدّا

---

[1]- شرح المفصّل، ابن يعيش، ج 3 ص23.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص187.
[3]- يونس (17).
[4]- الرعد (31).
[5] العسكري، الصناعتين، ص194.

و«إنّما أراد "والعيش الناعم خير في ظلال النوك من العيش الشاق في ظلال العقل"، وليس يدلّ لحن كلامه على هذا، فهو من الإيجاز المقصّر. ومثله في نثر الكتّاب ما كتب بعضهم: "فإنّ المعروف إذا زجا، كان أفضل منه إذا توفر وأبطا"، وتمام المعنى أن يقول: "إذا قلّ وزجا"، فترك ما به يتم المعنى وهو ذكر القلّة»[1]. فمهما تنوّعت أنواع الحذف التي تمسّ الكلام فإنّها تظلّ مرتبطة بعدم ضياع المقصود.

وما يمكن ملاحظته من هذه الأصناف هو أنّها مستقاة في أساسها «من ثقافة الرجل النحوية، وقد عولج بعضها في أبواب من النحو متفرّقة، ولكنّ العسكري استطاع أن ينظّمها وأن يجمع شملها، وأخذها عنه علماء البلاغة وشرّاحها فيما بعد»[2]. والدليل على ذلك ارتباط التوضيحات المقدّمة بأبواب النحو.

وهذا ما يجعلنا نهتدي إلى أنّ «سياقات الحذف تمثّل -على نحو من الأنحاء- أثر النحو في خلق العلاقات داخل التركيب، مع الملاحظة أيضا أنّ هذه العلاقات لا تتعامل مع عناصر التركيب على أساس من أهمية بعضها، وعدم أهمية بعضها الأخر، وإنّما السياق هو الذي يعطي لكل عنصر أهميته بحيث يكون إسقاطه مبرزا لهذه الأهمية أكثر من ذكره»[3].

وتتّضح منه أهمية السيّاق الذي يستند إليه المتكلّم، أو صانع الكلام، في بنائه لرسالته، فـ «نفس السامع تتّسع في الظنّ والحساب، وكل معلوم فهو هيّن لكونه محصورا»[4]. وهذا ما أكّدت عليه التداولية التي اعتبرته الأساس الذي تتشكّل في إطاره العملية التواصلية، لأنّه «يمتلك الخيط التواصلي المشترك بين المرسل

---

[1] العسكري، المصدر نفسه، ص194.
[2] بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ص210.
[3] محمد عبد المطلب، جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، بيروت مكتبة لبنان، 1995، ط1، ص184.
[4]- ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج1 ص168.

والمتلقّي، بما في ذلك الوضع الاجتماعي والثقافي والنفسي، والتجارب والمعلومات الشائعة بينهما»[1].

ومن هذا المنطلق تُفسّر الأفعال الكلامية المبنيّة على الإيجاز، باعتبار أنّ مقاصدها الإبلاغية تظلّ في أساسها مرتبطة بالسيّاق. ولكن «إذا كان السيّاق هو الذي يمدّ التركيب بالإفادة الجمالية، فإنّه من جانب آخر هو الذي يكسب التركيب شكله الخارجي، والرصد الدقيق للصورة الشكلية هو الذي يؤدّي بنا إلى المستوى الباطن للصياغة لتُفهم دلالتها الحقيقية»[2]. ومنه تتجلّى فعّالية الإيجاز، كونه يقوم على «طرح الفضول والاستغناء عن ذكر كلّ ما يمكن فهمه من سياق الكلام، وعدم الخوض في تفاصيل الأمور والاجتزاء بالإشارة العابرة واللمحة السريعة وتجنّب الترداد والحشو وإطالة الجمل»[3].

ويبقى "الإيجاز" كمصطلح خاصية من خصائص الكلام عند العسكري، ومن جاء من بعده، ولكن تظلّ ضوابطه مرتبطة بالسياق، تفسّرها العلاقة بين المرسل والمتلقّي. وقد أقرّ بعض اللغويين المحدثين بأنّ في كلّ جملة من الجمل التي قد ينطقها الإنسان فائضا يمكن أن يستغني عن جزئه من دون أن يخلّ بالمعنى، أو أن يعيق السامع على استيعاب ما ورد في الرسالة. و«يبدو ذلك واضحا في اللغة التي نستعملها في البرقيات، والتي نحاول أن نحذف منها أكبر قدر من المفردات التي لا تؤثّر تأثيرا مباشرا على عملية الفهم»[4]. وبلاغة الاتّصال اللغوي ضمن هذا المعطى تتأسس على هذا التفسير، بحكم أنّ المرسل يجنح بطبعه إلى الاستغناء عما يمكن أن يقف عليه المتلقي من الفعل الكلامي الـمُنجز.

---

[1]- عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص9.
[2]- محمد عبد المطلب، جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، ص184.
[3]- إحسان النص، الخطابة العربية في عصرها الذهبي، ص196.
[4]- نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، الكويت عالم المعرفة، سبتمبر 1978، ص28.

ب-الإطناب:

بعدما تحدّث أبو هلال عن الإيجاز في الرسالة اللغوية وأصنافه وأهميته، انتقل إلى خاصية أخرى لا تقلّ أهمية عن سابقتها، تتعلّق بـ "الإطناب"، ولاحظنا أنّه انطلق من المتلقّي لبيان استعمالاته؛ إذ قال: «قال أصحاب الإطناب: المنطق هو بيان، والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والشفا لا يقع إلا بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشدّه إحاطة بالمعاني، ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامة إلا بالاستقصاء، والإيجاز للخواص، والإطناب مشترك فيه الخاصة والعامة، والغبي والفطن، والريّض والمرتاض، ولمعنى ما أطيلت الكتب السلطانية في إفهام الرعايا»[1]. فأبْيَنُ الأفعال الكلامية ما أحاط إحاطة تامة بالمقاصد المرادة، وقد يتحقّق ذلك بالإيجاز أو الإطناب، لكن يبقى الأوّل مرتبطا بالخواص، أما الثاني فيتعلّق في أساسه بالخواص والعوام ذوي المستوى البسيط. ومنه يتّضح كيف أنّ العسكري قد راعى في هاتين الخاصيتين الكفاءة الاتّصاليّة للمتلقّي التي تفرض نفسها على المتكلّم.

وكلاهما لا بدّ منهما أثناء صناعة الكلام، وعلى المتكلّم أن يعي أهميتهما في ذلك، باعتبار أنّ «الإيجاز والإطناب يُحتاج إليهما في جميع الكلام وكلّ نوع منه؛ ولكلّ واحد منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ»[2]. ومن هذا القول تتأكّد ضرورة مراعاة موضع كلّ خاصية في بناء الرسالة اللغوية، فـ «متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيّا، ومتى كانت الكناية في موضع الإكثار كان الإيجاز تقصيرا»[3].

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص196.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص196.
[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص197.

وذكر الرماني أنّ «لكلّ واحد من الإيجاز والإطناب موضعا يكون به أولى من الآخر؛ لأنّ الحاجة إليه أشدّ، والاهتمام به أعظم»[1]. وفي هذا الإطار قدّم أبو هلال بعض الأفعال الكلامية التي تقتضي ذلك، فذكر أنّ «الكتب الصادرة عن السلاطين، في الأمور الجسيمة، والفتوح الجليلة، وتفخيم النعم الحادثة، والترغيب في الطاعة، والنهي عن المعصية، سبيلها أن تكون مشبعة، مستقصاة تملأ الصدور، وتأخذ بمجامع القلوب»[2].

ومثله كتاب المهلّب إلى الحجّاج في فتح الأزراقة: "الحمد لله الذي كفى بالإسلام فقد ما سواه، وجعل الحمد متّصلا بنعمته، وقضى أن لا ينقطع المزيد من فضله، حتى ينقطع الشكر من خلقه، ثم إنّا كنّا وعدوّنا على حالتين مختلفتين، نرى فيهم ما يسرّنا أكثر مما يسوؤنا، ويرون فينا ما يسوؤهم أكثر مما يسرّهم، فلم يزل ذلك دأبنا ودأبهم، ينصرنا الله ويخذلهم، ويمحصنا ويمحقهم، حتى بلغ الكتاب بنا وبهم أجله، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين"[3]. فالاستعمال الكلامي استدعى من الكاتب في هذا النموذج الإطناب القائم على العبارات المتوازية والفواصل من أجل غاية مرتبطة بالتفخيم والتعظيم. فالجمل المذكورة بتعبير "أوستين Austin" تقريرية ملائمة في أساسها مقصد الرسالة اللغوية[4].

ومثل ذلك يكون في المواعظ والعذل والتوبيخ؛ فهذه المواضع تحتاج إلى الإطناب الذي يستميل العقول، ويقنع النفوس التي تحتاج إلى الكلام المشبع غير المطوّل كما بيّن العسكري، باعتبار أنّ «الإطناب بلاغة، والتطويل عيّ؛ لأنّ التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلاً بما يقرب، والإطناب بمنزلة طريق بعيد نزهٍ

---

[1]- النكت في إعجاز القرآن، ص79.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص197.
[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص197.
[4]- علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، ص63.

يحتوي على زيادة فائدة»[1]. فالإطناب مستحسن؛ لأنّه يزيد في توضيح المعنى وتأكيده. أما التطويل فيكثر فيه المتكلّم الألفاظ من غير مراعاة المعنى الأساسي، مما قد يؤدّي إلى نفور المتلقّي.

وقد بيّن العسكري بالأمثلة والتوضيح أنّ الإطناب في الرسالة اللغوية يكون بالشرح الكافي أو التكرار باللفظ ذاته، أو الموضوع في حدّ ذاته، نتبيّن ذلك من قوله: «وقد رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي. وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطا»[2]. فمما خاطب به الله تعالى أهل مكّة قوله سبحانه: **(إِنَّ الذينَ تَدْعُونَ من دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُم الذُّباب شيْئاً لا يَسْتَنْقِذُونَه منه ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ)**[3]. وقوله تعالى: **(إِذاً لَذَهَبَ كلُّ إلهٍ بما خلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ)**[4]. فلما كانت الأفعال الكلاميّة في هاتين الآيتين مرتبطة بمتلقٍّ له دراية بأبعادها ومقاصدها اكتفى الله تعالى بالتلميح والإشارة فقط.

ولكن «قلّ ما تجد قصة لبني إسرائيل في القرآن إلا مطوّلة مشروحة ومكرّرة في مواضع معادة لبعد فهمهم كان وتأخر معرفتهم»[5]. فلمّا كان المتلقّي مما لا يستطيع الوقوف على المقصد بالإيجاز وظّف الله تعالى الأفعال الكلامية المطوّلة، لتبقى الغاية من ذلك توكيد المعنى لدى السامع وتوضيحه. ومنه قوله سبحانه: **(كلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ)**[6]، فالتكرار في الآيتين كان دعوة للمتلقّي من أجل التأمل في عظمة العلم. ومنه كذلك قول الشاعر[7]:

كَمْ نِعْمَـةٍ كَـانَتْ لَكُمْ كَـمْ كَـمْ وكَـمْ

---

[1]- بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه النقدية، ص212.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص199.
[3]- الحج (37).
[4]- المؤمنون (91).
[5]- العسكري، الصناعتين، ص199
[6]- التكاثر (4-5).
[7]- العسكري، الصناعتين، ص199

بالإطناب القائم على تكرار "كم" للدلالة على كثرة النعم وتعدّدها لدى المتلقي.

و«لعلّ أبا هلال العسكري كان أوّل من تكلّم من علماء البلاغة في الفرق بين الإطناب والتطويل، ولهذا كان من الخطأ أن ينسب العلوي في الطراز إلى أبي هلال ما ليس من رأيه، ويدّعي أنّه لم يفرّق بينهما»[1]. وفي ذلك يرى صاحب الصناعتين أنّ العبارة عن المعنى بكلام طويل لا فائدة في طوله، ويمكن أن يعبّر عنه بأقصر منه، مثل قول النابغة[2]:

تبيّنتُ آياتٍ لـها فعرفْتُها لِستّةِ أعْوَامٍ وذا العَامُ السـابعُ

إذ كان ينبغي أن يقول "لسبعة أعوام"، ويتم البيت بكلام آخر يكون فيه فائدة، فعجز عن ذلك فحشا البيت بما لا وجه له[3].

وضمن هذه الخاصية دائما يظهر أنّ الإيجاز والإطناب مرتبطان بالموضوع والغاية المعبّر عنهما من جهة، وطبيعة المرسل إليه من جهة أخرى. ومنه نبيّن أيضا أنّ الخاصيتين مطلوبتان في الرسالة اللغوية، و«لو كان في الإطناب عيب وإخلال، وفي إيجاز منفعة وحسن حال لما نطق بهما القرآن»[4]. وليس ذلك في القرآن الكريم فحسب؛ بل حتى في «كلام الفصحاء إنّما هو شوب الإيجاز بالإطناب والفصيح العالي بما دون ذلك من القصد المتوسط، ليستدلّ بالقصد على العالي، وليخرج السامع من شيء إلى شيء فيزداد نشاطه، وتتوفّر رغبته فيصرفوه في وجوه الكلام إيجازه وإطنابه حتى استعملوا التكرار ليتوكّد القول للسامع»[5].

---

[1]- بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه النقدية، ص213.
[2]- ينظر العسكري، الصناعتين، ص54-55.
[3]- ينظر العسكري، المصدر نفسه، ص55.
[4]- محمد كشاش، علل اللسان وأمراض الكلام، ص105.
[5]- العسكري، الصناعتين، ص199.

ومن هذا القول يتّضح أنّ الإيجاز والإطناب يتنوّعان بحسب درجة المقصد؛ فقد تكون متوسّطة، وقد تكون من القصد العالي الذي يثير السامع فيستميله، غير أنّ قدراته تتفاوت وتتفاضل بحسب درجة الفهم.

وتحدّث العسكري بين الإيجاز والإطناب عن "المساواة" في الرسالة اللغوية، والمقصود بها «أن تكون المعاني بقدر الألفاظ، والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها على بعض، وهو المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب، وإليه أشار القائل بقوله كأنّ ألفاظه قوالب لمعانيه؛ أي لا يزيد بعضها على بعض»[1]. فالمساواة في الاتّصال اللغوي تتحقّق حينما تكون الألفاظ مساوية للمعنى المعبّر عنه، ومثله قول النبي صلّى الله عليه وسلّم: (لاَ تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ تَرَ الأمانة مَغْنَماً والزَّكَاةُ مَغْرَماً)[2]. وذكر العسكري أنّه من العيب أن تكون معاني الكلام أكثر من ألفاظه في التداول اللغوي.

وفي فن الكتابة أورد أبو هلال الحالات التي تستدعي الإطناب، إلا أنّه لم يقدّم المصطلحات التي تحتويها؛ بل تجلّت فيما بعد عند غيره كالقزويني (ت749هـ)، فـ «أنواع الإطناب التي ذكرها التوشيح، والتكرار، والإيغال، والتذييل، والتكميل، والتتميم منظّرة في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري تقريبا، كيف كانت هذه الفنون مستقلّة لها أبوابها وتقسيماتها، ولكنّ القزويني استطاع أن يجمع الأشباه والنظائر، ويوحّد بينها في باب واحد تقليلا للمصطلحات، وابتعادا عن كثرة الأبواب»[3].

ويجب أن نشير إلى أنّه إذا تحقّق الإطناب في مواضعه التي تقتضيها الرسالة اللغوية كان من البلاغة؛ باعتباره «إجراء يدعو إليه واقع الحال أحيانا... وعلى الرغم من زيادة الألفاظ في التعبير إلاّ أنّها في مقامها لا تعدّ تبذيرا

[1]- العسكري، الصناعتين، ص185.
[2]- العسكري، المصدر نفسه، ص185.
[3]- أحمد مطلوب، القزويني وشروح التلخيص، بغداد منشورات مكتبة النهضة، ط1، 1967، ص316.

وإسرافا؛ إذ الهدف من ورائها معنى مقصودا في النفس، لذلك تعتبر الزيادة في مكانها حسن تقدير من المتكلّم»[1]. فالإطناب ليس تبذيرا للغة، وإنّما هو إجراء وظيفي تقتضيه الأفعال الكلامية المعيّنة، يبيّنها العسكري بقوله: «ووجدنا الناس إذا خطبوا في الصلح بين العشائر أطالوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السمّاطين في مديح الملوك أطنبوا؛ والإطالة والإطناب في هذه المواضع إيجاز»[2]. فمقام الصلح ومديح الملوك يقتضي تكثيف الأفعال الكلاميّة التي تسهم في تحقيق الأغراض المنوطة بهذين الموضوعين.

ومنه يتضّح أنّ الرسائل اللغوية قد تتنوّع بين الإيجاز من غير خلل، والإطناب من غير ملل، والمساواة من غير تقصير، تسيّرها مقولة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ليبقى المحمود من ذلك «ما له حظ من الرصانة لا تبلغ به إلى الاستثقال، وقسط من الكمال لا يبلغ به إلى الإسآم والإضجار، فإنّ الكلام المتقطع الأجزاء المنبثر التراكيب غير ملذوذ ولا مستحلى، وهو شبه الرشفات المتقطّعة التي لا تروي غليلا، الكلام المتناهي في الطول يشبه استقصاء الجرع المؤدّي الغصص، فلا شفاء مع التقطّع المخلّ ولا راحة مع التطويل الممل، ولكن خير الأمور أوسطها»[3]. فالصناعة تقتضي من الرسالة أن تكون ملائمة للغرض المطلوب بالإيجاز أو المساواة أو الإطناب.

ومنه نرى أنّ أشكال التعبير تتنوّع في اللغة، وقد أكّد "أوستين Austin" بأنّنا «نستعمل الكثرة من التعابير التي يضعها غنى لغتنا بتصرّفنا، من أجل توجيه الانتباه إلى كثرة وغنى تجاربنا. فاللغة تستعمل هنا كلسان حال من أجل ملاحظة

[1]- محمد كشاش، علل اللسان وأمراض الكلام، ص104.
[2]- الصناعتين، ص198.
[3]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص65.

الوقائع الحيّة التي تؤلّف تجربتنا»[1]. فالغنى اللغوي هو الذي يتيح للمتكلّم الفرصة لكي ينوّع في الأفعال الكلامية بحسب مقتضيات الرسالة الإبلاغية.

ج-الفصل والوصل:

من خصائص الرسالة اللغوية معرفة الفصل والوصل، وهذا من أعظم أركان البلاغة؛ حتّى إنّ بعض العلماء حدّها بأنّها معرفة الفصل والوصل[2]. فالبليغ من استطاع أن يوصل ويفصل بين أجزاء الكلام من غير خطل، فـ«يكون بصيرا بمقاطع الكلام وبمواضع وصوله وفصوله؛ فإنّ البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلئ بلا نظام»[3]. وهذا يعني أنّه على المرسل أن يدرك مواطن فصل أجزاء الكلام أو وصلها، يتم ذلك بحسب مقتضيات الإبلاغ.

وللفصل والوصل علاقة بتركيب الجمل وتواليها بالربط بينها أو تركه، يقول القزويني: «الوصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه، وتمييز موضع أحدهما من موضع الآخر على ما تقتضيه البلاغة فن منها عظيم الخطر, صعب المسلك, دقيق المأخذ، لا يعرفه على وجهه ولا يحيط علما بكنهه إلا من أوتي في فهم كلام العرب طبعا سليما، ورزق في إدراك أسراره ذوقا صحيحا»[4]. فالمتكلّم المُجيد من تمكّن من معرفة مقتضيات الفصل والوصل في الرسالة اللغوية، والتي ترتبط في أساسها بإفرازات الموضوع التي تُنشأ على أساسه الجمل، فإذا كانت المعاني متّصلة بعضها ببعض وجب الوصل، وإذا انقطعت كان الفصل، يقول العسكري: «وكان الأكثم بن صيفي إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول

---

[1]- جيل بلان، عندما يكون الكلام هو الفعل، ترجمة جورج كتورة, مجلة العرب والفكر العالمي، لبنان مركز الإنماء القومي، العدد الخامس 1989، ص37.

[2]- فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، بيروت دار العلم للملايين، ط1/1985، ص321.

[3]- الصناعتين، ص458.

[4]- الإيضاح في علوم البلاغة، ص145.

لكتّابه: افصلوا بين كلّ معنى منتقض، وصِلوا إذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض»[1].

فمسار الاتّصال في إطار هذه الخاصية يقتضي من المرسل أن يكيّف بناء الرسالة بحسب المعاني التي يؤلّف بينها، يقول أبو هلال: «وكان الحارث بن أبي شمر الغساني يقول لكاتبه المرقّش: إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه ففصِّل بينه وبين تبيعته من الألفاظ؛ فإنّك إن مدّقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تُمدّق به نَفَرَتِ القلوب عن وعيها، وملّتها الأسماع واستثقلتها الرواة. وكان بُزُرْجمهور يقول: إذا مدحت رجلا وهجوت آخر، فاجعل بين القولين فصلا حتى يُعرف المدح من الهجاء، كما تفصل في كتبك إذا استأنفت القول، وأكملت ما سلف من اللفظ»[2].

ومن التوضيح السابق نلاحظ أنّ الفصل والوصل يتنوّعان بتنوّع الأفعال الكلامية في تشكيل الرسالة اللغوية، يتم ذلك بتوظيف الألفاظ التي تحقّق ذلك. وقد ذكر أبو هلال شواهد عن بعض الحكماء تبيّن ذلك، منها قوله: «وكان صالح بن عبد الرحمان التميمي الكاتب يفصِّل بين الإنّاتِ كلّها وبين تبيعتها من الكتاب كيف وقعت، وكان يقول: ما استؤنف إنّ إلا وقع الفصل. وكان خالد بن يزيد يفصّل بين الفاءات كلّها... وفصل المأمون عند "حتى" كيف وقعت، وأمر كتّابه بذلك... وكان يأمر كتّابه بالفصل بين: بل وبلى وليس»[3].

فبناء الكلام يستدعي بالضرورة إمّا الوصل بين أجزائه، أو الفصل بتوظيف الأدوات التي تحقّق ذلك، وهي تعدّ أفعالا متضمّنة في القول بتصوّر تداولي، و«من ثم فنحن لا ننظر إليها على أنّها مجرّد دلالات ومضامين لغوية، وإنّما هي فوق ذلك "أفعال" كلامية ترمي إلى صناعة أفعال ومواقف اجتماعية أو ذاتية

---

[1]- الصناعتين، ص460.
[2]- المصدر نفسه، ص460.
[3]- الصناعتين، ص463.

بالكلمات؛ أي ترمي إلى التأثير في المخاطب بحمله على فعل أو تركٍ، أو دعوته إلى ذلك، أو تقرير حكم من الأحكام، أو تأكيده، أو تشكيك فيه، أو نفيه، أو وعد المتكلّم للمخاطب، أو وعيده، أو إبرام عقد من العقود أو فسخه... أو مجرّد الإفصاح عن حالة نفسية معيّنة، وهي معانٍ كثيرة لا يمكن أن تحصى»[1].

ولكن يبقى التعامل معهما مرتبطا بمقتضيات الرسالة اللغوية ككل، والتي تتطلّب من المتكلّم تكييف أجزائها بحسب المقصد المطلوب؛ ومن ذلك حسن التخلّص من المعقود إلى المحلول، والتي تستدعي المقدرة على ذلك. والمعنى ههنا «هو أنّك إذا ابتدأت مخاطبة ثمّ لم تنته إلى موضع التخلّص مما عقدت عليك كلامك سُمِّي الكلام معقودا، وإذا شرحت المستور، وأبنت عن الغرض المنزوع إليه سُمِّي الكلام محلولا. ومثال ذلك ما كتب بعضهم: "وجرى لك من ذكر ما خصّك الله به، وأفردك بفضيلته من شرف النفس والقدر، وبُعد الهمّة والذّكر، وكمال الأداة والآلة، والتمهّد في السياسة والإيالة، وحياطة أهل الدين والأدب، واتّحاد عظيم الحق بضعيف السبب، مالا يزال يجري مثله عند كلّ ذكر يتجدّد لك، وحديث يؤثر عنك"»[2]. فالكلام من أوّله إلى "بضعيف السبب" معقود، فلمّا اتّصل بما يليه صار محلولا.

ومع ذلك يجب أن نشير إلى أنّ هذه المقدرة لا تسمح لصاحبها الإطالة في الكلام المعقود، يقول أبو هلال: «وقال بعضهم: انظر-سدّدك الله- ألاّ تدعوك مقدرتك على الكلام إلى إطالة المعقود؛ فإنّ ذلك فساد ما أكننته في صدرك، وأردت تضمينه كتابك. واعلم أنّ إطالة المعقود تورث نسيان ما عقدت عليه كلامك، وارتهنت به فكرتك»[3].

---

[1]- مسعود صحراوي، الأفعال المتضمّنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، ص289.
[2] العسكري، الصناعتين، ص462.
[3] العسكري، الصناعتين، ص463.

لكن هذا لا يعني التقصير في الفكرة التي تنشأ على أساسها الرسالة، فلابدّ من استقصاء مقتضياتها قبل الانتقال إلى غيرها، يقول العسكري: «وكان شبيب بن شيبة يقول: لم أر متكلّما قطّ أذكر لما عقد عليه كلامه، ولا أحفظ لما سلف من نطقه من خالد بن صفوان؛ كان يشبع المعقود بالمعاني التي يصعُب الخروج منها إلى غيرها، ثم يأتي بالمحلول واضحا بيِّنا، وشروحا منوّرا. وكان السامع لا يعرف مغزاه ومقصده في أول كلامه حتى يصير إلى آخره»[1]. وكلّ ذلك يتطلّب من المتكلّم المعرفة الواعية بالحاجة التي ينتج على أساسها الكلام من جهة، وإنجاز الأفعال الكلامية التي تحقّق مقصده لدى المتلقّي من جهة أخرى.

وذكر العسكري أنّ الفصل بين أجزاء الكلام يقتضي تقنيات؛ إذ يقول: «ومن حسن المقطع جودة الفاصلة، وحسن موقعها، وتمكّنها في موضعها، وذلك على ثلاثة أضرب: فضربٌ منها أن يضيق على الشاعر موضع القافية، فيأتي بلفظ قليل الحروف فيتمم به البيت»[2]. ومن ذلك قول امرئ القيس[3]:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبلٍ مُدْبرٍ مَـعاً كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

بالقطع في كلمة "علِ"؛ لأن الأصل "عالٍ"، وهو مستحسن في القوافي.

أما الضرب الثاني فهو أن يضيق المكان بالشاعر أيضا، ويعجز عن إيراد كلمة سالمة تحتاج إلى إعراب ليتمّ بها البيت، فيأتي بكلمة معتلّة لا تحتاج إلى الإعراب فيتمّه بها، ومن ذلك قول امرئ القيس[4]:

بَعَثْنـا رَبيئاً قَبْلَ ذَلِكَ مُخْمِلاً كَذِئْبِ الغَضَا يَمْشِي الضَرَّاءَ وَيُتَّقَى

والضرب الثالث «أن تكون الفاصلة لائقة بما تقدّمها من ألفاظ الجزء من الرسالة أو البيت من الشعر، وتكون مستقرّة في قرارها، ومتمكّنة في موضعها

---

[1] المصدر نفسه، ص463.
[2] المصدر نفسه، ص466.
[3] الزوزني، شرح المعلقات السبع، الجزائر دار القصبة، (د.ت)، ص14.
[4] العسكري, الصناعتين، ص468.

حتى لا يسدّ مسدّها غيرها، وإن لم تكن قصيرة قليلة الحروف»[1]. ومن ذلك قوله تعالى: **(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى. وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وأَحْيَا. وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى)**[2]، وقوله عزّ وجلّ: **(وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولى. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)**[3]، فجودة الفاصلة في هذه الآيات تتجلّى في حسن المقطع بين الفواصل، فـ "أبكى مع أضحك"، وأحيا مع أمات"، و"الأنثى مع الذكر"، و"الأولى مع الآخرة"، و"الرضا مع العطية"، وهذا «في نهاية الجودة، وغاية حسن الموقع»[4].

ومما سبق نلاحظ أنّ الفصل والوصل في الرسالة اللغوية يقتضيان تقنيات مضبوطة، عن طريقها يضمن المرسل الجودة في التعبير من جهة، والإلمام بالمقصد المعيّن من جهة أخرى.

2-الاتّصال اللغوي بين الظاهر والعدول:

لاحظ العسكري أنّ الاتّصال اللغوي قد يتراوح بين التشكيل اللغوي العادي، والمبني على ما هو سائد في التداول اللساني المألوف بين عامة الناس، وغير العادي؛ وهو الذي يعدل أو ينحرف فيه المتكلّم عن سنن المألوف، وهو «الذي يحدث في الصياغة، والذي يمكن بواسطته التعرّف على طبيعة الأسلوب؛ بل ربّما كان هذا الانتهاك هو الأسلوب ذاته، وما ذلك إلاّ لأنّ الأسلوبيين نظروا إلى اللغة في مستويين؛ مستواها المثالي في الأداء العادي، والثاني مستواها الإبداعي الذي يعتمد على اختراق هذه المثالية وانتهاكها»[5].

---

[1] العسكري، المصدر نفسه، ص470.
[2] النجم (43-45).
[3] الضحى (4-5).
[4] العسكري، الصناعتين، ص470.
[5]- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص198.

ويشكّل هذا الانحراف -كما يرى "جون كوهين J.Cohen"- "أسلوب المتكلّم"، والذي يضم ما ليس شائعا، ولا عاديا، ولا مصوغا في قوالب مستهلكة؛ إنّه «مجاوزة فردية، طريقة في الكتابة خاصّة بمؤلّف واحد»[1].

فالاستعمال اللغوي قد يتحقّق لدى العسكري من خلال مستويين؛ مستوى الكلام العادي والمؤسّس على الإفهام، والواجب ههنا أن تُقسَّم طبقاته «على طبقات الناس، فيُخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب»[2].

ومستوى الكلام الإبداعي المؤسّس على التأثير والإمتاع والإقناع، والذي يستوجب تنقيح اللفظ، وتفخيم العبارة. ويستعمله المتكلّم حينما «يلقى حكيما، أو فيلسوفا عليما ومن تعوّد حذف فصول الكلام، ومشتركات الألفاظ، ونظر في المنطق على جهة الصناعة فيها، لا جهة الاستطراف، والتظرّف لها... ينبغي أن يتكلّم بفاخر الكلام ونادره ورصينه ومحكمه عند من يفهمه عنه، ويقبله منه، ممن عرف المعاني والألفاظ علما شافيا»[3]. ومنه نلاحظ أنّ المتلقّي هو الذي يضبط نوعية الأداء اللغوي، ونوضّح ذلك بالمخطط التالي:

[1]- جون كوهين، النظرية الشعرية لبناء لغة الشعر العليا، ترجمة أحمد درويش، مصر دار غريب، 2000، ص36.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص35.
[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص37-38.

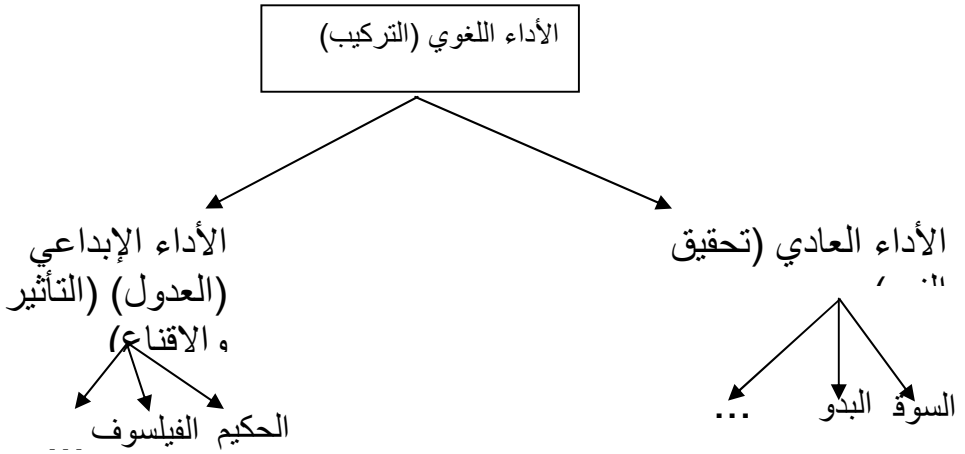

أ-المستوى المثالي في الأداء العادي:

وهو ما ركّزت عليه التداولية، ويمثّل الاستعمال المألوف للغة؛ إذ «يعتمد النحو التقعيدي في تشكيل عناصره، كما يعتمد اللغة في تنسيق هذه العناصر»[1]. وقد تحدّث العسكري عن هذا المستوى، ووضّح أنّه يتحقّق حينما يكون في مقام يستدعي منه ذلك، وهذا مرهون بنوعية الطبقة التي يتواصل معها؛ لأنّ «الأصل في البلاغة أنّها مرتبطة بالقراء والسامعين، فالبليغ ملتزم بملاحظة حاجاتهم الثقافية، ومستواهم في الفهم، وما يحيط بهم من مؤثّرات، ثم يؤلّف كلامه مطابقا لهذه الأحوال»[2].

وقد اهتم الفلاسفة المسلمون برصد الكلام العادي وأشكال الانزياح عنه؛ إذ رأى الفارابي (ت339هـ) «أنّ الأقاويل المبتذلة كلّها قد يبلغ بها المقصود في تفهيم السامع»[3]. وعلّل ذلك بأنّ «وظيفة الإفهام التي يحقّقها القول المبتذل لا يتطلّب خصائص فنيّة»[4]. وإنّما كان لهذا الصنف من الاتّصال اللغوي هذه المزيّة؛ لأنّه لا يعتمد فيه المرسل على المعطيات الفنيّة التي تصعّب الوقوف على المقصد من الرسالة الإبلاغية، فهو لا يتخصّص بطبقة معينة، إنّه موجّه للعامة

[1]- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص198.
[2]- بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية، ص71.
[3]- الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، ص130.
[4]- الأخضر جمعي، المرجع نفسه، ص130.

والخاصة أيضا. فهذا المستوى يتطلّب الأفعال الكلامية المتعارفة التي تسهم بسهولة في الوقوف على الأغراض المطلوبة، لذا لا يطرح أي إشكالية في تحقيق ذلك.

وطبيعة هذا الاستعمال العادي جعلت النحاة «يحدّدون معنى الكلام بما يرتبط بالعبارة ظاهرا وتقديرا، فأما القول بظاهر العبارة فهو ما أهمّهم رعاية للسلامة. أما التقدير فهو جري منهم وراء هذه السلامة، ورعاية لها حفاظا على مثالية الأداء»[1]. ورَبْطُ الكلام بالظاهر هو الأساس الذي ظلّ يمثّل المرجعيّة التي تُفسّر انطلاقا منها أشكال العدول ككل، لذلك لاحظنا النحاة –والبلاغيين أيضا- يقولون في العبارات التي تتجاوز هذا المستوى: "الأصل كذا"، و"أصل الكلام"، و"أصل المعنى"، و"رعاية للأصل"[2].

ومن ذلك ما بيّنه العسكري حينما قدّم أصناف المعاني التي تتحقّق في الاتّصال اللغوي؛ إذ يقول: «المعاني على ضربين؛ ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدي به فيه، أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها، وهذا الضرب ربّما يقع عليه عند الخطوب الحادثة، ويتنبّه له عند الأمور النازلة الطارئة. والآخر ما يحتذيه على مثال تقدّم ورسم فرط»[3]، فهذا القول يوضّح أنّ الكلام العادي لا يخرج فيه المتكلّم عن المألوف المتداول بين أفراد جماعته اللغوية، على عكس الأداء الإبداعي الذي يتجاوز فيه ذلك، تقتضيه الأمور الطارئة التي تستدعي تعدِّي ذاك المألوف.

ولكن هذا لا يعني الخطأ أو الزّلل عن سنن اللغة، لذا «ينبغي أن يطلب الإصابة في جميع ذلك، ويُتوخّى فيه الصورة المقبولة، والعبارة المستحسنة، ولا يتّكل فيما ابتكره على فضيلة ابتكاره إيّاه، ولا يغيّره ابتداعه له، فيساهل نفسه في

[1] محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص199.
[2] محمد عبد المطلب، المرجع نفسه، ص199.
[3] العسكري، الصناعتين، ص75.

تهجين صورته؛ فيُذهب حسنه ويطمس نوره ويكون فيه أقرب إلى الذم منه إلى الحمد»[1]. فمهما تعدّدت أشكال الخروج عن المألوف فإنّها تبقى مرهونة بالمقاييس التي تضمن الصحة والسلامة.

فمن سمات المثالية التي يقتضيها الاتّصال اللغوي ههنا جريانه على ما يمليه الاستعمال الأصلي للغة، والذي تؤمّنه القبولية والملاءمة بين أجزاء الكلام والمعنى المراد التعبير عنه، لذلك نصّ أبو هلال في غير موضع على ضرورة عدم مخالفة الاستعمال ألبتّة مهما تعدّدت أشكال الكلام، حتى لا نخالف هذا الأصل فنقع في الخطأ فنصّ أنّه: «من عيوب المعنى مخالفة العرف، وذكر ما ليس في العادة»[2].

وقد أورد مجموعة من النماذج التي خالف فيها أصحابها ما تقتضيه استعمالات اللغة ومقاصدها، فأنكرها عنهم، وأوصى في بعضها قائلا: «وينبغي أن تتوخّى في المرثية ما تتوخّى في المديح، إلا أنّك إذا أردت أن تذكر الميّت بالجود والشجاعة تقول: مات الجود، وهلكت الشجاعة؛ ولا تقول: كان فلانا جوادا وشجاعا؛ فإنّ ذلك بارد غير مستحسن، وما كان الميت يكدّه في حياته فينبغي ألا يذكر أنّه يبكي عليه مثل الخيل والإبل وما يجري مجراه، وإنّما يذكر اغتباطهم بموته»[3].

ويرتبط كلّ ذلك بإفرازات العلاقات التركيبية، حيث يبقى النحو المرجعية التي تضبط ذلك، يقول السكاكي: «اعلم أنّ علم النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنية عليها ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث

[1] العسكري، المصدر نفسه، ص75-76.
[2]- العسكري، الصناعتين، 102.
[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص137-138.

تلك الكيفية، وأعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض ورعاية ما يكون من الهيئات»[1].

ولكن يجب أن نشير إلى أنّ البلاغيين ظلّوا ملهمين بالكشف عن أشكال انتهاك هذه المثالية، والتي تتجلّى عبر العدول عن المتداول بين البعض من المتكلّمين. وقد لاحظوا أنّ صانع الكلام يبقى مولعا بـ «إظهار قوته الكامنة في استعمال الألفاظ فيعرف أنّ له قدرة على الإبانة عن الشيء بغير لفظه الخاص به لأدنى تعلّق يكون له بالذي تجعل العبارة عنه باللفظ الثاني، أو له قدرة على استعمال اللفظ الذي يخصّ شيئا ما على ما له تعلّق به، ولو يسيرا من التعلّق، ويبين عن نفسه أنّ له قدرة على أخذ اتّصالات المعاني بعضها ببعض ولو الاتّصال اليسير، ويبيّن أنّ عباراته وإبانته لا تزول ولا تضعف, وإن عبّر عن الشيء بغير لفظه الخاص به؛ بل بلفظ غيره»[2].

وقد وضّح ذلك العسكري في غير موضع، ومنه ما ورد في باب "في حسن الأخذ وحلّ المنظوم"؛ إذ يقول: «ليس لأحد من أصناف القائلين غنىً عن تناول المعاني ممن تقدّمهم والصبّ على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم -إذا أخذوها- أن يكسوها ألفاظا من عندهم، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتها الأولى، ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها؛ فإذا فعلوا ذلك فهم أحقّ بها ممن سبق إليها»[3].

فهو يؤكّد في هذا التوضيح إمكانية أخذ المعاني من السابقين فتكون من الكلام العادي، لكن قد يتفنّن الآخذ أو صانع الكلام فيها فيكسوها ثوبا جديدا من ابتداعه، فيبقى أصل المعنى وتظهر الجمالية. وهنا نشير إلى الفرق الذي نلاحظه بين النحوي والبلاغي في التعامل مع هذا العدول مع التجاوز باعتبار أنّ الأوّل

---

[1]- مفتاح العلوم، ص44.
[2]- الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، ص131.
[3]- الصناعتين، ص202.

«يهتم بما يفيد أصل المعنى، أما البلاغي فتبدأ حركته فيما يلي هذه الإفادة من عناصر الجمالية»[1].

ومما سبق نلاحظ أنّ الكلام العادي يرتبط بملاءمته للطبقة العامة من جهة، ودرجة الإفهام التي ينبغي للمتكلّم تحقيقها من جهة أخرى، وهي تستدعي توافر شرطين أساسيين:

أولهما من ناحية المعنى: بأن يكون حسنا مقبولا مدلولا عليه بما يوضحه.

ثانيهما ناحية اللفظ: بأن يكون متخيّرا متناسقا، قد وُضعت كل لفظة منها في مكانها المناسب، وارتبطت بما قبلها وما بعدها ارتباط أخوة وألفة، وتناسب في غير زيادة مملة ولا نقص مخلٍّ[2].

ب-مستوى الكلام الإبداعي:

ويتّخذ هذا الصنف من الكلام نمطا آخر، يتجاوز فيه المتكلّم تلك النمطية التي يقتضيها الكلام العادي. وذكر العلماء أنّه يتحقّق من خلال مجموعة من المظاهر منها الزيادة والحذف والتقديم والتأخير والإيجاز والإطناب، وغير ذلك، وهذه المباحث كانت ماثلة عند العسكري.

وما يصدر الإشارة إليه في هذا المقام أنّ أبا هلال بيّن أنّ أشكال العدول تتحقّق من خلال الإلمام بحدود الصنعة، قد نوضّح ذلك مما ذكره في أجناس الكلام المختلفة، حيث أوضح أنّ شعريّة الشعر تتجلّى من تجاوز الاستعمالات العادية، يتم ذلك بتحقيق إنتاجات لغوية منزاحة عنها، وهذا العدول يميّز كل صانع عن غيره في أسلوبه، وفي أدائه لهذه الصنعة.

[1]- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص199.
[2]- محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، نحو بلاغة جديدة، ص117.

وقد ركّز "جاكبسون Jakobson" على هذه "الشعرية Poetique"؛ فهي «العلم الذي يتم به تمييز جيّد هذه الصناعة من رديئها، أو تمييز الشعر من النثر بوضعهما في طرفين متضادين مثل خط مستقيم، أحد قطبيه يمثل الشعر الذي بلغ أقصى درجة من الانزياح عن اللغة المعيارية، والطرف الثاني يميّز النثر الخالي من كل انزياح، وبين القطبين تتراوح أقدار الأنماط التعبيرية اللفظية الأخرى»[1]. ونشير إلى أنّ مفهومها مرتبط بتمييز الاختلاف النوعي بين خطاب وآخر[2]. وهذه الوظيفة كما يبيّن "جاكبسون Jakobson" لا تختص بـ «الشعر فقطْ؛ بل وكلّ الفنون التي تهيمن فيها الوظيفة الجمالية»[3].

ولاحظ العسكري هذا الأمر، لذلك لما أراد الحديث عن مقتضيات اللغة الإبداعية دعا إلى ضرورة تجاوز ما يمكن أن يُتداول بين العامة، حيث يقول: «فإن كنت متكلّما، أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب، أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد، فتخطّ ألفاظ المتكلمين؛ مثل الجسم والعرض والكون والتأليف والجوهر، فإنّ ذلك هجنة. وخطب بعضهم فقال: "إنّ الله أنشأ الخلق وسوّاهم ومكّنهم ثمّ لاَشَاهُم" فضحكوا منهم. وقال بعض المتأخرين:

نورٌ تبين فيه لاهُوتيه فَيَكَادُ يَعلَم عِلْمَ مَا لَنْ يَعْلَما

فأتى من الهجنة بما لا كفاء له. وكذلك كن أيضا إذا كنت كاتبا»[4].

فشعريّة القصيدة أو الخطبة أو الكتابة الفنيّة تقتضي تجاوز المألوف بين العامة، باختيار الألفاظ والتراكيب التي تتناسب مع الموضوع من جهة، وتحقّق الغرض من جهة أخرى في أبهى صورة وأجودها.

---

[1]- طراد الكبيسي، في الشعرية العربية قراءة جديدة في نظرية قديمة، ص9-10.
[2]- جاكبسون، قضايا الشعرية، ص24.
[3]- فاطمة طبال بركة ، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص74.
[4]- الصناعتين، ص141,

ولنبدأ بالموضوع حيث رأى العسكري أنّ أجناس الكلام، وإن كانت مواتية لشتّى الموضوعات، فإنّ هذا لا يعني عدم اختصاصها بمجال مخصوص، ينجح فيه جنسٌ معيّنٌ أكثر من غيره؛ فـ «مما يُعرف أيضا أنّ من الخطابة والكتابة أنّهما مختصتان بأمر الدين والسلطان، وعليهما مدار الدار، وليس للشعر بهما اختصاص... ولا يقع الشعر في شيء من هذه الأشياء موقعا، ولكن له مواضع لا ينجع فيها غيره من الخطب والرسائل وغيرها، وإن كان أكثره قد بُني على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة، والنعوت الخارجة عن العادات والألفاظ الكاذبة... وليس يراد منه إلا حسن اللفظ، وجودة المعنى؛ هذا هو الذي سوّغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه»[1]. فنجاعة الشعر مرهونة بالموضوعات التي يتخصّص بها، والتي قد لا تحقّق غايتها لو نُظمت عبر أجناس كلامية أخرى.

وقد وضّح العسكري ذلك أكثر بقوله: «ومن صفات الشعر الذي يختص بها دون غيره أنّ الإنسان إذا أراد مديح نفسه فأنشأ رسالة في ذلك أو عمل خطبة فيه جاء في غاية القباحة، وإن عمل في ذلك أبياتا من الشعر احْتُمل»[2].

ومنه نؤكّد أيضا أنّ الملاءمة تتجلّى أكثر مع الأغراض التي تستدعي في أساسها طريقة خاصة في النظم تجعلها تتمايز بعضها عن بعض، قد نوضّح ذلك من الفرق الذي نلاحظه بين غرضي المدح والرثاء؛ إذ «ينبغي أن تتوخّى في المرثية ما تتوخّى في المديح، إلاّ أنّك إذا أردت أن تذكر الميّت بالجود والشجاعة، تقول: مات الجود، وهلكت الشجاعة، ولا تقول: كان فلان جوادا شجاعا، فإنّ ذلك باردٌ غير مستحسن»[3]. فكلّ غرض تؤطّره خصوصيات تضبط حدود العدول الذي يمس الإنتاج اللغوي. وقد ركّز العسكري على ذلك، ولهذا حرص على بيان

[1]- العسكري، المصدر نفسه، ص142-143.
[2]- المصدر نفسه، ص145.
[3]- العسكري، الصناعتين، ص137-138.

العيوب التي تمسّ بعض الأغراض؛ فـ «من عيوب المديح عدول المادح عن الفضائل التي تختصّ بالنفس من العقل والعفّة والعدل والشجاعة، إلى ما يليق بأوصاف الجسم؛ من الحسن والبهاء والزينة، كما قال ابن قيس الرقيات في عبد الله بن مروان:

يَـأْتَلِقُ التّاجُ فَـوْقَ مَفْرِقِهِ عَلَى جَبينٍ كَـأَنَّهُ الذَّهَبُ

فغضب عبد الملك، وقال: قد قلت في مصعب:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مَنَ اللَّهِ تجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْماءُ

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم، وأعطيتني من المدح ما لا فخر فيه؛ وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذّهب في النضارة»[1]. فمهما تعدّدت أشكال العدول فإنّها تبقى مرتبطة بضوابط لها صلة بمقتضيات الاستعمال اللغوي الذي تقتضيه الجماعة اللغوية المعيّنة.

ويجب أن نشير أيضا إلى أنّ العدول يقتضي الجودة والمعرض الحسن، ولكن يتجاوز به المتكلّم حدود المألوف في اللغة إلى عوالم لم تكن معهودة. قد نلاحظ ذلك في الشعر؛ حتى قيل فيه "إنّ أعذب الشعر أكذبه"، فمسوّغ استعمال الكذب ههنا يعود إلى أشكال الانزياح الكثيرة التي تتمّ بحسن اللفظ، وجودة المعنى، باستعمال المجاز والاستعارة، و«من هنا تنشأ الخاصية النوعية للخطاب الأدبي في استغلال قابلية الألفاظ للدخول في عوالم جديدة يتولّد من لحمتها السياقية معانٍ شعرية وخطابية، ينتفي منها المشهور والمباشر، ويبرز بها المخترع الطريف»[2].

فشاعرية اللغة تتجلّى ههنا من الانزياح عن سنن المألوف إلى استعمالات أخرى مبنية على خرق العلاقات الأصلية إلى علاقات أخرى تضمن الإفهام

[1]- العسكري، المصدر نفسه، ص104.
[2]- الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، ص131.

والإمتاع أيضا، ومنه تتحقّق الوظيفة الجمالية التي تبرز في المرسلة اللغوية عبر مستوياتها المختلفة، «دلاليا في مستوى الصورة، وتركيبيا في مستوى تلاحم الوحدات في السياق، كما تنتظمها العلاقات النحوية أو تحدثها الهيئات الحادثة في البنية النحوية للعبارة في حالات الحذف أو التقديم والتأخير وغيرها، وصوتيا في أشكال التناسب العالقة بالطبقات الصوتية للقول. كل هذه الأشكال من التغيرات وغيرها مما يتحقّق في النص معنى ولفظا ينضوي تحت ما أسماه ابن رشد إخراج القول غير مخرج العادة»[1].

وفي رحاب هذا التصوّر بيّن أبو هلال في أبواب وفصول كتابه أنّ أشكال العدول تتّسع وتتنوّع عبر هذه المستويات؛ فقدّم مجموعة من القواعد التي تشرحها وتضبطها؛ دلاليا من خلال صوّر المجاز والتشبيه والاستعارة وغير ذلك، وتركيبيا عبر صور الحذف والتقديم والتأخير والإضافة وغيرها، وصوتيا عن طريق أنماط التوازن والازدواج التي تلحق فواصل الجمل المؤلّفة للنص.

-في المستوي الدلالي:

ووضّح ضمنه أبو هلال أنّ المجاز قد يتميّز عن الحقيقة في إثارة ذهن السامع أكثر من الحقيقة نفسها، ويتعدّى المرسل مرحلة الإفهام، ويعبُر منها إلى التأثير والإمتاع حتى يصل مرحلة الإقناع. وهذا ما أبرزه في الاستعارة، والتي تعني عنده «نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة، ولولا الاستعارة المصيبة تتضمّن ما لا تتضمّنه الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا»[2]. فالفعل اللغوي

[1]- الأخضر جمعي، المرجع نفسه، ص131-132.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص274.

الاستعاري شكل معدول عن الأداء الحقيقي لما يقتضيه الاستعمال الأصلي للغة، يلجأ إليه المرسل لمقاصد وغايات قد لا تتحقّق بالتوظيف العادي.

وفي هذا الإطار بيّن "بيريلمان Perelman" أنّه كي توجد "صورة بلاغية" لابدّ من توافر خاصيتين:

-أن تكون لها صيغة، فتكون بمثابة بنية أو تركيب يمكن فكّ نظامها.

-أن يتم استخدام هذه الصيغة بشكل ملفت للانتباه، وبعيد إلى حدّ ما عن الصيغة العادية للتعبير[1].

وهذا التصوّر كان حاضرا لدى العسكري؛ لذلك قال هي "نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة"، لكنّ هذا العدول يبقى مرتبطا بالجودة والحسن في بنائه، ولذلك ربط تحقيق تلك الغايات بـ "الاستعارة المصيبة"، والمبنية في أساسها على غير ما يمكن أن يتجلّى بالحقيقة؛ لأنّها تتعدّاها إلى فوائد أخرى لا يتحقق بالأداء المألوف. ومنه نستنتج أنّ أنّ العسكري يريد أن يناقش -بتعبير "سيرل Searle"- "كيف تقول شيئا وتعني شيئا آخر"؟ أو كيف تحقّق الفعل الاستعاري؟ والذي يتجاوز فيه المتكلّم ما يقتضيه أصل اللغة. فالاستعارة فعل تداولي؛ لأنّ المرسل يتجاوز بها ما هو عامي ووضعي وعرفي؛ أي متداول ومألوف بابتكاره الجديد والحديث[2].

ومن القول نرى أنّ الاستعارة تتحقّق من خلال تركيب معيّن، لا يتعلّق بمعناه الأصلي أو الحرفي؛ بل يرتبط بالمقصد الذي يبتغيه المتكلّم. وقد ذكر "سيرل Searle" أنّها «لا ترتبط بمعنى الجملة بل مرتبطة بمعنى المتكلّم. إنّ الطبيعة الاستعارية لملفوظ ما تعود إلى قصديّة المؤلّف واختياره، وليس إلى

[1]- ينظر عدنان بن ذريل، النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، ص55.
[2]- ينظر محمد سويرتي، اللغة ودلالتها تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، ص39-40.

أسباب داخلية للبنية الموسوعية»[1]. وفي معالجة هذا الجانب من مشكلة الاستعارة حدّد "سيرل Searle" أيضا مصطلحين أساسيين؛ وهما مصطلح "معنى منطوق المتكلّم"، و"معنى الجملة"، ورأى أنّ المعنى الاستعاري هو معنى منطوق المتكلّم[2].

وقد نستنبط هذه الأمور مع العسكري من الشواهد التي قدّمها، ومن ذلك قوله تعالى: **(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ)**[3]؛ فقال: «هذا أبلغ وأحسن وأدخل مما قصد له من قوله لو قال: "يوم يكشف عن شدّة الأمر" وإن كان المعنيان واحدا؛ ألا ترى أنّك تقول لمن تحتاج إلى الجدّ في أمره: "شمِّر على ساقك فيه، واشدد حيازيمك له"، فيكون هذا القول منك أوكد في نفسه من قولك: "جدّ في أمرك"»[4]. ومنه تتجلّى تداولية الاستعارة التي تكتسبها من «التأثير الذي تحدثه في المتلقّي في سياق معيّن، حتى وإن صدرت عن موقف المتلقّي وموقعه ووضعه الاجتماعي وانتمائه الأيديولوجي. وتتبدّى التداولية في تفاعل التفكير الاستعاري والعمل، وبعبارة أخرى بتفاعل النظر الاستعاري بالممارسة الفعلية، كما تتمثّل في تأكيد المؤلّفين على أهمية السياق في فهم الدلالات التداولية للاستعارة»[5].

فالاستعارة تفيد أكثر مما تفيده الحقيقة، ولهذا «عولجت في تاريخ البلاغة على أنّها لعب بالألفاظ ومناسبة لاستغلال خصائص اللغة واستعمالاتها المتعدّدة، وعلى أنّها شيء يوضع مكان شيء آخر في بعض الأحيان، إلاّ أنّه يتطلّب مهارة غير اعتيادية حذرا. وباختصار اعتبرت الاستعارة جمالا أو زخرفا أو قوة

---

[1]- أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم سعيد بنكراد، المغرب المركز الثقافي العربي، ط2004/2، ص159.

[2]- يُنظر أحمد حسن صبره وسعد سليمان حمودة، التفكير الاستعاري والدراسات البلاغية، الإسكندرية دار المعرفة الجامعية، ط2002/2، ص58.

[3]- القلم (42).

[4]- العسكري، الصناعتين، ص274.

[5]- جورج لايكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، المغرب دار توبقال، 1996، ص21.

إضافية للغة، وليست الشكل المكوّن والأساس لها»[1]. ولكن هذا التصرّف لا يكون جزافيا؛ بل يتطلّب مهارة مخصوصة، وهذا ما جعل أرسطو يقول: «إنّ أعظم شيء هو القدرة على صياغة الاستعارة... وهذا وحده لا يمكن أن ينقل إلى الآخر؛ لأنّه علامة العبقرية»[2].

فالبناء اللغوي للاستعارة ينطلق من القدرة على تجاوز يمكن أن نعبّر عنه بالحقيقة إلى إنتاج تركيب أخر مبني على خرق العلاقات الأصلية التي يقتضيها النظام اللغوي العادي. ولكن يبقى هذا التجاوز مرتبطا بقدرة المنشئ على ملاحظة علاقة التشابه بين مفردات التركيب الأصلي من جهة وألفاظ التركيب الاستعاري من جهة أخرى، باعتبار أنّ الفعل استعاري يتحقق بإحلال كلمة أو تركيب محل آخر لإفادة معيّنة. قد نوضّح ذلك بقوله تعالى: **(وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ)**[3]، فـ «معناه أطْلَعْنَا عليهم، والاستعارة أبلغ؛ لأنّها تتضمّن غفلة القوم عنهم حتى أطلعوا عليهم؛ وأصله أن من عثر بشيء وهو غافل، نظر إليه حتى يعرفه، فاُستعير الإعثار مكان التبيين والإظهار، ومنه قول الناس: "ما عثرت من فلان على سوء قطّ"؛ أي ما ظهرت على ذلك منه»[4].

فالفعل الاستعاري مرهون بقدرة الفرد على انتقاء الكلمات الملائمة للموضوع، أو استبدال كلمة بأخرى، والتنسيق بينها في علاقات معيّنة. ونستطيع أن نجد أسس هذه الملاحظات في اعتماد "دي سوسير De Saussure" على المحورين الاستبدالي الذين يقوم عليهما عمل العناصر اللغوية. وهذا ما يعتمده أي متكلّم أثناء بناء الفعل الكلامي مهما كان مقصده، و«الاستعارة تعمل بخاصة على

---

[1]- ريتشاردز، فلسفة اللغة، ترجمة ناصر حلاوي وسعيد الغانمي، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، عدد 13-14، 1991، ص38.
[2]- ريتشاردز، المرجع نفسه، ص37.
[3]- الكهف (21).
[4] العسكري، الصناعتين، ص275.

المحور الاستبدالي، وهي تأتي غريبة عن المنظومة الدلالية للجملة»[1]. نستطيع أن نوضّح ذلك بتحليل الآية المذكورة سابق بالمخطط التالي:

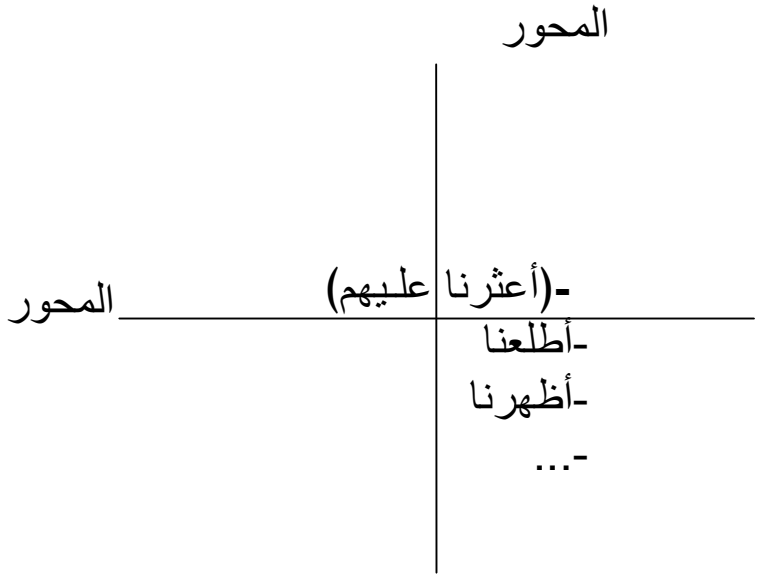

فالآية تحققت بانتقاء كلمة "أعثرنا" بدلا من التعبيرات الحرفية الأخرى؛ لأنّها أبلغ وأبين. ومثله قوله عزّ وجلّ: **(سَمِعُوا لَهَا شَهيقاً وَهِيَ تفور. تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ)**[2]، فـ «حقيقة الشهيق ههنا الصوت الفظيع، وهما لفظتان، والشهيق لفظة واحدة فهو أوجز على ما فيه من زيادة البيان. و"تميّز" حقيقته تنشقّ من غير تباين، والاستعارة أبلغ؛ لأنّ التمييز في الشيء هو أن يكون كلّ نوع منه مباينا لغيره وصائرا على حدّته، وهو أبلغ من الانشقاق؛ لأنّ الانشقاق قد يحصل في الشيء من غير تباين، و"الغيظ" حقيقته شدة الغليان، وإنّما ذكر الغيظ لأنّ

[1] فاطمة طبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص52.
[2] الملك (7-8).

مقدار شدّته على النفس مدرك محسوس، ولأنّ الانتقام منّا يقع على قدره؛ ففيه بيان عجيب وزجر شديد لا تقوم مقامه الحقيقة ألبتة»[1].

ومن هذا التوضيح ندرك أهمية الفعل الاستعاري ودوره في تحقيق الغايات المنشودة التي قد لا تتجلّى مع الحقيقة.

وتجلّت هذه المعطيات التي أشار إليها العسكري حديثا في النظرية الاستبدالية للاستعارة، وطبقا لهذه النظرية «فإنّ بؤرة هذه الاستعارة تستخدم لتوصيل معنى يمكن أن يتم التعبير عنه حرفيا، إنّ المؤلّف يستبدل (M) بـ (L)، ووظيفة القارئ أن يقلب الاستبدال باستخدام المعنى الاستعاري (M) كمفتاح للمعنى الحرفي المقصود (L). وفهم الاستعارة هنا يشبه فك الشفرة، أو حل لغز»[2].فأهم شيء يقوم عليه التركيب الاستعاري هو فكرة "النقل" أو"الاستبدال"، ولكّنها تبقى مرتبطة بما يقتضيه التشابه بين اللفظ الحقيقي واللفظ الاستعاري. قد نوضّح ذلك ببيت امرئ القيس[3]:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدِ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ

فـ «المعنى المشترك بين بين قيد الأوابد ومانع الأوابد هو الحبس وعدم الإفلات... وهكذا جميع الاستعارات والمجازات»[4].

ويجب أن نشير ههنا إلى أنّ "سيرل Searle" يرى أنّ فكرة المشابهة تلعب دورا أساسيا في أي تأويل للمحمول الحرفي Littéral predication"[5]. ومنه نلاحظ أيضا أنّ العلاقة بين معنى الجملة ومعنى المنطوق الاستعاري ليست علاقة عشوائية؛ بل علاقة منظّمة ومضبوطة وفق ما يقتضيه المقصد الذي يبتغيه المرسل.

---

[1]- العسكري، الصناعتين، ص277-278.
[2]- أحمد حسن صبره وسعد سليمان حمودة، التفكير الاستعاري والدراسات البلاغية، ص80.
[3]- الزوزني، شرح المعلّقات السبع، ص26.
[4]- العسكري، الصناعتين، ص277.
[5]- أحمد حسن صبره وسعد سليمان حمودة، التفكير الاستعاري والدراسات البلاغية، ص61.

وقد ذكر أبو هلال أنّ المتكلّم لا يجنح لهذا الصنف من العدول إلاّ لما يتضمّنه من فائدة لا يمكن أن تتحقّق بالحقيقة، فلو كان بإمكان الحقيقة أن تدلّ على ما تفيده الاستعارة لما أُنزيح عنها. نوضّح ذلك من قوله تعالى: **(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ)**[1]. فـ «معناه سنقصد؛ لأنّ القصد لا يكون إلا مع الفراغ، ثمّ في الفراغ ههنا معنى ليس في القصد، وهو التوعّد والتهديد؛ ألا ترى قولك: "سأفرغ لك" يتضمّن من الإبعاد ما لا يتضمّنه قولك: سأقصد لك»[2]، فقيمة الاستعارة مرتبطة بالفوائد التي قد لا تتحقق بالاستعمال اللغوي على وجه الحقيقة.

-المستوى التركيبي:

وتتم صوّر العدول عبر أشكال الحذف والتقديم والتأخير والإضافة وغيرها, قد نوضّح لذلك بما ذكره في الحذف وصوّره، ومن ذلك إسقاط المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وتجعل الفعل له، كقوله تعالى: **(وَاسْأَلْ القَرْيَةَ التي كُنَّا فِيهَا)**[3]، فالمراد ههنا "أهلها"[4]. وطبقا لتحليل "سيرل Searle" هناك "معنى منطوق المتكلّم"، و"معنى الجملة"، والمعنى التقديري الذي تقتضيه التركيب، وهو "واسأل أهل القرية"، هو معنى منطوق الآية.

ومن أشكال الحذف التي ذكرها أيضا أبو هلال أن يأتي الكلام على أنّ له جوابا فيُحذف الجواب اختصارا لعلم المخاطب، كقوله عزّ وجلّ: **(وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أو كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى بَلْ للهِ الأَمْرُ جَمِعاً)**[5]،

---

[1]- الرحمن (31).
[2]- العسكري، الصناعتين، ص275.
[3]- يوسف (82).
[4]- العسكري، الصناعتين، ص187.
[5]- الرعد (31).

فالمعنى التقديري الذي يستدعيه هذا الشكل التعبيري، وهو "لكان هذا القرآن"، هو معنى منطوق هذه الآية.

ومنه كذلك إضمار غير مذكور؛ كقوله تعالى: **(حَتَّى تَوَارَتْ بالحِجَابِ)**[1]، ويعني الشمس التي غربت[2].

-المستوى الصوتي:

ويتحقّق الشكل الإبداعي ههنا عن طريق أنماط التوازن والازدواج التي تلحق فواصل الجمل المؤلّفة للنص وغيرها. قد نكشف عن ذلك بما أورده العسكري في الباب الثامن المعنون بـ "في ذكر السجع والازدواج"؛ إذ بيّن أنّ «الذي ينبغي أن يستعمل في هذا الباب، ولابدّ منه هو الازدواج، فإن أمكن أن يكون كلّ فاصلتين على حرف واحد أو ثلاث أو أربع لا يتجاوز ذلك كان أحسن، فإن جاوز ذلك نسب إلى التكلّف. وإن أمكن أيضا أن تكون الأجزاء متوازنة كان أجمل. وإن لم يكن ذلك فينبغي أن يكون الجزء الأخير أطول، على أنّه قد جاء في كثير من ازدواج الفصحاء ما كان الجزء الأخير منه أقصر، حتى جاء في كلام النبي "صلى الله عليه وسلّم" منه شيء كثير؛ كقوله –عليه الصلاة والسلام- للأنصار يفضّلهم على من سواهم: "إنّكم لتكثرون عند الفزع، وتقلّون عند الطمع"... وقال آخر من الأعراب: "اللّهم اجعل خير عملي ما ولى أجلي"»[3].

فما نلاحظه من هذا التوضيح أنّ التشكيل اللغوي للرسالة الإبداعية يخضع لمبادئ الشكل التي لها دور كبير في خلق الانسجام والتفاعل مع المتلقّي. وقد أكّد "بيريلمان Perelman" على ربط شكل القول بمضمونه؛ أي ربط مظهره بمادته، وعدم الفصل بينهما؛ إذ «أنّ هناك أشكالا للقول لها تأثير جمالي، من مثل الاتّساق

---

[1]- ص (32).

[2]- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، قدّم له عبد القادر الأرناؤوط، دمشق دار الفيحاء، والرياض دار السلام، ط1/1994، ج45/4.

[3]- العسكري، الصناعتين، ص269-270.

أو الانسجام، والإيقاع أو الجرس، وغير ذلك من الخواص الشكلية. فهذه الأشكال تمارس تأثيرا على الجمهور، بما تثيره فيه من عواطف الإعجاب أو البهجة أو الحزن أو السرور، أو مما يلفت انتباهه إليه»[1].

وللوقوف على أهمية الازدواج أيضا في بناء الرسالة اللغوية قال أبو هلال: «وينبغي أيضا أن تكون الفواصل على زنة واحدة، وإن لم يمكن أن تكون على حرف واحد، فيقع التعادل والتوازن، كقول بعضهم: أصبر على حرّ اللقاء، ومضض النزال، وشدّة المصاع، ومداومة المراس، فلو قال على حرّ الحرب، ومضض المنازلة، لبطل رونق التوازن، وذهب حسن التعادل»[2]. ويجب أن نشير إلى أنّه لا يمكن تحقيق هذا الازدواج إلا بالكفاءة اللغوية التي تمكّن المتكلّم من توظيف الألفاظ التي تخلق ذلك.

ومما سبق نلاحظ أنّ العسكري أراد أن يؤكّد أنّ الاتّصال اللغوي في مستواه الإبداعي يتطلّب خصوصيات معيّنة، تؤطّر في جوهرها أشكال العدول التي تضمن تحقيق مختلف الغايات التي يريد المتكلّم بلوغها، لذلك دعا إلى ضرورة الإصابة في ذلك؛ إذ يقول: «وينبغي أن يطلب الإصابة في جميع ذلك، ويتوخّى فيه الصورة المقبولة، والعبارة المستحسنة، ولا يتّكل فيما ابتكره على فضيلة ابتكاره إيّاه ولا يغرّه ابتداعه له، فيساهل نفسه في تهجين صورته، فيُذهب حسنه، ويطمس نوره، ويكون فيه أقرب إلى الذم منه إلى الحمد»[3]. ولهذا حرص على تقديم بعض العيوب عن أشكال العدول، ومن ذلك ما يمكن ملاحظته في قول الشمّاخ:

بَانتْ سُعَادُ وَفِي العَيْنَيْنِ مُلْمُولُ وَكانَ في قِصَرٍ من عَهْدِهَا طُولُ

---

[1]- عدنان بن ذريل، النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، ص54.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص270.
[3]- العسكري، الصناعتين، ص75- 76.

فهذا من فساد المعنى؛ إذ كان ينبغي أن يقول "في طول من عهدها قصر"[1]؛ باعتبار أنّه من المعهود في استعمال الكلام أنّنا نصف العيش مع الأحبّة بقصر المدّة.

ومن ذلك أيضا ما ورد في بيت امرئ القيس:

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ القَدِيمَ بِعَسْعَسَا كَأَنِّي أُنَادِي إِذْ أُكَلِّمُ أَخْرَسَا

فـ «هذا من التشبيه فاسد لأجل أنّه لا يقال "كلمت حجرا فلم يجب فكأنّه لم حجرا"، والذي جاء به امرؤ القيس مقلوب»[2]. فكان من الضروري في هذا البيت ربط علاقات الألفاظ وفق ما يقتضيه الاستعمال اللغوي في البيئة العربية.

وضمن هذا المستوى دعا العسكري أيضا إلى عدم التداخل مع ما قد يُستعمل في اللغة العاديّة، ومنه قول المتنبّي:

أَيْنَ البَطَارِيقُ وَالحَلَفُ الذي حَلَفُوا بِمَفْرِقِ المَلِكِ والزَّعْمُ الذي زَعَمُوا

فيقول: «هذا قبيح جدّاً، وإنّما سمع قول العامة حلف برأسه، وأراد أن يقول مثله، فلم يستوِ له، فقال: "بمفرق الملك"، فجاء في غاية الهجنة»[3]. فمهما تعدّدت أشكال العدول في الاستعمالات اللغوية فإنّها تبقى مرتبطة بما يحفظ لها سماتها التي تميّزها عن الاتصال اللغوي في مستواه العادي.

3-أغراض الرسالة اللغوية:

لا يمكن أن يتم الاتّصال اللغوي بدون غرض معيّن، وقد ذكر العسكري أنّ صنعة المتكلّم لا تكتمل من دون تحقيق الغايات التي يبتغيها، ولهذا ظلّ يربط في مواطن كثيرة بين أشكال الكلام وأغراضه، باعتبار أنّ بلاغة الكلام تقتضي تحقيق غرض المتكلّم، فهي «قبل كل شيء عتاد بنائي وتبليغي يتوسّله الخطيب أو القائل عموما لغرض موضوعه أو رأيه أو قناعته، ولأجل كسب التأييد الآخر

[1]- ينظر العسكري، المصدر نفسه، ص98.
[2]- المصدر نفسه، ص77.
[3]- المصدر نفسه، ص155.

أو التأثير فيه»[1]. فلا يشكّل المتصل خطابه إلا من أجل غاية معيّة، تمليها مقصديته. يقول العسكري: «لا خير فيما أُجيد لفظه إذا سخُفَ معناه، ولا في غرابة المعنى إلاّ إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى، وظهور المقصد»[2].

فإذا ما حاولنا أن نتوجّه بالمقصديّة نحو منطلقها التداولي فإنّنا نلاحظ أنّها ترتبط بثلاثة أنماط أساسية، لها صلة مباشرة بالمتكلّم، وهي "الإفهام، والإقناع، والتأثير والإمتاع[3]. وهذا ما أشار إليه أبو هلال في مواضع كثيرة، من ذلك ما أورده في حدّ الاستعارة؛ إذ يقول: «الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض؛ وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه»[4].

فأغراض الرسالة اللغوية تتنوّع بحسب نوعية الخطاب اللغوي الذي يشكّله المتكلّم، وقد يبتغي منه الإفهام والإبانة فقط، وقد يريد الإقناع، وقد يلجأ إلى التأثير والإمتاع، وكلّها من مقتضيات البلاغة في الكلام. ولكن يجب أن نشير إلى أنّ «البلاغة قد تؤثّر وتستميل وتمتّع، ولكنّها لا تقنع وتفخّم إلا إذا تلاحمت مع الحجج والمحاجة». ومنه يتجلّى لنا أنّ تحقيق كل غرض من الأغراض المذكورة يبقى مرهون بضرورة المعرفة بتقنيات معيّنة تسهم في ذلك.

أ-غرض الإفهام:

إفهام مضمون الرسالة اللغوية هو الغاية الجوهرية التي ننشئ على أساسها كلامنا، وإذا ما عدنا إلى مخطط "جاكبسون Jakobson"، فإنّنا سنجد «تركيزا كبيرا على مهمة "الإفهام" التي يضطلع بها المتكلّم أو الباث كما يسمونه، ومهمة

---

[1]- حسن أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي عناصر استقصاء نظري، مجلة عالم الفكر، المجلد 30، سبتمبر 2001، ص110.

[2]- الصناعتين، ص66.

[3]- هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية، ترجمة محمد العمري، ص110.

[4]- الصناعتين، ص274.

الفهم التي يقوم بها المتلقي»[1]. وقد لاحظ هذا الطرح أبو هلال، ولكن ربطه أكثر بالمتلقّي باعتباره الأساس الذي يقوم عليه الإبلاغ، لذلك دعا المرسل إلى مراعاة هذا الأمر، يقول: «إذا كان موضوع الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسّم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيُخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يُتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب»[2]. فإبلاغ المقصد مرتبط بمراعاة المرسل إليه الذي يملي على المتكلّم تشكيل الفعل الكلامي بما يناسبه ويلائمه. ومنه نلاحظ أنّ العسكري أراد أن يبيّن أنّ إجراءات اللغة تختلف من حال إلى آخر، ومنه تبرز أهمية اللسانيات التداولية الكفيلة بمتابعة تحوّلات اللغة في الخطاب[3].

غير أنّ تحقيقه يتطلّب من المتكلّم اعتماد مجموعة من الآليات، نستنبطها مع العسكري الذي يقول: «والفهم يأنس من الكلام بالمعروف، ويسكن إلى المألوف، ويصغي إلى الصواب، ويهرب من المحال، وينقبض عن الوخم، ويتأخّر عن الجافي الغليظ، ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب، والروية الفاسدة»[4]. فهذا التوضيح يربط آلية "الفهم" بمجموعة من الضوابط، نركّز فيها على ما يلي:

-"الكلام بالمعروف والمألوف": أي تأليف الكلام بما هو متداول في البيئة اللغوية، وعدم مخالفة الاستعمال المألوف، فـ «المختار من الكلام ما كان سهلا جزلا لا يشوبه شيء من كلام العامة وألفاظ الحشوية، وما لم يُخالف فيه وجه الاستعمال»[5]. والألفة في الكلام تتحقّق حينما تتوافق الاستعمالات اللغوية مع

---

[1]- محمود عباس عبد الواحد، قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي دراسة مقارنة، ص132.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص35.
[3]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص124.
[4]- الصناعتين، ص63.
[5]- العسكري، الصناعتين، ص155.

معارف المتلقّين، فلا يجدون صعوبة في الوقوف على مقاصدها. وهذا يعني أنّ الأفعال اللغوية لا تنجز إلاّ داخل الجماعة اللغوية وفق قواعد تعلَّمَها كلّ شريك لغوي في عمليّة تكيّفه الاجتماعي تعلّما تاما بدرجة أكثر أو أقل[1].

وإنجاز الكلام بما هو متداول يسهم في تحقيق ما يسميه العسكري بـ "السهل الممتنع" المبني على استعمال المعنى الحسن، واللفظ السهل، والبعيد عن الغرابة والتكلّف، يقول: «وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي عن الغلابي عن طائع وهو العباس بن ميمون من غلمان ابن ميثم قال: قيل للسيّد: ألا تستعمل الغريب في شعرك: فقال: ذاك عيٌّ في زماني، وتكلّف منّي لو قلته، وقد رُزِقت طبعا واتّساعا في الكلام، فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يحتاج إلى تفسير»[2]. فالكلام المطلوب هو الذي يبتعد فيه صاحبه عن التكلّف، فيقف فيه المتلقّي بسهوله على مقصده، لذلك وصف أبو هلال بالجهل قوما صاروا «يستجدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكدّ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كزّة غليظة، وجاسية غريبة، ويستحقرون الكلام إذا رأوْهُ سلسا عذبا وسهلا حلوا، ولم يعلموا أنّ السهل أمنع جانبا وأعزّ مطلبا، وهو أحسن موقعا، وأعذب مستمَعاً»[3]. ومنه يدعو منشئ الكلام إلى الابتعاد عن الغريب الذي لا يسهّل للمتلقّي إدراك غرض الرسالة الإبلاغية. ولذلك عِيبَ على أبي تمام أنّه كان يتعمّد إدخال ألفاظ غريبة في مواضع كثيرة من شعره، وأُمتدِحَ البحتري؛ لأنّه كان يتعمّد حذف الغريب والوحشي من شعره ليقرّبه من فهم من يمتدحه، إلاّ أن يأتيه طبعه باللفظة بعد

[1]- ينظر كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنصّ مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمة حسن بحيرى، ص110.
[2]- الصناعتين، ص67.
[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص66.

اللفظة في موضعها من غير طلب لها[1]، فالفهم يستأنس بالكلام المعروف، ويسكن إلى المألوف.

-"الهروب من الكلام المحال الجافي": أي عدم استعمال الكلام الذي يفتقد للرقّة والعذوبة اللتين تستأنس معهما النفس، وتسكن إليهما الجوارح؛ فإذا «كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة، مع السلاسة والنصاعة، واشتمل على الرّونق والطّلاوة، وسلم من حَيْفِ التأليف، وبَعُد عن سماجة التركيب وورد على الفهم الثاقب قَبِله ولم يردّه، وعلى السّمع المصيب استوعبه ولم يمجّه؛ والنفس تقبل اللطيف، وتنبو عن الغليظ، وتقلق من الجاسي البَشع، وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقه، وتنفر عمّا يضادّه ويخالفه؛ والعين تألف الحسن، وتقضى بالقبيح، والأنف يرتاح للطيّب، وينغر للمنتن. والفم يلتذّ بالحلو ويمجّ المرّ، والسمع يتشوّف للصواب الرائع، وينزوي عن الجهير الهائل، واليد تنعم باللّين، وتتأذّى بالخشن»[2]. فالكلام الذي تقبله العقول، وتلين له النفوس ما كان سهلا وعذبا، سلسا سهلا، بعيدا عن التعقيد، وكلّ هذا من البلاغة في الاتّصال.

ومن الطريف في هذا المقام «قول بعض الأمراء، وقد اعتلّت أمّه فكتب رقاعا وطرحها في المسجد الجامع بمدينة السلام: صِينَ امرؤٌ ورعى، دعا لامرأةٍ إِنْقَحْلَة مُفْسَئِنَّة، قد مُنيت بأكل الطرموق، فأصابها من أجله الاستمصال، أن يمنَّ الله عليها بالإطرغشاش والابرغشاش، فكل من قرأ رقعته دعا عليها، ولعنه ولعن أمّه»[3]. فالكلام المبسوط في هذه الرسالة تمجّ له النفوس، وينفر منه الفكر، لذلك لم يقبله جمهور المتلقّين. ولذا لا يوصف الكلام بالفصاحة إلاّ إذا أبان عن المقصد

[1]- الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق أحمد صقر، مصر دار المعارف، ط1961/1، ج1/ص25.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص63.
[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص52.

بالمألوف البعيد عن الغرابة. وقد ذكر صاحب الطّراز أنّ بعض النظّار من أهل الصناعة زعموا «أنّ الكلام الفصيح ما كان في ألفاظه عُنْجُهيّة الغرابة وبعد عن الأفئدة الإحاطة بمعناه وعزّ عن الأفهام إدراكه، فما هذا حاله يصفونه بالفصاحة»[1].

-"عدم قبول الكلام المضطرب": فهذا لا يؤدّي إلا للفهم الفاسد غير الواضح، ويحدث ذلك إذا لم يستطع المتكلّم الإفصاح عن مغزاه، أو عند التقصير المجحف في الكلام، ويسمّيه العسكري "المقصّر"، وهو «ما لا ينبيك بمعناه عند سماعك إياه، ويحوجك إلى شرح»[2]، كبيت الحارث بن حلّزة:

والعيشُ خَيْرٌ فـي ظِـلاَ ل النّوكِ ممَّنْ رَامَ كَدَّا

فهذا من الكلام المضطرب؛ لأنّ الشاعر لم يوفِّ كلامه بما يقتضيه مغزاه؛ لأنّه «أراد: والعيش الناعم خيرٌ في ظلال النوك من العيش الشاقّ في ظلال العقل، وليس يدلّ لحن كلامه على هذا»[3].

فتمام الكلام ما استطاع فيه المتكلّم التعبير عن معناه بالشكل اللغوي الذي يحقّق له مقصده، فأجود الكلام ما «لا ينغلق معناه، ولا يستَبْهِمُ مغزاه، ولا يكون مكدودا مستكرها، ومتوّعرا متقعّرا، ويكون بريئا من الغثاثة، عاريا من الرثاثة»[4]. وكلّ هذا يسهم في تحقيق الغرض الذي يريد المتّصل تحقيقه.

ب-غرض الإقناع:

قد تتعدّى مقصديّة المتكلّم حدود الإفهام إلى الإقناع، و«هو عبارة عن محاولة واعية من قبل مصدر أو مرسل ليغيّر سلوك المستقبل أو الجمهور المستهدف من خلال إرسال رسالة اتصالية ذات محتوى مقنع... ويمكن الحكم

[1]- العلوي، كتاب الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الأعجاز، بيروت دار الكتب العلمية، 1980، 115/1.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص42.
[3]- العسكري، المصدر نفسه، ص194.
[4]- العسكري، الصناعتين، ص73.

على مدى نجاح الاتصال المقنع بقدر نجاحه في تغيير السلوك المرغوب فيه، أو فشله في التعبير. وقد يتم التغيير في السلوك بشكل فوري، أو يأتي متأخّرا، ويعتمد الاتصال المقنع بشكل أساسي على خصائص المصدر ومحتوى الرسالة الاتصالية، وطريقة عرضها، وطبيعة الوسيلة المستخدمة وخصائص الجمهور المستقبل»[1]. فالإقناع متّصل بالقدرة التي يستطيع من خلالها المتكلّم أن يغيّر سلوك المستهدفين، ويتم ذلك باتّباع تقنيات معيّنة تضمن له ذلك.

وقد أشار العسكري إلى هذا الغرض في مواضع كثيرة، ويمكننا استقراء ما ذكره من خلال بيان مواضعه وتقنياته اللغوية؛ فمواطنه ترتبط بالمقام الذي يكون فيه المرسل، ويتم عندما يخاطب المتبوع التابع، يقول: «فأما ما يكتبه العمال إلى الأمراء ومن فوقهم، فإنّ سبيل ما كان واقعا منها في إنهاء الأخبار، وتقرير صوّر ما يلونه من الأعمال، ويجري على أيديهم من صنوف الأموال، أن يمدّ القول فيه حتّى غاية الشفاء والإقناع، وتمام الشرح والاستقصاء؛ إذ ليس للإيجاز والاقتصار عليه موضع»[2]. فإذا خاطب المتكلّم ذوي الإمارة فلا بدّ من إقناعهم بما يبتغيه، وسبيله في ذلك الشرح الوافي للفكرة المطروحة، والاستقصاء الكامل لأبعاد الرؤية المعيّنة من غير إيجاز أو تقصير.

أما تقنياته فتتنوّع لدى العسكري؛ منها اعتماد الحجّة، وقد خصّص لذلك فصلا كاملا سمّاه "في الاستشهاد والاحتجاج"، و«هو أن تأتي بمعنى ثمّ تؤكّده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول، والحجّة على صحّته»[3]. فالحجّة ههنا طريقة من طرق البيان، والتي تتطلّب في أساسها بناءً لغويا معيّنا يلجأ إليه المرسل حينما يريد توضيح معنى ما، وتأكيده لدى السامع، وكل ذلك يتطلّب بلاغة حجاجية.

---

[1]- إبراهيم أبو يعقوب، الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، ص210.
[2]- العسكري، الصناعتين، ص163.
[3]- العسكري، الصناعتين، ص434.

وفي هذا الإطار أشار "بيريلمان Perelman" إلى أنّ هناك «حجاجا يمكن نعته بالبلاغي؛ أي هناك صنف من الحجج يخضع لبنائه وترتيبه لقواعد البلاغة والبيان. ويتّسم هذا النوع من الحجاج بالسمات التالية:

-اندماجه عضويا بالخطابة في شكلها المكتوب والمنطوق.

-اشتراطه لرغبتين هما؛ إرادة المتكلّم (المؤثّر والمقنع)، وإرادة المتلقّي (المتأثر والمقتنع).

-اشتماله على البعد الاستدلالي والبعد الإمتاعي، أو الجمع بين البيان والبديع.

-عدم قابليته للقولية والصياغة المنطقية الشكلية والرمزية»[1].

وتحقيق الحجاج في الرسالة اللغوية مرتهن بحسن البيان، والذي يرتبط بالأسس التالية:

-الإجادة في تأليف العبارة والدقّة في نظم علاقات ألفاظها.

-التأثير في المتلقّي؛ أي ما طربت له الأذن وانساقت له الأسماع.

-السهولة واليسر في المنطق؛ أي ما نطقت به الألسنة نطقا سهلا واضحا لا عيَّ فيه.

-استمالة عقول الآخرين؛ أي ما كان له وقع في الأنفس، فاشتاقت له وهامت به.

-موافقته للحاجة المعبَّر عنها؛ أي ما جاء وافقا للغاية التي لأجلها وُصف بهذه الصفة[2].

---

[1]- حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، عناصر استقصاء نظري، ص110.

[2]- عبد الحليم بن عيسى، البيان الحجاجي في إعجاز القرآن الكريم –سورة الأنبياء نموذجا-"، مجلة التراث العربي، مجلة الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، سوريا، السنة الثالثة والعشرون، العدد(102)، 2006م، ص14.

ومن صُوَّره التي ذكرها العسكري ما ورد في قوله تعالى: **(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)**[1]، فـ «هذه دلالة واضحة على أنّ الله تعالى قادر على إعادة الخلق، مستغنية بنفسها عن الزيادة فيها؛ لأنّ الإعادة ليست بأصعب في العقول في الابتداء»[2]. فالحِجاج في الآية تمّ بآلية لغوية تداولية ترتبط باستعمال الاستفهام "من يحي العظام؟" والرابط الحجاجي "واو الحال" في "وهي رميم". وقد وضّحه أبو هلال انطلاقا مما يسميه "ديكرو Dicrot" بـ "قواعد السلّم الحِجاجي"[3]؛ فالذي خلق الإنسان أول مرّة، بإمكانه خلقه مرّة أخرى حتى وإن كان رميما.

ومنه كذلك قوله عزّ وجلّ: **(أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الخَلاّقُ العَلِيمُ)**[4]،باستعمال الاستفهام الإنكاري؛ «لأنّ إعادة الخلق ليست بأصعب في العقول من خلق السماوات والأرض»[5]. ومما دعّم هذا الحجاج استعمال الروابط التداولية الحجاجية، وهي "بلى والواو".

ومن النماذج النثرية «ما كتب به كافي الكفاة في فصل له: فلا تقس آخر أمرك بأوّله، ولا تجمع من صدره وعجزه، ولا تحمل خوافي صنعك على قوادمه، فالإناء يملؤه القطر فيفعم، والصغير يقترن بالصغير فيعظم، والداء يلمّ ثم يصطلم، والجرح يتباين ثم ينفتق، والسيف يمس ثمّ ينقطع، والسهم يرد ثم ينفد»[6]. فلما أراد الكاتب تأكيد كلامه وتوضيحه لدى المتلقّي استعمل الحجّة، وفق ما تمليه

---

[1]- يس (78-79).
[2]- العسكري، الصناعتين، ص24.
[3]- حول مفهوم الحجاج في الفلسفة، مقاربة فلسفيّة لسانيّة ديداكتكيّة، رويض محمد، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد26،ك www.fikrwanakd.aljabriabed.n26_04rueyd.htm، وتعني قواعد السلّم الحجاجي تأكيد نتيجة معيّنة، تسبقها معطيات أو بالأخرى مقدِّمات، تسهم بطريقة مضبوطة في التقديم في تحقيق القضيّة المطروحة أو دحضها.
[4]- يس (81).
[5]- العسكري، الصناعتين، ص24.
[6]- العسكري، الصناعتين، ص434.

قواعد السلّم الحجاجي، والمقصود بالسلّم ههنا «مجموعة غير فارغة من الأقوال مزوّدة بعلاقة ترتيبيّة ومستوفيّة للشرطين التالين:

-أنّ كلّ قول يقع في مرتبة ما من السلّم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال الأخرى.

-وأنّ كل قول في السلّم كان دليلا على مدلول معيّن كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى»[1]. فالكلام الذي كان يلزم التأكيد بالحجّة هو "فلا تقس آخر أمرك بأوّله، ولا تجمع من صدره وعجزه، ولا تحمل خوافي صنعك على قوادمه"، وكلّ ما جاء بعده كان دليلا على المقصد السابق، باستعمال الرابطين الحجاجِيَيْن "الواو وثم".

ومن ذلك في النظم قول الشاعر[2]:

إنّما يَعْشَقُ المَنَايَا مِنَ الأقْوامِ مَنْ كـانَ عاشِقاً لِلْمَعَـالِي

وَكَذَلِكَ الرِّماحُ أوّلُ مَا يُكْـ سَرُ مِنْهُنَّ فِي الحُروبِ العَوَالِي

فلا يعشق المنية في القوم إلاّ من كان من علْيتهم، ولكي يثبت الشاعر ذلك أكّده بقول آخر لازم له في معناه، ويحقّق له مقصده، والرابط الحجاجي هو الواو.

ويجب أن نشير إلى أنّ وظيفة الحِجاج في الرسالة الإبلاغية «ترتدّ إلى طرح الحجج التي تضمن النفاذيّة للخطاب اللغوي، وبالتالي حصول الاقتناع الفعلي بالقضية المطروحة. وهذا يعني توظيف الآليات التي تجتاز الاعتقاد الأوّلي نحو التغيير، وبناء الموقف المغاير»[3]. فسبيل الإقناع قد يكون بالحجة التي يوظّفها المتكلّم وفق آليات تداولية معيّنة، تجعل المتلقّي يرتضي ويؤمِّن بالفكرة المقدَّمة في التعبير اللغوي.

---

[1]- حول مفهوم الحجاج في الفلسفة، مقاربة فلسفيّة لسانيّة ديداكتيكيّة، رويض محمد، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد 26،
www.fikrwanakd.aljabriabed.n26_04rueyd.htm

[2]- العسكري، الصناعتين، ص434.

[3]- عبد الحليم بن عيسى، البيان الحجاجي في إعجاز القرآن الكريم –سورة الأنبياء نموذجا-"، ص16.

ومن تقنيات الإقناع لدى العسكري ما يرتبط بالتذييل، وله «في الكلام موقع جليل، ومكان شريف خطير؛ لأنّ المعنى يزداد به انشراحا والمقصد اتّضاحا... فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكّد عند من فهمه»[1]. فالإقناع قد يقتضي زيادة الألفاظ في التشكيل اللغوي، من أجل إنهاء المقاصد إلى عقول المتلقّين، فهو يهدف إلى «جعل شخص يقوم بفعل ما عن طريق النصح والحجّة والمنطق والقوة»[2].

وأشار أبو هلال إلى أنّ التذييل في الرسالة اللغوية يرتبط في أساسه بالمقام الذي يُوظّف فيه، قال: «وينبغي أن يُستعمل في المواطن الجامعة، والمواقف الحافلة؛ لأنّ تلك المواطن تجمع البطيء الفهم والبعيد الذهن، والثاقب القريحة، والجيّد الخاطر، فإذا تكرّرت الألفاظ على المعنى الواحد توكّد عند الذهن اللقن، ووضع للكليل البليد»[3]. فاستعمال التذييل ليس محصورا في طبقة معيّنة؛ بل يشمل كلّ أصناف الناس كلّهم؛ الفطن والذكي والبليد وغيرهم، وغالبا ما يكون ذلك في الخطابات الموجّهة للعامة الناس، كالخطابة والكتابة وغيرهما.

ولذا على المتكلّم الفطن أن يراعي هذا المُخَاطَب الجماعي، و«الحامل للخصائص الجماعية الكبرى التي يتقاطع فيها السواد الأعظم، إنّه بعبارة أخرى: الثقافة والحضارة والمجتمع والنصوص الخلفية الثاوية في اللاوعي الجماعي الموجّه للوعي وللفهم وللتعامل داخل الزمرة الاجتماعية الخاصة، وبالتالي يكون الخطأ في رسم صورته الفعلية مؤديا حتما إلى نتائج عكسية تماما»[4]. وهذه المعرفة تستدعي فطنة من المتكلّم، والتي تمكّنه من المعرفة الواعية بأحوال

---

[1]- الصناعتين، ص387.
[2]- إبراهيم أبو يعقوب، الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، ص189.
[3]- الصناعتين، ص387.
[4]- محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيريلمان وتطوّره في البلاغة المعاصرة، ص69.

المخاطبين الذين قد يوجّه لهم الكلام، والخطأ في التقدير هذا المُخاطب قد تنجم عنه ردّة فعل عكسية فلا تتحقّق مقصدية الخطاب.

والشيء الأساسي الذي يحقّق التذييل في الفعل الكلامي هو "التكرار"؛ أي إعادة الألفاظ المترادفة التي تعبّر عن المعنى المعيّن، لتتعدّى الغاية ههنا الإفهام لتصل إلى الإقناع. ومن ذلك قوله تعالى: **(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَئِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدونَ)**؟[1] فإعادة المعنى في الآية تمّ بأسلوب الاستفهام، وله دور أساسي في إقناع المتلقّين، «نظرا لما يعمله من جلب القارئ أو المستمع في عمليّة الاستدلال، بحيث إنّه يشركه بحكم قوّة الاستفهام وخصائصه، فهو أسلوب إنشائي. وهذه الأمور أيضا هي من سمات الاستفهام البلاغي في القرآن الكريم، بحيث إنّه يخدم مقاصد الخطاب، ويلعب دورا أساسيّا في الإقناع بالحجّة»[2]، وجاء الاستفهام في الآية إنكاري، والمقصود ههنا نفي الخلد عن البشر؛ لأنّه من صفات الله تعالى.

ومن المنظوم قول الحطيئة[3]:

قَوْمٌ هُمْ الأَنْفُ وَالأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ ومن يَقِيس بأَنْفِ النَّاقةِ الذَّنَبَا؟

بتكرار المعنى؛ إذ استوفاه الشاعر في الشطر الأول، وذيّله في الشطر الثاني. والمقصد ههنا هو بيان قيمة القوم الذين يفتخر بهم الشاعر مقارنة بغيرهم، ولتوضيح ذلك اعتمد على الاستفهام الإنكاري الذي يمثّل بنية حجاجية تسهم بقوة في إقناع المتلقّي بالمراد.

ومن الأمثلة في النثر التي ذكرها العسكري، ما كتبه رجلٌ إلى أخٍ له فقال: «أما بعد: فقد أصبح لنا من فضل الله تعالى ما لا نحصيه، ولسنا نستحي من كثرة

---

[1]- الأنبياء (34).

[2] البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل نموذجا، الحواس مسعودي، مجلة اللغة والأدب، الجزائر، معهد اللغة العربية و آدابها، العدد 12 ديسمبر 1997.ص341-342.

[3] العسكري، الصناعتين، ص388.

ما نعصيه، وقد أعيانا شكره، وأعجزنا حمده، فما ندري ما نشكر؛ أجميل ما نَشَر، أم قبيح ما سَتَر، أم عظيم ما أبْلَى، أم كبير ما عفا؛ فاستزد الله من حسن بلائه بشكره على جميع آلائه. فقوله: "فما ندري ما نشكر" تذييل لقوله: "قد أعيانا شكره"»[1]. وبالتذييل المؤسّس على استعمال الاستفهام، وتوظيف الرابط التداولي الحجاجي "أم" في "أجميل ما نشر، أم قبيح ما ستر، أم عظيم ما أبلى، أم كبير ما عفا".

ج-غرض التأثير والإمتاع:

ويقصد بالتأثير كل ما قد يدخل في «إثارة العواطف والإحساسات عند السامع، على شرط أن يكون متّصلا بالحقيقة أو بالموضوع الذي يراد البرهنة عليه. وهدف ذلك التأثير هو تصوير تلك الحقيقة، أو ذلك الموضوع، بصورة محبوبة جذّابة»[2]. ومنه يتّضح لنا أنّ الإمتاع يسهم في إحداث التأثير المراد، كما نرى أيضا أنّ هذين الغرضين يتعلّقان بالمتكلّم؛ إذ لابدّ أن يتحلّى بالصفات التي تمكّنه من تحقيقهما؛ كالفطنة والقدرة على التعبير عن أفكار الموضوع، والتمتّع بالطريقة المميّزة على البرهنة على مقتضيات المقصد المطلوب.

وقد نبّه أرسطو إلى ثلاث مسائل، إذا استوفاها المتكلّم عرف طريقه إلى عواطف السامعين، وكيفية إثارتها في نفوسهم، فـ «من هذه المسائل أن يعرف الاستعدادات النفسية التي تحمل المرء على الغضب أو الخوف أو الرحمة أو غيرها من العواطف، ومنها أن يعدّ الذين يشعر عادة بتلك العواطف نحوهم، وثالثهما أن نعدّ الأشياء التي تثير عادة فينا هذا الشعور»[3].

---

[1] العسكري، الصناعتين، ص388.

[2] لابي سي فينسان، نظرية الأنواع الأدبية، ترجمة حسن عون، الإسكندرية منشأة المعارف، ط1990/2، ص385.

[3]- محمود عباس عبد الواحد، قراءة النص وجماليات التلقي، ص122.

فهذه المبادئ الثلاثة مجتمعة ضرورية لإثارة المتلقّي، وجعله يتفطّن ويتدبّر الفكرة أو القضية التي يعالجها المتكلّم، وتتجلّى مع الخطابة والشعر وغيرهما من الأجناس الأدبية.

ولاحظ العسكري أنّه من الصنعة أن يتمتّع الخطيب بالاستعدادات النفسية التي تمكّنه من استمالة الآخرين؛ فعليه أن يكون رابط الجأش، ساكن النفس[1]، حتى يكتسب الثقة بالنفس التي تجعله يتحكّم في خطبته، فيبين عن المعنى، ويحقّق المقصد. ولكن إذا ما اختلت فإنّها «ستحدّ من قدرة الخطيب على إيصال أفكاره بشكل واضح إلى المتلقّين، وتشتيت انتباههم وتركيزهم، كما قد يؤدّي إلى عجزه عن الأداء الكلامي بشكل يناسب المعنى»[2].

ولإحداث التأثير والإمتاع في الرسالة الإبلاغية من الضروري الإحاطة بمسائل الموضوع، ويكون ذلك «في الإحماد والإذمام والثناء والتقريظ، والذم والاستصغار، والعدل والتوبيخ، وسبيل ذلك أن تُشْبِعَ الكلام فيه، ويمدّ القول حسب ما يقتضيه آثار المكتوب إليه في الإحسان والإساءة والاجتهاد والتقصير، ليرتاح بذلك قلب المطيع، وينبسط أمله، ويرتاع قلب المسيء، ويأخذ نفسه بالارتداع»[3]. فطبيعة المجالات المذكورة في القول تقتضي إشباع القول فيها، بإيراد كل ما يتعلّق بالموضوع المعيّن، حتى تقبله أذن السامع، ويتدبّره فكره، فينبسط له أو يرتدع.

ولتحقيق التأثير والإمتاع أيضا لا بدّ للمتكلّم أن يتوافر على الكفاءة اللغوية الكافية من تقديم التشكيل اللغوي المخصوص الذي ينجذب من خلاله المتلقّي، فيتفاعل مع الموضوع المطروق. ويتم ذلك -كما يرى العسكري- مع الشعر أكثر، فـ «ليس شيء يقوم مقامه في المجالس الحافلة والمشاهد الجامعة، إذا قام به منشد

---

[1]- ينظر الصناعتين، ص27.
[2]- محمد عبد الرحيم عدس، فن الإلقاء، الأردن دار الفكر، ط1/1995، ص16.
[3]- العسكري، الصناعتين، ص162.

على رؤوس الأشهاد، ولا يفوز أحد من مؤلّفي الكلام بما يفوز به صاحبه من العطايا الجزيلة، والعوارف السنيّة، ولا يهتزّ مَلِكٌ ولا رئيس لشيء من الكلام كما يهتز له، ويرتاح لاستماعه، وهذه فضيلة أخرى لا يلحقه فيها شيء من الكلام»[1].

فانتظام الشعر على طريقة قائمة على الوزن والقافية من جهة، وارتباطه بالخيال من جهة أخرى، جعله يكتسب هذه الأهمية في تحقيق هذين الغرضين.

فأكثر الأجناس الأدبية تأثيرا في العقول، وإمتاعا للنفوس، الشعر، يقول أبو هلال: «ليس يؤثّر في الأعراض والأنساب تأثير الشعر في الحمد والذم شيء من الكلام، فكم من شريف وُضِعَ، وخامل دنيء رُفِعَ، وهذه فضيلة غير معروفة في الرسائل والخطب»[2]. وإنّما كان للشعر هذه الفضيلة؛ لأنّه مؤسس على خصائص تميّزه عن غيره، وتؤمِّن للمتكلّم في الوقت نفسه الوصول إلى غرضه.

ويبقى أن نشير إلى أنّ تحقيق هذه الأغراض يظلّ مرتبطا بموضوع الرسالة الإبلاغية من جهة، وبالموقف الذي يكون فيه المتكلّم من جهة أخرى، والذي يستدعي منه حسن انتقاء الأفعال الكلامية المناسبة للمقاصد.

[1]- العسكري، الصناعتين، ص143.
[2]- المصدر نفسه، ص143.

الخاتـمة

الـخاتـمة:

اتّضح لنا من هذا البحث "الاتّصال اللساني وآلياته التداولية في الصناعتين" أنّ أبا هلال العسكري استطاع أن يقدّم رؤية مخصوصة للاتّصال، استنبطها انطلاقا مما يمليه الشكل الذي يمكن أن يعتمد في ذلك من جهة، ومن الموضوع الذي يطرحه المرسل من جهة أخرى.

وقد أقرّ لكلّ ذلك تقنيات تضبط العملية الاتّصالية بموضوعاتها المختلفة، ومقاصدها المتعدّدة، فتنوّعت بحسب ما يقتضيه كلّ ركن من أركان الاتّصال. و ذكر أنّه مهما تعدّدت فإنّها تبقى مرتبطة بالأغراض التي يريد المتكلّم تحقيقها.

ويمكن أن نبيّن هذه الأمور أكثر بتقديم النتائج التالية:

1-لاحظنا من طرح المفاهيم المتعلّقة بالبلاغة والاتّصال والتداولية ذلك التداخل في اهتمامات هذه العلوم؛ فهي تبحث جميعها في طبيعة العملية الاتّصالية وأركانها، ولكن هذا لا يعنى إلغاء طابع الاختصاص الذي يتطلبه كل حقل؛ فإذا كانت البلاغة تركّز على التقنيات البلاغية التي تقتضيها الرسالة التي يشكّلها المتكلّم حتى يحقّق غرضه المطلوب، فإنّ علم الاتّصال يهتم بالعناصر التي تسهم في الإنجاز اللغوي بغية ضبط الأساسيات التي تشارك في نجاح العملية الإبلاغيّة ككل. أما التداولية فتنهض بالكشف عن مقصديّة المتكلّم انطلاقا من طبيعة العلاقة بين الفعل اللغوي والموقف الاجتماعي.

2-لا يرتبط مصطلح "الصنعة" لدى العسكري بمعرفة العربية وقواعدها وسياقاتها؛ بل يتعدّى ذلك ليتعلّق بامتلاك المتكلّم مهارة إنجاز الكلام؛ من حيث الدقّة في تخيّر اللفظ وإصابة المعنى، وابتكار الخيال وحسن الصياغة (جودة الرصف والتركيب والتأنّق في الأسلوب)، وفق خصوصيات الموضوع من جهة، ومستدعيات المقام من جهة أخرى. وقد تجعل المتلقّي الذي له معرفة بها أيضا يتذوّق أشكال الاتّصال المختلفة، وخصوصا الفنيّة منها، حيث تمكّنه من تمييز رديئها من جيّدها، وفاترها من باردها.

3-تعدّ المعرفة بصنعة الكلام أساس الفعل الاتّصالي لدى العسكري، لذا لاحظناه يربط الغاية من تأليف هذا الكتاب بهذه القضية. وهي ليست في متناول الجميع؛ لذلك قال "وهي أصعبها وأشدّها".

4- ربط العسكري بلاغة الاتّصال- بنوعَيْه الكتابي والشفاهي- بالموضوع والمقاصد، وهما يفرضان على المتكلّم استعمال أفعالا كَلامية خاصة، فمثلا إذا كان في مقام الشكر يوظّف الأفعال اللغوية الدالّة على السيرة "Condutifs"؛ لأنّها كفيلة بتحقيق مقصديّة الشاكر، أمّا مقام الأمر فيستدعي منه استعمال الأفعال الكلامية الدالة على الممارسة والتطبيق " Exercitifs". أمّا إذا كان في مقام الوعد فإنّه يورد الأفعال اللغوية الدالة عليه.

5-ظهر لأبي هلال أنّ الاتّصال لا يكون ناجحا إلاّ إذا كان موافقا للعرف في الاستعمال اللغوي، والذي يسهم في توضيح مقصد المتكلم، وهو من الآليات التداولية التي تفسّر كيفيات إدراك منطوق الخطاب الإبلاغي.

6-تتجلّى إبداعية الشعر من خلال كتابته الفنية الراقية، فمنها يكتسي قوّته في التأثير ولفت انتباه المتلقّي، لذا فهو يمثّل النموذج الأرقى الذي ينبغي احتذاؤه لبلوغ أعلى مراتب البلاغة.

7-ترتبط فعّالية الخطابة لدى أبي هلال بالدرجة الأولى بالخطيب؛ إذ اشترط فيه صفات جوهرية منها ما هو خلقي كطلاقة لسانه وسلامته من العيوب، ومنها ما هو عقلي وتتمثّل في ثقافته المتنوّعة، وقدرته على الإلمام بمستلزمات موضوعه، وكيفية بنائها في تشكيل لغوي مراعيا أحوال المتلقين من جهة، والغايات المرجوّة من جهة أخرى.

8-يقدّم صاحب الصناعتين تصوّرا دقيقا لما تقتضيه أركان العملية الاتّصالية، تغذّيها معطيات بلاغية، وأخرى تداولية. فعلى المرسل (الخطيب، الشاعر، الكاتب، المتكلّم) أن يتمتّع بمعرفة واسعة بالعربية، وطرق استعمالها في

الاتّصال المعيّن حتى يحقّق غاياته، لأنّ كل فعل كلامي من المنظور التداولي ليس منطوقا من مضامين فحسب؛ بل هو منطوق من المقاصد أيضا.

أمّا السامع (المخاطب، القارئ) فعليه أن يمتلك مهارة الاستماع، وهي وظيفة عقلية، وتعني فهم الرسالة بعد أن تتم عملية السماع بواسطة آلة السمع التي تمكّنه من التفاعل الناجح مع إفرازات الاتّصال اللغوي.

وأوضح أنّ إنجاز الرسالة (كلام، خطب، رسائل، شعر) يتطلّب تضافر عمليتين أساسيتين لا يمكن الفصل بينهما وهما "الاختيار والتنسيق"، وتتحقّق الصناعة بقدر التحكّم فيهما. كما حدّد لها خصائص تدخلها ضمن الكلام المقبول والبليغ.

وقد اعتبر المقام من المكوّنات التي تسهم في صنعة الكلام، فعلى المتكلّم مراعاة في كل فعل كلامي، انطلاقا مما يقتضيه الموضوع من جهة، وما يستدعيه المتلقّي من جهة أخرى.

9- مهما تنوّعت أشكال الاتّصال فإنّها تبقى مرتبطة بالإيضاح عن المقصود، والابتعاد عن الغرابة والتوعّر. ولتحقيق ذلك لاحظنا العسكري يدعو البليغ ويحثّه على تصفية ألفاظه كل التصفية من النعوت التي لا تضمن له الإفصاح عن المراد، وليؤطّر هذا الطرح ظلّ يدعو مؤلّف الكلام إلى عدم مخالفة الاستعمال، حتى لا يقع في سوء الصنعة.

10-تبيّن للعسكري أنّ الرسالة اللغوية تؤطّرها خصائص متنوعّة، ترتبط بموضوع الكلام من جهة، كما تتعلّق بالغايات التي يُراد تحقيقها من جهة أخرى. وهي تتطلّب من كل فرد إدراكها حتى يمتلك القدرة على التعامل مع أشكال الاتّصال في مختلف المواقف.

11-تتجلّى فاعلية الإيجاز في الكلام من خلال بعده التداولي؛ أي من قدرة منطوق المتكلّم الموجز ضمن سياق ما من الدلالة على أبعاد المقصد المراد. وبلاغة الفعل الكلامي ترتبط بهذا التقليل الذي يجعل المتلقّي يدرك المراد في كلام موجز ومستوفي للإفادة المرجوّة.

12-تتحدّد القيمة التداولية للإطناب انطلاقا من نوعية الأفعال الكلامية من جهة؛ كالنهي عن شيء معيّن، أو الترهيب أو المواعظ أو الفتوح الجليلة أو غيرها، وبالطبقة المنوطة بها من جهة أخرى، وتشمل العامة من الناس.

13- يبقى التعامل مع الفصل والوصل مرتبطا بتقنيات مضبوطة، فعن طريقها يضمن المرسل الجودة في التعبير مرّة، والإلمام بالمقصد المعيّن مرّة أخرى. ومسار البناء اللغوي في إطار هاتين الخاصيتين يدعو المرسل لأن يكيّف بناء الرسالة بحسب المعاني التي يؤلّف بينها.

14-يتنوّع الاتّصال اللغوي لدى العسكري بين الأداء الكلامي العادي بين عامة الناس، والأداء الإبداعي؛ وهو الذي يعدل أو ينحرف فيه المتكلّم عن سنن المألوف. ولكنّه ظلّ يربط توظيفهما بالبعد التداولي، المتعلّق بالمسافة والمرتبة الاجتماعية بين المشاركين في الموقف، وكذلك المعرفة الثقافية.

15-كما أكّد العسكري على الملائمة في الإبداع الشعري فهي تتجلّى أكثر مع الأغراض التي تستدعي طريقة خاصة في النظم تجعلها تتمايز بعضها عن بعض.

و في الأخير ظلّ أبا هلال يوضح كثيرا من التقنيات التي تؤطّر الاتصال اللساني بمختلف أشكاله من طروحات هي من اهتمامات التداولية. وتبيّن لنا أنّ "الصناعة" تعني في أساسها امتلاك القدرة على فهم وإنتاج الفعل التواصلي، وهذا ما يطلق عليه في الدراسات الحديثة بـ"الكفاءة التداولية"، والتي تتضمّن أيضا معرفة المرء بالمسافة الاجتماعية والمرتبة الاجتماعية بين المشاركين في الموقف، وكذلك المعرفة الثقافية والمعرفة الظاهرة والضمنية لأبعاد الخطاب اللغوي.

ويظلّ هذا العمل محاولة علمية، ابتغينا فيها خدمة لغتنا، وقد بذلنا جهدنا في تتبّع مسائل هذا البحث، فإن كنّا قد وفّقنا إلى ذلك، فهذا ما سعينا إليه، واجتهدنا في سبيله. ولا ندّعي الكمال، فهو لله عزّ وجلّ وحده. وصدق الأصفهاني إذ قال: "ما كتب أحد في يومه كتابا إلاّ قال في غده؛ لو زيد كذا لكان أحسن، ولو حُذف كذا لكان يُستحسن، ولو أُضيف كذا لكان أصوب، ولو نقص كذا لكان يُستصوب، وهذا دليل على جملة النقص على جميع البشر".

ونسأل الله تعالى أن يجعل عملنا خالصا لوجهه، وأن ينفع به كلّ مطّلع عليه، وهو حسبنا ونعم المجيب.

الفهارس العامة

1-المصادر والمراجع العربية:

2-المصادر والمراجع الأجنبية:

3-الرسائل الجامعية:

4-المجلات:

5-المقالات في الأنترنيت:

6-فهرس الموضوعات.

1-المصادر والمراجع العربية:

*القرآن الكريم برواية الإمام ورش عن نافع.

1-إبراهيم أبو يعقوب، الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، عمان دار مجدلاوي، (د.ت).

2-ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر مكتبه مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1939.

3- إحسان النص، الخطابة العربية في عصرها الذهبي، دار المعارف، 1962.

4-أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية حقل تعليمية اللغات، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 2000.

5-أحمد حسن صبره وسعد سليمان، التفكير الاستعاري والدراسات البلاغية، مصر دار المعرفة الجامعية، 2002.

6-أحمد شايب، تاريخ الشعر السياسي، القاهرة دار المعرفة، (د.ت).

7-أحمد عزوز، المدارس اللسانية أعلامها ومبادئها ومناهج تحليلها للأداء اللغوي التواصلي، الجزائر، دار الأديب للنشر، 2005 .

8-أحمد محمد فارس، الكتابة والتعبير، بيروت دار الفكر اللبناني ط1989/3.

9-أحمد مطلوب، القزويني وشرح التلخيص، بغداد منشورات مكتبه النهضة، ط1967/1.

10-أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطوّر، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 2002.

11-أحمد وطاس، أهمية الرسائل التعليمية في عملية التعليم عامة وتعليم اللغة العربية للأجانب خاصة، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988.
12-أحمد يوسف، سميائيات التواصل وفعالية الحوار المفاهيم والآليات، منشورات مختبر السميائيات وتحليل الخطاب، جامعة وهران، 2004.
13-أسعد أحمد علي، صناعة الكتابة، دمشق دار السؤال، ط4/1981.
14-أمبيرتو إيكو، التأويل بين السميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بن كراد، المغرب المركز الثقافي العربي، 2004.
15-الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق أحمد صقر، مصر دار المعارف، ط1/1961.
16-أميرة منصور يؤسف علي، الاتصال والخدمة الاجتماعية، مصر المكتب الثقافي الحديث، 1999.
17-أندري مارتيني، مبادئ في اللسانيات العامة، ترجمة سعيدي الزبير، الجزائر دار الآفاق، (د.ت).
18-بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، بيروت دار الثقافة، ط3 (د.ت).
19-بدوي طبانة، البيان العربي دراسة في تطوّر الفكرة البلاغية عن العرب ومناهجها الكبرى، مصر الأنجلو المصرية، 1968.
20-بسام بركة، علم الأصوات العام، أصوات اللغة العربية، لبنان الإنماء القومي، (د.ت).
21-تمام حسان، الأصول دراسة إبستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، المغرب دار الثقافة، ط1/1997.
22-الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت دار الجيل، (د,ت).
23-الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت دار الجيل، 1992.
24-جان سيفريفوني، الملفوظية، قاسم المقداد، دمشق اتحاد الكتّاب العرب، 1998.
25-جميل عبد المجيد، البلاغة والاتّصال، مصر، دار غريب، 2000.
26-جورج لايكوف ومالارك جونسون، الاستعارات التي تحيينا، ترجمة عبد المجيد جحفة، المغرب دار توبقال، 1996.
27- جون براون وجون سيرل، تحليل الخطاب ترجمة محمد الزليطي ومنير بركي، السعودية جامعة الملك سعود للنشر العلمي، 1997.
28-جيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 1992.
29-حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، بيروت دار المغرب الإسلامي، 1986.

30-حبيب مونسي، النص الأدبي بين الترجمة والتعريب، الجزائر دار الغرب للتوزيع، 2005.
31-حبيب مونسي، نظرية الكتابة في النقد العربي القديم، الجزائر دار الغرب، 2003.
32-حسن عماد مكاوي وليلى حسن السيد، الاتصال ونظرياته المعاصرة، بيروت دار المصرية اللبنانية، 2002.
33-حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، 1981.
34-حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، الجزائ, ديوان المطبوعات الجامعية، ط2003/5.
35-أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت دار المعرفة، 1974.
36-خالد إبراهيم يوسف، الكتابة العربية وبلاغتها، لبنان مؤسسه الرحاب الحديثة، ط1 (د,ت).
37-دافيد كريستال، التعريف بعلم اللغة، ترجمة حلمي خليل، بيروت، دار الطليعة (د.ت).
38-دوجلاس براون، أسس تعلم اللغة وتعليمها، ترجمة عبده الراجحي وعلي أحمد شعبان، بيروت, دار النهضة العربية، 1998.
39-ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق مفيد قميحة، لبنان دار الكتب العلمية، 1983.
40-رمضان عبد التواب، لحن العامّة والتطوّر اللغوي، مصر دار المعارف، ط1/ 1967.
41-رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، المغرب دار توبقال، ط1/1988.
42-زكى مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، القاهرة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، (د.ت).
43-الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، بيروت دار الكتب العلمي، ط1/1998.
44-زنيسلاف وورزنيال، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ترجمة سعيد حسن البحيرى، مصر مؤسسة المختار، 2003.
45-الزوزني، شرح المعلقات السبع، الجزائر دار القصبة، (د.ت).
46-سعيد حسن البحيرى، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، القاهرة مؤسسة المختار، 2004.
47-السكاكي، مفتاح العلوم، مصر مطبعة البابي الحلبي وأولاده، 1990.

48-ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مصر مطبعة المدني، (د.ت).
49-ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تحقيق عبد المتعال المولى الصعيدي، مصر مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، (د.ت).
50-سيبويه، كتاب سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، بيروت دار الجيل، ط1، (د.ت).
51-السيوطي، المزهر في علوم اللغة، تحقيق محمد أحمد المولى وعلي محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، بيروت دار الجيل، (د.ت).
52-شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، مصر دار المعارف، ط2 (د.ت).
53-شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي القديم، مصر دار المعارف، ط2/.1977
54-صالح بلعيد، التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 1993.
55-صالح خليل أبو الأصبع، نصوص تراثية في ضوء علم الاتّصال المعاصر, عمان دار مجدلاوي، 2000.
56-صلاح الدين جوهر، علم الاتّصال مفاهيمه نظرياته مجالاته، القاهرة، عين شمس، (د,ت).
57-صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الكويت عالم المعرفة، 1992.
58-طالب سيد هاشم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين الفلاسفة المعاصرين والبلاغيين العرب، الكويت، 1994.
59-ابن طباطبا، عيار الشعر, تحقيق محمد زغلول، مصر منشأه المعارف، ط3، (د.ت).
60-طراد الكبيسي، في الشعرية العربية قراءة جديدة في نظرية قديمة، دمشق اتّحاد الكتاب العرب، 2004.
61-عادل فاخوري، تيارات في السيمياء، بيروت دار الطليعة، (د.ت).
62-عبد الجليل مرتاض، التحليل اللساني البنيوي للخطاب، الجزائر دار الغرب للنشر والتوزيع، 2000.
63-عبد الجليل مرتاض، اللغة والتواصل، الجزائر دار هومه، 2000.
64-عبد الرحمن بدوي، فن الخطابة عن أرسطو، مصر النهضة المصرية، 1959.
65-عبد السلام المسدّي، الأسلوبية والأسلوب، ليبيا الدار العربية للكتاب، (د.ت).
66-عبد العزيز شرف، علم الإعلام اللغوي، مصر لوجمان للطبع، 1995.
67-عبد العزيز شرف، نماذج الاتّصال في الفنون والإعلام والتعليم والإدارة والأعمال، مصر دار المصرية اللبنانية، (د.ت).

68-عبد العظيم عبد السلام الفرجاني، تقنيات الاتّصال التعليمي في القرآن والسنة، دار المغرب، .2000
69-عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل، سوريا دار الحوار، 2003.
70-عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، بيروت دار المعرفة، (د.ت).
71-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، الجزائر سلسلة الأنيس، 1991.
72-عبد المجيد جيدة، صناعة الكتابة عن العرب، بيروت دار العلوم العربية، 1998.
73-عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، نحو بلاغة جديدة، القاهرة دار غريب، (د.ت).
74-عدنان ابن ذريل، النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، منشورات اتّحاد الكتاب العرب، 2000.
75-ابن عصفور، دراسة في التراث النقدي، القاهرة دار الثقافة للطباعة والنشر، 1987.
76-العلوي، كتاب الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الأعجاز، بيروت دار الكتب العلمية، 1980.
77- علي أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، المغرب دار الثقافة، (د,ت).
78-عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، الجزائر منشورات الاختلاف، 2003.
79-ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العربية في كلامها، تحقيق عمر فاروق الطبّاع، بيروت مكتبة المعارف، 1993.
80-فاروق سعد، فن الإلقاء العربي الخطابي والتمثيلي، بيروت دار الكتاب اللبناني، 1987.
81-فاطمة طبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، دراسة ونصوص، لبنان المؤسسة الجامعية للنشر، .1999
82-فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، بيروت دار الملايين، 1985.
83-ابن قتيبة، أدب الكاتب، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، بيروت، عالم المعرفة، (د.ت).
84-ابن قتيبة، الشعر والشعراء، بيروت دار الثقافة، (د.ت).
85-قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مصر مكتبه الخانجي، 1967.
86-قدامة بن جعفر، نقد النثر، بيروت دار الكتب العلمية، (د.ت).

87-القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، بيروت دار الكتاب اللبناني، ط5/.1980
88-القلقشندي، صبح الأعشى، تحقيق وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة، (د.ت).
89- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، قدّم له عبد القادر الأرناؤوط، دمشق دار الفيحاء، والرياض دار السلام، ط1/1994.
90-كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمة سعيد حسن بحيرى، القاهرة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1/2005.
91-كوهين، النظرية الشعرية لبناء لغة الشعر العليا، ترجمة أحمد درويش، مصر دار غريب، .2000
92-لابي سي فينسان، النظرية الأدبية، ترجمة حسن عون، الإسكندرية منشأة المعارف، .1990
93-محمد زعلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، مصر دار المعارف، (د.ت).
94-محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، .1994
95-محمد عبد الرحيم عدس، فن الإلقاء, الأردن، دار الفكر، ط3.
96-محمد عبد الغني حسن، الخطب والمواعظ، مصر دار المعارف، (د.ت).
97-محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مصر الهيئة العلمية لصناعة الكتاب، 1984.
98-محمد عبد المطلب، جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، بيروت مكتبة لبنان ط1/1995.
99-محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، المغرب أفريقيا الشرق، (د.ت).
100-محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا، المغرب أفريقا الشرق، 2002.
101-محمد الكشاش، علل اللسان وأمراض اللغة رؤية لغوية إكليلينكية وانعكاساتها الاجتماعية، بيروت المكتبة المصرية، ط1/1998.
102-محمد مزيان، مدخل إلى نظريات الاتّصال المعاصرة، الجزائر منشورات دار لالة سكينة، ط1، (د.ت).
103-محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري استراتجية التناص، المغرب المركز الثقافي العربي، ط3/1992.

104- محمد منير حجاب، مهارات الاتصال للإعلاميين والتربويين والدعاة، بيروت دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1/.1999
105-محمود عباس عبد الواحد، قراءة النص وجماليات التلقي بين المواهب العربية، والحديثة وتراثنا النقدي، دراسة مقارنة، مصر دار الفكر العربي، ط1/.1996
106-مسعود صحراوي، التداولية عند العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، بيروت دار الطليعة للنشر والتوزيع، ط1/.2005
107-ابن المقفّع، الأدب الصغير والأدب الكبير ورسالة الصحابة، تحقيق يوسف أبو حلفة، بيروت مكتبة البيان، ط3/.1964
108-موريس أبو ناصر، إشارة اللغة ودلالة الكلام، بيروت منشورات مختارات، ط1/.1990
109-ميشال زكريا، الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة)، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1/.1983
110-ميشال زكريا، الألسنية علم اللغة الحديث المبادئ والأعلام، بيروت المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، ط2/ .1983
111-هادي نهر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، بيروت دار الأمر للنشر والتوزيع، (د.ت).
112-هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سميائي لتحليل النص، ترجمة محمد العمري، المغرب منشورات داراسات سال، (د.ت).
113-أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دمشق دار الفكر العربي، ط2 (د.ت).
114-ابن يعيش، شرح المفصّل، بيروت، عالم الكتب، (د.ت).

2- المصادر والمراجع الأجنبية:

1- André martinet, économie des changements phonétiques, berne franik édition, 1955.
2- André martinet, Eléments de linguistique générale, Paris librairie armand colin,1967.
3-Chomsky, La linguistique cartésienne, suivi de la nature formelle du langage, traduction de N. Delanob et D. sperber, Paris ; éditions du seuil.
4-Jakobson, Essais de linguistique générale, Paris les éditions de minuit 1963.
5-John Dubois, Dictionnaire de linguistique, Paris librairie la rousse, 1973
6- John Searle, les actes de langage, « l'acte de langage ou les actes de langage réalise dans l'énonciation d'une phrase, son fonction de la signification de la phrase en question.
7- Judith lazar, la science de la communication, Paris 1993.

8- Roland berthes, Communication ; recherches rhétorique, Paris, édition de seuil,1970.

3-الرسائل الجامعية:

-الحاج لونيس بلخياطي، نظرية الكلام في بلاغة أبي هلال العسكري، إشراف الدكتور محمد طول، جامعة تلمسان، 2005.
-مسعود صحراوي، الأفكار المتضمّنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، رسالة دكتوراه في اللسانيات، إشراف الدكتور عبد الله العشي، جامعة باتنة، 2004.

4-المجلات:

-تمام حسان، قضايا المصطلح الأدبي، مجلة فصول، مجلد7 العددان الثالث والرابع، أبريل- سبتمبر 1987،
-حسن أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي عناصر استقصاء نظري، مجلة عالم الفكر، المجلد 30، سبتمبر 2001.
-حسن البنا والترج أونج، الشفاهية والكتابة، الكويت عالم المعرفة، العدد 182، 1994.
-الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل نموذجا، مجلة اللغة والأدب، الجزائر، معهد اللغة العربية و آدابها، العدد 12 ديسمبر 1997.
-جيل بلان، عندما يكون الكلام هو الفعل، ترجمة جورج كتورة, مجلة العرب والفكر العالمي، لبنان مركز الإنماء القومي، العدد الخامس 1989.
-ريتشاردز، فلسفة اللغة، ترجمة ناصر حلاوي وسعيد الغانمي، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، عدد 13-14، 1991.
-عبد الحليم بن عيسى، البيان الحجاجي في إعجاز القرآن الكريم –سورة الأنبياء نموذجا-"، مجلة التراث العربي، مجلة الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، سوريا، السنة الثالثة والعشرون، العدد(102)، 2006م.
-محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيريلمان وتطوّره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، مجلد 28، العدد 3 يناير/مارس 2000.
-محمد سورتي، اللغة ودلالتها تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، مجلة عالم الفكر، مجلد 8، العدد 3 يناير/ مارس 2000.
-محمد مشبال، البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، مجلة عالم الفكر، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مج30، عدد1، سبتمبر 2001،

5-مقالات في الأنترنيت:

- حول مفهوم الحجاج في الفلسفة، مقاربة فلسفيّة لسانيّة ديداكتكيّة، رويض محمد، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد26،كwww.fikrwanakd.aljabriabed.n26_04rueyd.htm،
-عادل الثامري، التداولية واللسانيات، الثلاثاء 2006/4/2، www.elaph.com/elaphweb/elaphwriter/2006/

فهرس الموضوعات

الموضوع:	الصفحة
المقدمة:	أ
المدخل: حول الاتّصال اللغوي والبلاغة والتداولية:	1
1-علم الاتّصال نظرة تاريخية:	2
2-ماهية الاتّصال:	8
3-شروط الاتّصال ووظائفه:	9
4-أنواع الاتّصال اللغوي:	13
أ-الاتّصال اللفظي:	14
ب-الاتّصال غير اللفظي:	15
5-البلاغة والاتّصال والتداولية:	17
الفصل الأوّل: أشكال الاتّصال اللغوي عند أبي هلال العسكري:	25
1-الصناعتين ومنهجيته:	25
أ-ماهية الصناعة لدى أبي هلال العسكري:	26
ب-اعتبارات تأليف الكتاب:	28
ج-محتويات الكتاب ومنهجه:	31
2-الاتّصال الكتابي عند العسكري:	33
أ-تقنيات الكتابة لدى العسكري:	35
-معرفة العربية لتصحيح الألفاظ وإصابة المعاني:	35
-المعرفة بالحساب وعلم المساحة والأزمنة والشهور والأهلة:	36
	37
-المعرفة بصنعة الكلام:	38

-المقام وأقدار المتكلّمين: 41
ب-طبيعة الاتّصال الكتابي عند العسكري: 41
-موضوع الرسالة وغايتها: 48
-موضوع الرسالة والمكتوب إليه: 49
-الكاتب والمكتوب إليه وموضوع الرسالة معا: 52
3-الاتّصال الشفاهي عند أبي هلال العسكري: 52
أ-بناء الاتّصال الشفاهي عند العسكري: 56
ب-نظم الشعر وخصائصه عند العسكري: 58
-ماهية الشعر لدى العسكري: 62
-مكوّنات الشعر لدى العسكري: 68
ج-الخطابة لدى العسكري: 68
-ماهية الخطابة: 69
-بناء الخطبة ومميّزاتـها: **77**
الفصل الثاني: أركان الاتّصال اللغوي عند أبي هلال العسكري: 78
1-المتكلّم وشروطه: 81
أ-رباطة الجأش: 85
ب-تخيّر اللفظ: 93
ج-حسن التصرّف : 94
د-مراعاة المتلقّي: 96
هـ-الدقّة في المعاني: 100
و-الاعتدال في اللفظ: 106
ز-حسن الابتداء: 108
2-المتلقّي (السامع، القارئ) وشروطه: 110

أ-حسن الاستماع: 114
ب-القدرة على فهم محتوى الرسالة: 115
3-الرسالة وصفاتها: 121
4-المقام: **128**
الفصل الثالث: خصائص الرسالة اللغوية وأغراضها عند العسكري 130
130
1-خصائص الرسالة اللغوية لدى العسكري: 138
أ-الإيجاز: 143
ب-الإطناب: 147
ج-الفصل والوصل: 149
2-الاتّصال اللغوي بين الظاهر والعدول: 153
أ-المستوى المثالي في الأداء العادي: 164
ب-مستوى الكلام الإبداعي: 165
3-أغراض الرسالة اللغوية: 168
أ-غرض الإفهام: 174
ب-غرض الإقناع: **177**
ج-غرض التأثير والإمتاع: 181
الـخاتمة: 181
الفهارس العامة: 187
1-المصادر والمراجع العربية: 188
2-المصادر والمراجع الأجنبية: 188
3-الرسائل الجامعية: 189
4-المجلات: **190**

5- المقالات في الأنترنيت:

6-فهرس الموضوعات.